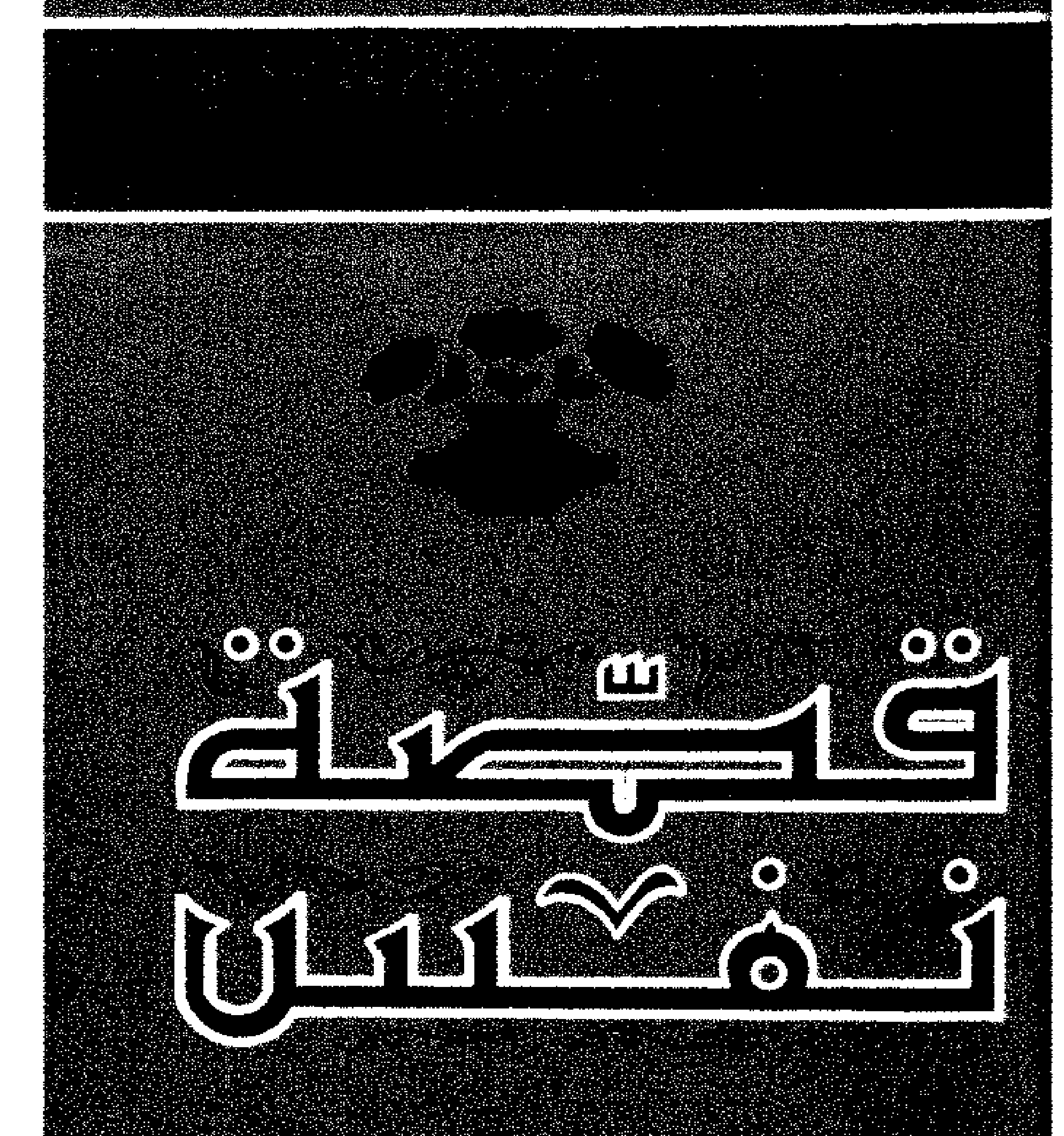

قصة
نفس

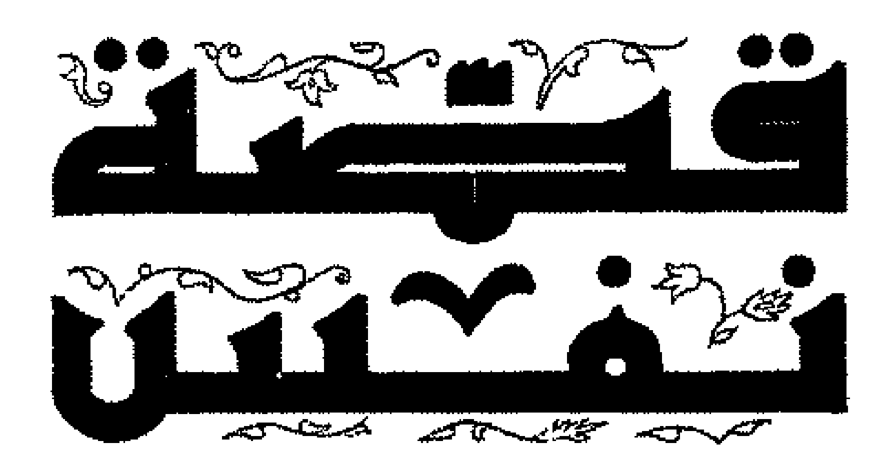

mohamed khatab


قصة
نفس

الطبعة الثانية
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
الطبعة الثالثة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨
الطبعة الرابعة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٢٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٢
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

الدكتور زكي نجيب محمود



دار الشروق

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت « قصة نفس » فى طبعتها الأولى سنة ١٩٦٥ ، وكان الكاتب قد بناها على مبدأ فنى ارتآه لنفسه إذ ذاك ، وهو أن يروى قصة تلك النفس من الباطن لا من الظاهر ، بمعنى أن يكون محور الاهتمام بالخلجات الداخلية قبل أن يكون بالأحداث الخارجية ؛ فتلك الأحداث الخارجية على مرأى من الناس ومسمع ، وأما التأثرات الداخلية التى استثارتها تلك الأحداث فى دخيلة النفس ، فتحتاج إلى بصيرة نافذة إلى العمق .

لكن لما كان جزء كبير من خلجات النفس فى استجابتها للظروف والعوامل المحيطة بها ، هو مما يود صاحب تلك النفس أن يخفيه عن الناس ، فقد اضطر الكاتب إلى اللجوء إلى الرمز ، فلا الأشخاص يذكرهم على حقائقهم وأسمائهم ، ولا الأحداث نفسها يصورها دائماً كما وقعت بالفعل .

غير أنه — أعنى الكاتب — كان كلما أحس أن الرمز قد تكثف حتى كاد يفقد شفافيته ودلالته ، تعمد أن يلقى فى سياق الحديث اسماً ما أو حادثة معينة بحقيقتها التاريخية الصحيحة ، بغية أن يشد القارئ من عالم الوهم إلى دنيا الواقع .

وبعد أن صدرت « قصة نفس » وأصبحت فى أيدى القراء ، وتحول كاتبها نفسه إلى قارئ لها ، بل إلى قارئ ناقد ، لقيت إعجاباً من جمهور القراء ، ربما لما كان فيها من تفرد فى البناء والصياغة ، إلا كاتبها فقد لمح فيها أوجه نقص — حين طالعها بعين الناقد — إذ خيل إليه أن الوحدة الفنية فيها لا تخلو من

تفككك ، كما خيل إليه كذلك أن انتقالها من خفاء الرموز إلى صراحة ال
كثيرا ما جاء انتقالا مفاجئا يحدث ما يشبه الصدمة عند القارئ ، ذلك
عن استرسال القصة فى ذكر جوانب من تلك النفس لم يكن ينبغى لها أ
محابسها لتصبح طليقة فى الهواء أمام الأبصار .

من أجل هذا ، تردد الكاتب فى أن يعيد طبع الكتاب ، برغم
الأصدقاء ، حتى إذا ما أوشكت عشرون عاما أن تنقضى على نشر
الأولى ، وهى فترة لم يكن الكاتب عندما روى قصة تلك النفس أول
يتصور أنها بقيت أمامها لتحياها ولتمتلئ خلالها بخبرات جديدة و
وارتعاشات .

وطلب من الكاتب أن يقدم كتابه للنشر فى طبعة ثانية ، صادف ال
هذه المرة – هوى عنده ، إلا أنه هم بما يوشك أن يكون تأليفا جديدًا
حذفت من الطبعة الأولى فصول ، وأضيفت إليها فصول ، وأدخلت على
من فصولها تعديلات كثيرة ، أملا فى أن تجيء صورتها الجديدة خلوًا
لكاتبها أنه عيوب شاهت بها صورتها الأولى .

وكان من أقوى الدوافع التى مالت بالكاتب إلى إخراج قصة تلك النف
صورة جديدة ، أنه كان قد فرغ لتوه من كتابة قصة أخرى يروى ت
« عقل ما » كيف سارت وتطورت ، وهو يعلم أن بين تلك « النفس »
« العقل » شيئًا من صلة القربى ، يبرر أن يضعها معًا جنبًا إلى جنب بين
القراء .

وبالله التوفيق .

ديسمبر ١٩٨٢ .

زكى نجيب

الفصل الأول

أحدب النفس

١

« الحياة عبئها ثقيل على من أصابه في الحياة خذلان » . هكذا قال لى ذلك الرجل العجيب ، الذى رأيته أول ما رأيته فى زحمة الطريق عابسًا ، يلتمس لنفسه مسلكًا بين مئات الناس الذين خرجوا لتوهم أفواجًا من دار السينما ، دون أن يمس أحدًا منهم بمنكب أو قدم ؛ يتأرجح فى مشيته بعض الشيء ، ولا يدق الأرض بعقبيه ؛ نظراته تنحدر نحو الأرض أكثر مما تلتفت إلى أعلى أو أمام ، كأنما أراد أن يتثبت قبل الخطو من موضع القدم ؛ تبدو على خطواته السرعة وما هى بسريعة ، وتشع من جبينه ومن فمه جهامة تصرف الناظر إلى وجهه عن رؤية ملامح عند النظرة الأولى ، حتى إذا ما ثبَّت الناظر فيه عينيه ، وأزال غلالة الجهامة عن صورته ، رأى ملامح ثابتة غليظة : حاجبان قويان عريضان أسودان ، وأنف طويل ملىء ، وشفتان مزمومتان ، ولحية وشارب كثيفان ، شعرهما سميك غليظ اختلط أسوده بأبيضه : ملامح تدل كلها على المضاء والحدة والبأس الشديد ، لولا أن عينيه تفضحانه فضيحة كبرى ، إذ تنطقان بأجلى بيان أن الرجل هادئ وادع مستسلم مستكين .

رأيته يمضى فى مزدحم الطريق ، وقد حمل على ظهره ما خيِّل إلى أنه ربطة كبيرة بيضاء ، شبكها برباط تحت إبطيه لتظل حركة الذراعين حرة ، فيطوحها

حينا ، ويضع إحداهما فى جيب سرواله حينًا ؛ إنه رجل عجيب يستوقف النظر بين جمع الناس الذين ملأوا الطريق ، يبدو من دونهم جادًّا مهمومًا صامتًا ، كأنه ينطوى على شىء . . . ثم ما هذا الحمل الذى حمله فوق كتفيه ؟

تعقبته مستطلعًا ، فرأيته يخلص من قلب المدينة إلى طرف من أطرافها بعيد ؛ وهنالك فى مكان تغلب عليه الظلمة إلا من شعاع خافت جاءه من مصباح الطريق خلال أوراق الشجر ، جلس على جدار لم يتم بناؤه ؛ جلس والحمل على كتفيه ، يتململ ويتأرّق ، ويرتكز على ذراعه اليمنى مرة وعلى ذراعه اليسرى مرة أخرى ، والحمل ما زال قائمًا على كتفيه ، فسعلت سعلة خفيفة لأشعره بوجودى على مقربة منه حتى لا يفزع إذا ما دنوت منه ؛ ذلك أنى خطوت إليه وحييته :

قلت : هذا مكان هادئ يوحى بالتأمل .

قال ؛ وقد هزته المفاجأة : نعم ، تشعر بهدوئه إذا أويت إليه من قلب المدينة الصاخب .

قلت : إنى لأعجب أن أراك ها هنا ، فما كنت أحسب أحدًا سواى يفكر فى هذا الركن الهادئ البعيد .

قال : بل العجب عجبى أن أراك ؛ فأنا أقضى فى هذا الركن المعزول أكثر ساعات المساء ، فما رأيتك قبل اليوم وما رأيت أحدًا سواك ؛ إننى آوى إلى هذا المكان لأستريح .

قلت : لكنك فيما أرى لا تريد لنفسك الراحة ، فحملك ما يزال فوق كتفيك .

قال : ما يزال ؟ ! وهل عرفت أنه من الأحمال التى لا تلقى عن الكتفين إلا

إذا فاضت الروح ؟ أنا قائم به وقاعد به ونائم به ومستيقظ به .

قلت : وماذا عسى هذا العبء الثقيل أن يكون ؟

قال : إنه عبء الحياة ، أما ترى ؟ هو عبء الحياة وقد انقض والله كتفيّ ، إنه ثقيل على من أصابه فى الحياة خذلان .

قلت : إذن فهو حمل نفيس .

قال : ليست نفاسة الحمل بمانعة من أن يكون ثقيلاً ، فالحمار الذى ينوء تحت أثقاله لا يعبأ أن تكون أثقاله تلك من ذهب أو من حطب .

قلت : ولكنك تستطيع أن تلقيه عن كاهلك إذا أردت .

قال : كيف أستطيع ؟ إنه متصل بالروح مرتبط بالجسد ، إن رئتيّ لتعلوان وتهبطان فى صدرى كأنهما منفاخ الحداد لا يفتر عن النفخ ليظل للنار وهجها واشتعالها ، فلا مناص من أن تظل جذوة الحياة مشتعلة بين جنبى — رضيتُ أم كرهتُ — وقد أتمنى لهذه الجذوة المتأججة اللاذعة المحرقة أن تنطفئْ فتصبح رمادًا تذروه الأعاصير كيف شاءت على يابس أو ماء .

قلت : وما لرئتيك ولهذا الحمل الذى على كتفيك ؟

قال : العلاقة بينهما وطيدة وثيقة ، فهذا الحمل أطرافه فى جوفى ، وهو مشدود هناك إلى أوتاده بما هو — فى الظاهر — أوهى من نسيج العنكبوت ، ذلك أنه مشدود إليها بأنفاسى هذه التى ترددها رئتاى شهيقًا وزفيرًا ، مشدود إليها بموجات خفيّة خفيفة من هواء ، ولكن الويل لى من هذه الأنفاس الواهية التى تنسجها رئتاى خيوطًا فتشد به هذا الحمل على كتفى لأنوء به ، ووددت لو عرفت أين تكون أطراف هذا المنفاخ الذى ما ينفكّ يعلو فى صدرى ويهبط كى أمسكه عن النفخ لحظة فتخمد الأنفاس وتنحلّ الروابط وينفكّ الوثاق ، وبهذا

ينزاح العبء الثقيل عن كاهلي ، إن أطرافه خفية ، أمد البصر في جميع أقطاري فلا أراها ، وأرهف السمع فلا يقع لها على حفيف أو رفيف ، وكل ما أسمعه هو هذه النفخات تتوالى من الشهيق والزفير ما ابيضّ لي نهار أو احلولك ليل ، إني لا أذكر الآن من هو الذي قيل عنه أنه ضاق صدرًا بأنفاسه التي تترد برغم أنفه ، ثم كره أن تشعل له جذوة الحياة بهذا المنفاخ اللعين وهو راغم فكتم أنفاسه حتى مات ، لا أذكر اسمه الآن ، لكني أكبره وأحيّيه ، وأشه إزاءه بالضآلة والصغر ، لأنه رأى الرأي ففعل ، وأما أنا فأرى ثم لا أفعل شيئًا

قلت : ما هذا الذي تراه ولا تفعله ؟

قال : أرى الحكمة في التخفف من هذا العبء الثقيل ، ثم لا أفعل شيئًا في سبيل الخلاص منه ، الحقّ أني لا أدري كيف يظل الإنسان مشدودًا إلى ما ليس يرضيه ، ثم يظل مشدودًا إليه برغم أنفه ، وهو عالم كل العلم أن الروابط التي تشده لا تزيد على نفخات من هواء ، لو سدّ عليها الطريق لحظة واحدة لانتهى كل شيء .

قلت : كلا ياصاحبي ، فالروابط التي تشدك إلى حملك هذا أقوى من هذه الأنفاس ، فليست هي بنفخات من هواء كما ظننت ، إنما هي الشعور بالواجب ، واجب الحياة ، نعم إنك تستطيع في أية لحظة شئت أن تتنكر لواجب الحياة لتظفر براحة الجسد راحة أبدية ، لكنه الجحيم بعينه أن تبث في نفسك القلق حين تتخلى عن واجب وجب عليك أداؤه بحكم وجودك .

قال : الواجب كريه أيًّا من كان فارضه وأيًّا من كان مفروضًا عليه ، لقد حكمت الآلهة على « أطلس » — في الأسطورة اليونانية — بأن يحمل السماء على كتفيه حتى لا ينقضّ بناؤها ؛ والسماء هي السماء بأنجمها الزواهر اللوامع ؛

فهل رأيت واجبًا أسمى وأمجد من أن تُكلّفَ حمل السماء على كتفيك ؟ وحملها « أطلس » ثم ناء بحملها ، حتى إذا ما جاءه « هرقل » يسأله عن مخبأ التفاحات الذهبية التي كُلِّفَ بالبحث عنها في أركان الكون وبين جنباته ، والتي قيل له عنها إن مخبأها ذاك لا يعرفه إلا « أطلس » حامل السماء ، أقول إنه ما جاء « هرقل » إلى « أطلس » يسأله أين عساه أن يجد بغيته ، حتى وثب « أطلس » إلى هذه الفرصة السانحة ، ليتخلص من عبئه الذى أنقض ظهره ، وقال لهرقل : لستَ بمستطيع أن تجدها بنفسك لأن منالها عسير ؛ فاحمل عنى هذه السماء لحظة حتى أعود إليك بها ؛ ورضى « هرقل » مسرورًا بحمل السماء حتى يحقق له « أطلس » بغيته التي لقى العناء فى سبيل تحقيقها ، وانطلق « أطلس » إلى حيث التفاحات الذهبية ، ورآها هناك تلمع فى بريق الشمس يحرسها أفعوان جبار ، فتسلل وغافل الأفعوان وهو فى غفوة ، وخطف التفاحات ، وعاد مسرعًا إلى حيث ترك « هرقل » فى انتظاره يحمل السماء بدلاً منه .

لكن « أطلس » حين اقترب من موضع « هرقل » تذكر بشاعة الحمل الذى حمله على كتفيه هذه القرون الطوال : تُرى هل يفى بوعده ويعطى « هرقل » تفاحاته الذهبية ثم يعود هو إلى حيث كان تحت عبئه الباهظ ؟ أو ينعم بهذه الحرية التي أتاحتها له الظروف فيتخلص من عبئه ذاك إلى الأبد ؟

لا ؛ إنه لن يعود إلى حمله ذاك ، وسيحتفظ بحريته التي ظفر بها بمصادفة قد لا تعود ؛ هكذا اعتزم « أطلس » ودنا من « هرقل » وقال له : ابق حيث أنت حاملاً السماء على كتفيك ، وسآخذ أنا هذه التفاحات الذهبية إلى حيث أردتَ أنت أخذها ؛ فتظاهر « هرقل » بالقبول والرضى ؛ أليست هى السماء بأنجمها اللوامع الزواهر ؟ إذن فليحملها راضيًا على كتفيه ، لكنه طلب من

« أطلس » أن يتفضل عليه بصنيع واحد صغير ، وهو أن يحمل الحمل لحظة قصية ، حتى يضع الوسائد على كتفيه ، لأن ضغط الحمل شديد على كاهله ؛ فأخذت الشهامة من « أطلس » مأخذها ، وفعل ما طلب إليه « هرقل » فعله ، وكيف يتردد فى قبول العناء لحظة أخرى قصيرة ، لقاء حرية يظفر بها من هذا العبء الثقيل إلى الأبد ؟

ألقى « أطلس » بالتفاحات على الأرض ، وحمل السماء عن « هرقل » حتى يضع « هرقل » على كتفيه الوسائد والحشايا التى تهوّن عليه أداء هذا الواجب الجديد الذى ألقى عليه ، لكن « هرقل » لم يكد يزيح عن كاهله حمل السماء ، حتى أخذ التفاحات ومضى تاركًا أطلس فى مكانه القديم ، يشقى بأداء واجبه الذى فرض عليه بحكم وجوده .

قلت : ماذا تعنى ؟

قال : أعنى ما قلته ، إن عبء الحياة ثقيل ، مهما تكن صورته ، ولا يشدنا إليه أو يشده إلينا إلا هذه الأنفاس نتنفسها ، ولو كتمها حامل العبء لاستراح من أداء هذا الواجب الثقيل .

قلت : ياصاحبى إن الحياة التى تؤرق صاحبها هى الحياة المريضة ، فأنت لا تشعر بوجود أى جزء من أجزاء جسمك إلا إذا اعتلّ ، إنك لا تشعر بوجود عينيك أو أذنيك أو معدتك أو قلبك إلا إذا أصابتها أو أصابته العلّة ، أما إذا كانت هذه الأجزاء سليمة فلن تشعر بمجرد وجودها ، فضلا عن أن تحسّ الألم من حملها . إن حياتك – فيما أرى – قد مرضت فأحسستَ بوجودها ثم بحملها وثقلها ، كأنما هى زائدة أضيفت إليك وليست منك ولا أنت منها ، ولستُ أعجب الآن أن أرى حياتك المريضة هذه قد برزت فوق ظهرك قتبًا كبيرًا .

قال : قل ما شئت فيها ، فهي حياتي التي لا أملك سواها ، وقد ضقتُ ذرعًا بثقلها .

٢

شغلني « أحدب النفس » طول الليل — ذلك الرجل العجيب المكتئب العابس ، الذي يحمل عبء حياته قتبًا بارزًا على ظهره — شغلني طول الليل ، يملأ أحلامي إذا غفوت ، وتمثّلُ صورته أمام عيني إذا صحوت ، وما زلت طول ليلي بين غفوة وصحو حتى كان الصباح .

ترى لماذا يحمل هذا المسكين حياته كالحِمْل الكبير فوق ظهره ؟ أيكون ذلك لأنه ركّز انتباهه فيها فوضحت له علّتها وبرّز أمام عينيه سُخْفُها ؟ ولو قد تغافل عنها كما يفعل سائر الناس لسَرَتْ في دمه ، وخفيت عن بصره ؟ يجوز . . . كما تكرر لفظة وتركّز سمعك في جرسها ، فسرعان ما تنفر من صوتها المنكر ، بعد أن لم تكن قد فطنت لنُكره حين استخدمتها غير آبه لها ولا ملتفت إليها ، خذ كلمة إمبراطور وكررها عدة مرات : إمبراطور ، إمبراطورمبرا ، طورمبرا ، طورمبراطور . . صوت عجيب منكر ، ظهر نُكره وشذوذه حين ألقينا إليها السمع ، وكان يمكن ألا نقف عنده هذه الوقفة الفاحصة ، فيظل له في النفس هيبة وجلال .

كذلك صاحبنا « أحدب النفس » ربما كان الفرق بينه وبين سائر الناس أنه قد أنعم النظر في معنى حياته ، فانتهى به النظر إلى أنها أنفاس فاترة واهية من هواء فاسد ، لا شيء أكثر من ذلك ؛ وهو لهذا يعجب كيف يجوز أن يُشَدّ وثاقه إلى الأرض بخيوط واهية كهذه على كره منه ؟

وأحسست برغبة قوية فى نفسى أن ألقى هذا الرجل لقاء آخر ، فقصدت فى المساء إلى المكان المهجور الهادئ الذى لقيته فيه أول مرة ، ووقفت طويلا أرقب من بعيد ، حتى رأيته يسرى فى غير صوت بين الظلال كأنه الشبح ، إنك لا تخطئه من بعيد ، فالحمل الذى على كتفيه يميزه ، وله مشية خاصة يتأرجح فيها الجذع وتلتف الساقان .

وقفت فى مكانى حتى رأيته يستقر فى موضعه من الجدار الذى لم يتم بناؤه ، صعد على كومة وطيئة من هشيم الصخر ، ومسح جبهته بمنديل ، ومال مرتكزًا على ذراعه اليسرى ، فدنوت منه .

قلت : السماء الليلة أكثر غمامًا ، والدنيا أشد ظلامًا من ليلة الأمس ؛ برغم وجود القمر .

قال — ولم يرتح لرؤيتى — : وماذا يصنع القمر فى الدنيا إذا اسودّت بظلامها وغمامها ؟ إنّ من أراد الضوء فضيًّا رائعًا خالصًا من شوائب الظلمة ، فليرتفع عن الأرض وغلافها حتى يجعل الغمام من دونه ، وعندئذ لا يكون ظلام ، لكن الإنسان مشدود إلى الأرض بأحمال وأثقال ؛ لا ، بل إنه لمشدود إليها بهذه الخيوط الواهية ؛ مشدود إليها بنفخات من هواء ، وإذن فلا رجاء له فى ضوء أكثر مما قد يتسرب إليه خلال فتحات السحاب . العجيب فى هذه الدنيا أنها بيع وشراء ، فلا بد أن تدفع لكل شىء ثمنه ! أتريد أن تمتد بك الحياة ؟ إذن فخذ من حولك هبّة من الهواء شريطة أن تردّ مكانها هبّة مثلها ، أتريد أن تخلص من ظلام الأرض ليصفو لك الضوء ؟ إذن فاصعد إلى قمة هذا الجبل العالى حتى تجاوز السحاب ، عندئذ تجد الضوء وقد صفا من الشوائب ، لكنك ستجد كذلك برودة الثلج .

قلت : وماذا يشقيك من غمام السماء وظلمة الليل ؟ انظر إلى الدنيا بعين الفنان تر السماء الغائمة فى مثل جمال السماء المقمرة ، أليس ظلام الليل أحياناً أشد فتنة من ضوء النهار ؟ سل العاشقين يجيبوك أيهما أفعل فى نفوسهم سحرًا ، الليل الوسنان فى ستره ، أم النهار اليقظان فى نشاطه وصحوه ؟ سل العابدين متى تصفو لهم قلوبهم للعبادة ؟ سل المفكرين متى تهدأ لهم عقولهم للتأمل ؟ سل المُجّان متى يطيب المجون ؟ سل المتآمرين لماذا يدبّرون الأمر بينهم بلَيْل ؟ . . فلماذا لا تلتمس يا أخى فى كل شىء وجهه الجميل ؟ إن الذى ينقصك هو الخيال .

قال : الخيال الذى أهرب به من الواقع ؟

قلت : ليكن ذلك ، ولماذا تستعبد نفسك للواقع إذا أمكن العيش الهانئ فى جو من الخيال ؟ أتدرى ماذا تكون المرأة الجميلة فى « الواقع » ؟ إنها تكون كيسًا من الجلد محشوًّا بالقذر والبلغم ومختلف السوائل والغضاريف ! أتدرى ماذا تكون الصورة الجميلة فى « الواقع » ! إنها تكون خرقة من قماش صُبَّ عليها خليط من الأحمر والأصفر والأخضر أو ما شاء الله من صباغ ، واعصُرْ الوردة الجميلة بين أصابعك لترى ماذا عساها فى « الواقع » أن تكون ؟ . . إن الذى ينقصك — كما قلت — هو الخيال ، الخيال الذى يجعل لك من المرأة شيئًا جميلاً ، ومن الصورة شيئًا جميلاً ، ومن الوردة شيئًا جميلاً ، ومن غمام السماء شيئا جميلاً ، ومن ظلمة الليل شيئًا جميلاً ! لماذا تنظر إلى الأرض كما تفعل الديدان ، ولا تشخص ببصرك إلى السماء كما تصنع الآلهة ؟

لست أدرى لماذا أخذنى الاهتمام بهذا « الأحدب » فامتلأت حرارة وأنا أبادله الحديث ، لقد أُوحى إلىّ عندئذ أن هذا « الأحدب » عليل النفس ،

مريض القلب ، كليل الحياة ، وأن قوة خفية تقتضيني أن أقوّم فيه ما أعوجّ إذا استطعت إلى تقويمه من سبيل ؛ إنه عابس ولابد أن يبتسم ، يائس ولابد أن ينبسط أمامه الأمل ، متشكك ولا بد له أن يؤمن ، أعماره « الواقع » ولا بد له أن يجاوز حدود الواقع بعين الخيال .

لكن « الأحدب » قد ضاق – فيما يظهر – صدرًا بحديثي ، وأخذ يعتدل في جلسته مرة ، ويميل على هذه الذراع مرة وعلى تلك مرة . ويشيح بوجهه عني ، كأنه يريد أن يصرف الأذن عما أقول ، بيد أني لم أعد أنظر إلى موقفي منه نظرة التسلية والعبث ، فلا أقل من أن أستطلع بعض سره ، وأستخرج شيئًا من مكنون نفسه ، وسادت فترة قصيرة من سكون ، ونزل عن مكانه من الجدار ، وقال في صوت فيه تكلف وافتعال :

– أنا مضطر أن أعود وسينقطع بعودتي هذا الحديث الجميل .

قلت : الأرجح أن طريقنا واحد ولو إلى حين .

ولعله لم يطب نفسًا لهذه الصحبة الثقيلة في طريق عودته ، لكني تجاهلت ما يريده لنفسه من عزلة الطريق ، وسرت إلى جانبه ، سرنا بخطوات بطيئة خفيفة ، لكن وقع أقدامنا على حصباء الرمل ومنثور الحجر ، كان له رنين في ذلك الركن الهادئ البعيد .

قلت مستأنفًا الحديث : نعم ، إن الذي ينقصك هو الخيال ، ينقصك مَثَلٌ أعلى تعمل من أجله فينسيك الهدف مشاقّ الطريق .

قال – وقد ازداد تثاقلاً في خُطاه – : أصابني مرض الخيال وعلة المثل الأعلى منذ خمسة وعشرين عامًا ، ولبثت آثار المرض تتراكم ، حتى كان هذا النتوء الذي تراه شائهًا فوق كاهلي . . . في ذلك الماضي البعيد قلت لنفسي :

دع عنك الواقع وخشونته وغلظته وجلافته ، والتمس لنفسك سُلّمًا فى دنيا الخيال تصعد على درجاته إلى أجواز السماء ؛ إن صحبة الأصدقاء فى لهوهم « واقع » فلا تأبه لها ، والمرأة « واقع » فلا تُلْقِ بالك إليها ، والطعام والشراب « واقع » فلا تحفل بطعام أو شراب ، هذا الذى حولك كله « واقع » فاخرج من نطاقه ؛ وهناك فى صومعة وقعتُ عليها فى جوف الجبل ، آثرت العيش فى كنف الخيال

ولبثت أعمر الصومعة بخيالى عاما فى إثر عام ، وعقدًا من السنين بعد عقد من السنين ، لم تكن الصومعة خالية فى بصرى وسمعى ، كنت أرى فيها الخيال مجسما حتى لأنسى أنه من خلق أوهامى ، أحدثه وأسمع لحديثه ، وأتملقه ويبتسم فى وجهى ، وظللت فى صومعتى أعبد آلهة خيالى ، لا أشهد نور الشمس ، ولا أريد أن أشهده ، ولا أرتد إلى دنيا الناس والعمران ولا أريد أن أرتد إليها ، ولا أستنشق الهواء الطلق النقى ولا أريد أن أستنشقه . . . كنت على نقيض فاوست :

فقد اتفق الشيطان مع فاوست أن يمهله ردحًا من الزمن ، يعمل فيه فاوست ما يشاء ، شريطة أن يأتيه الشيطان بعد ذلك فيتقاضى أجر إمهاله ، وليس أجره بأقل من روح فاوست ؛ وكان فاوست عند أول اتفاقه مع الشيطان يظن أنه الكاسب فى هذه الصفقة ، فماذا يهمه من نفسه إذا ما تُرِك له الحبل على الغارب عشرين سنة أو ثلاثين ؟ لكن السنين انقضت ، وصَبْر الشيطان جميل لا ينفد ، وجاء الشيطان ليستل من فاوست حياته ، وعندئذ فقط أدرك فاوست أنه خسر فى اتفاقه مع الشيطان خسرانًا مبينًا ، إذ كيف يبيع روحه بعشرين عامًا أو ثلاثين ، مهما يكن ما يملأ هذه الأعوام ؟

وأما موقفى من شيطانى فعلى نقيض ذلك ؛ عقدتُ معه اتفاقًا أن أبيعه حياتى ردحًا من الزمن ، على أن يردّها إلىّ بعد ذلك خصبة مليئة قوية ؛ وذهبتُ إلى صومعتى تلك ، لا أعرف فيها الحياة ولا أخالط الأحياء ؛ أعلل النفس طوال السنين بأن حياتى السلبية مردودة إلىّ بعد حين ، بعد أن تكون كل حبة فيها قد أنبتت مائة سنبلة ، وفى كل سنبلة مائة حبة ، فلما انقضى على غربتى عهد طويل ، طلبت من الشيطان أن يفى بوعده كما وفيت له بعهدى ؛ وفعل ، فإذا ما يعطينيه نفخات من هواء ، هى هذه الأنفاس أرددها فى صدرى ، ثم لا شىء غير ذلك ؛ وضحك منى الشيطان ضحكة قوية حسبتُ الأرض ترتجُّ لها تحت قدمى ؛ وهاهنا ابتسمتُ ابتسامة من زالت عنه غشاوة الخيال لأول مرة ، وأبْصَرَ حقيقة الواقع لأول مرة ، وقلت لنفسى : إذن أستريح بعد هذا العناء الطويل ، إن الصومعة التى عَمَرها لى الخيال قد باتت خاوية إلا من أصداء أنفاسى .

لكن مضجعى لم يستقم تحت ظهرى حين أردت الراحة ؛ لأن عهد الصومعة كان قد خلّف لى هذا الورم الأليم الذى تراه بارزًا عند كتفى ، إنه ورم نسجته لى الأعوام طبقة فوق طبقة ، كما يفعل مَر الأعوام فى جذوع الشجر حين يرتسم عليها حلقة وراء حلقة .

وكنا قد بلغنا العمران ، وأراد « الأحدب » أن ينصرف إلى سبيله ، فقلت له مودعًا ، إن لى معك حديثًا آخر .

٣

حسب صاحبى « الأحدب » حين افترقنا أنى أدبرت عنه كما أدبر عنى ،

لكنى تعقبته لأرقبه وهو يلتمس لنفسه الطريق فى زحمة الناس التماس الحيىّ الذى يخشى أن تلتقى بعينيه عينان ، إنه على وعى شديد بنفسه ، إن ذراعيه تحيّرانه وتربكانه ، فأين يضعهما ؟ وذلك وحده دليل على حيرة نفسه وارتباكها ، ألا إن الذراعين لتخبرانك بمكنون النفس كما تخبرك العيون والشفاه ، إنه لا يمشى فى ضوء المصباح إذا وجد الظلام ، ولا يقصد إلى مزدحم الطريق إذا رأى الفضاء المهجور ، عيناه مصوبتان نحو الأرض دائمًا ، وقدماه تحفّان الأرض حفًّا خفيفًا .

عبر الطريق فى موضع كثر فيه العابرون ، إنه فى العابرين بارز واضح ، فهو لا يفنى فى الزحام ، ولا يذوب فى الناس ، إنه فيهم كملعقة من الزيت صُبَّتْ فى قدح من الماء تحركها إلى أعلى وأسفل ، وإلى يمين وشمال ، فما تزال شيئًا متميزًا من الماء الذى حولها ، إنه فى أمواج الناس على طول الشارع لم يفقد معالمه ، أخذ يعلو على تلك الأمواج البشرية حينًا ، أعنى أنه كان يظهر لى حينًا ويختفى حينًا آخر ، حتى انتهى إلى شارع هادئ متباعد المصابيح .

كان ظله مروعًا مخيفًا ، يقصر ويطول ، ثم يقصر ويطول ، هو الآن مطروح أمامه ، وهو الآن إلى جانب ، وهو الآن ممدود وراءه يتابعه ويلاحقه ، وهو فى كل أوضاعه أبعد ما يكون الظل عن صورة البشر ، وما هو إلا أن دخل « الأحدب » دارًا ، بخطوات سريعة ، كأنه الأرنب المذعور يأوى إلى جحره ليستكن فيه آمنا من طراد الصائدين .

فوقفت بغتة ، ثم سرت مسرعًا نحو الباب الذى قذف « الأحدب » بنفسه فيه ، لم أر شيئا هنالك إلا مصباحا كهربائيا خافت الضوء فى الركن الأعلى من بهو السلّم ، إنه بناء عالٍ من ستة طوابق أو سبعة ، وحين صَعَّدت بصرى فى لمحة

سريعة إلى أعلاه ، لم أر إلا نوافذ وشرفات ، أكثرها معتم وأقلها مضيء .

من عسى هذا « الأحدب » أن يكون ؟ أينطوى جنباه على سر دفين ، أم أنه لا سرَّ فى الأمر ، وأن كل ما فى جوفه قد برز ورمًا على ظهره ؟ لكنه شاذ غريب بغير شك ، إنه قطعة منثورة وحدها ، والويل كل الويل ، ثم الخير كل الخير ، من هذه القطع التى تنثرها عجلة الحياة بعيدًا عن مركزها وإطارها ، فتظل دائرة فى فلك وحدها ؛ فمن هؤلاء يكون الثائرون الساخطون ، ومنهم يكون العظماء المصلحون ، ويكون الأنبياء والأولياء ، ويكون المجرمون النوابغ فى إجرامهم ، ويكون الفنانون المبدعون فى فنهم ؛ فما أقرب الشبه بين هؤلاء جميعًا على بعد ما بينهم من تفاوت واختلاف ، كسيل الماء العرم ، هو الذى يصلح الزرع ، وهو الذى يفسده ، على حسب ما يحيط به من ظروف .

و « الأحدب » - فيما يظهر لى - قطعة بشرية منثورة وحدها ، تدور فى فلك وحدها ، تُرى من ذا يكون وماذا يكون ؟ لقد بتُّ ليلتى أفكر فيه وأفرض فى أمره الفروض ، وعاودنى الشعور الخفىّ أن أصلح ما فسد ، فأقيم فى هذا المسكين ما التوى ، وأقوّم ما مال وأعوّج ؛ أو قُلْ إن حبى لاستطلاع أمره قد غلبنى ، فسترتُ نفسى وراء هذا الشعور الخفى ، وتذرعت بهذا السلاح ، ومضيت عصر اليوم التالى إلى الدار التى دخلها « الأحدب » ليلة الأمس ، مضيت لا ألوى على شيء ، وأخذت أسرع الخطو حتى لا يصرفنى التردد عن غايتى .

لم أجد عند الباب أحدًا ، وتلفتُّ هاهنا وهاهنا ، وتحركت خطوتين هنا وخطوتين هناك ، ثم دخلت وصعدت الدّرج مبطئًا غاية الإبطاء ، شاخصا ببصرى إلى أعلى : الأبواب كلها مغلقة ؛ صعدت الدرّج حتى نهايته ؛ ونهايتهُ سطح نظيف ؛ وقفت قليلا وقلبى ينبض نبضًا شديدًا من الصعود ومن الخوف

معًا ، الخوف من هذا البناء المهجور الذى لا يعمره إنس ولا جن ، لكنى رأيت الضوء منبعثا من نوافذه ليلة الأمس ، وهممتُ بالنزول ، لولا أنى بلفتة غريزية لويتُ عنقى ونظرت إلى نافذة مغلقة الزجاج فى ركن السطح ؛ إن وجهًا يطل من خلف الزجاج ، إنه هو « الأحدب » .

لم يعد بينى وبين كشف الغطاء إلا خطوات خطوتُها نحو غرفة « الأحدب » ، وفتح لى الباب قبل أن أقرعه . . . إن روعى ليهدأ قليلا قليلا ؛ إن الخوف ليتزاح عنى إزاء هذا الوجه الباسم الذى فتح لى الباب ليتقبلنى مسرورًا مُرَحِّبًا ، ليس الوجه العابس فى الطريق عابسا هنا ، والصدر الضيق على الجدار الذى لم يتم بناؤه رحيب واسع هنا ؛ ولولا نتوء الورم فوق ظهره لقلت إنه إنسان آخر ، لقد استدرّ وهو فى الطريق إشفاقى ، لكنه فى داره استثار حبى ؛ إنه هاهنا يمزج فى حديثه الجد بالفكاهة ، ويقول النكتة فى إثر النكتة ، ويضحك من كل قلبه ؛ ألا سبحانك اللهم ، تضع الرجلين — بل تضع جمهورًا من الرجال — فى إهاب واحد .

إن مشكلة « الهوية » التى تحير الفلاسفة لم تعد تحيرنى ، فالفلاسفة يصدعون رءوسهم تصديعا فى محاولة الجواب عن هذا السؤال ، كيف يحتفظ الشخص الواحد بهوية واحدة مع اختلاف ظروفه ؟ إنه يكون صحيحا ويكون مريضا ، ويكون طفلا ويكون رجلا ، ويكون شبعان ويكون جائعا ، ويكون غضبان ويكون راضيا ، ويكون يقظان ويكون نائما ؛ ومع هذا الاختلاف الشديد الذى يطرأ على حالاته يظل إنسانا واحدا ؛ فما الذى فيه يخلع عليه تلك الوحدانية مع تعدد حالاته وأوضاعه ؟ كلا ، لم تعد تحيرنى المشكلة التى تحير الفلاسفة ، بعد أن رأيت « الأحدب » فى الطريق وفى داره ، فلا وحدانية

هناك ؛ ليس الرجل رجلا واحدا ، ولكنه عدة رجال ؛ هو فى كل حالة رجل غير الرجل الذى يكونه فى الحالة الأخرى ؛ فمحال أن يكون « الأحدب » العابس الجاد المهموم الحزين الذى رأيته وتحدثت إليه وهو جالس على الجدار الذى لم يتم بناؤه ، هو نفسه « الأحدب » الضاحك المرح المرحِّب بى وهو فى داره .

أدخلنى « الأحدب » ، فعبرنا بى ردهة لاحظت خلاءها من الأثاث تقريبا ، وانتهينا إلى غرفة هى مأواه ، فيها كل شىء : فيها السرير وصوان الملابس ومكتب ومكتبة ومنضدة ومقاعد ومرآة ؛ أثاثها هزيل لكنه نظيف ، وتنسدل على النافذة ستارة رقيقة فيها خروق ممزقة ؛ لكنك تشعر فى غرفته بالطمأنينة وراحة النفس ؛ وليست ديار الناس فى ذلك سواء ، فقد أزور الدار وأحس أثناء زيارتى أنى أتقلب على الشوك دون أن يكون بينى وبين صاحب الدار ما يدعو إلى النفور ، ثم قد أزور الدار فينبسط صدرى وتطيب نفسى ، وأتمنى لو بقيت فيه اليوم كله ؛ وقد قلت ذلك لصاحبى « الأحدب » فور جلوسى على مقعده المريح ، الذى كان - فيما يظهر - جالسا عليه لتوّه ، لأن الحشية كانت ما تزال دافئة بحرارته .

قلت : إن النفس لتحس الطمأنينة فى غرفتك هذه ، والمنظر الذى يطالعك من نافذتك رائع جذاب .

قال : إذن لا أحسب الفجوة بين نفسينا عميقة كما يبدو للوهلة الأولى ؛ فقد أعجبك مأواى هاهنا ، كما أعجبك ملاذى المادىّ الذى ألوذ به خارج المدينة من صخب الحياة ؛ إن النفوس الإنسانية لتشعر بالتقارب والتدانى فى حالات هدوئها ، حتى إذا ما عجَّ بها عجيج الحياة ألفيتها متنافرة متعاركة ؛ لا عجب أن

يكون الناس جميعا سواء وهم نيام ، ثم يأتى الموت – وهو نوم طويل بغير آخر – فيسوّى بينهم إلى الأبد .

وخشيت أن ينتقل صاحبى بذكر الموت إلى حالة من حالاته الكئيبة السوداء ، فغيرت موضوع الحديث ، وجعلت موضوعه أقرب ما وقعت عليه يدى فوق المنضدة الصغيرة الوطيئة التى كانت أمام مقعدى .

قلت : ما هذه المكعبات الخشبية الملونة المصورة ؟

قال – وكان ورائى مشتغلا بإخراج الفناجين والأكواب من خزانة خشبية صغيرة فى ركن غرفته – : تلك لعبة من لعب الأطفال اشتريتها لألهو بها ؛ إنها مكعبات تُرَصُّ فتكوِّن صورًا لا نهاية لعددها .

ودنا منى « الأحدب » وأشار بإصبعه إلى اللعبة وقد رص ما يقرب من نصفها ، فإذا هى صورة حصان عليه راكبه ، ولم يبق من الصورة إلا أرجل الحصان .

قلت : أحسبك كنت فى سبيل إتمام الحصان بأرجله ؟

قال : هذا ما حِرْتُ فيه ؛ حاولت عبثا منذ ساعة الغداء ، فلم تستقم للحصان أرجل ، حتى لقد مللت فوقفت أنظرَ من نافذتى حين رأيتك قادما .

قلت : وما فائدة الحصان بغير أرجله ؟ إن راكبه المسكين سيظل مشلول الحركة حتى تتم لحصانه الأرجل فيسير .

هنا وضع « الأحدب » قدحين كانا فى يده ، وضعهما على ظهر مكتبه ، وجلس ؛ إنه ساعتئذ هو نفسه « الأحدب » الذى رأيته هناك على الجدار ، وهو نفسه « الأحدب » الذى رأيته فى الطريق . وليس هو « الأحدب » الذى تلقّانى بالبشْر والترحاب ؛ لقد عبس وجهه وتجهم ، ثم استرخى استرخاء مَنْ

فَقَدَ القدرة على الوقوف والحركة ، وابتسم لكنها ابتسامة غير التى لقينى بها ، فهى ابتسامة صاحب النفس المريضة المعبأة بالهموم ؛ ألَا ما أسرع التغير فى سماء هذا الرجل : صفو فى لحظة وغمام كثيف فى اللحظة التى تليها .

قال : لعل ذلك بعينه هو ما أعجزنى عن إقامة الحصان على قوائمه ؛ وإذن فما أشبه جدًّ حياتى بلعبها ! كأنى بك ياصديقى قد أتيتنى لتستطلع شيئا من أمرى ، فهذا هو أمرى قد انكشف لك فى لحظة واحدة ؛ فنى هذا الحصان المقعد تتلخص قصة حياتى ؛ ولكل امرئ جواده ، ومن الجياد ما يستقيم على قوائمه فيسرع الجرى ، ومنها ما تعوزه الأرجل فيقبع ، وجوادى كسيح ، فجسمه هنا وأرجله هناك ، لكن بصرى يقصر دون أن يلتمس للأرجل مكانها من البدن ، وليس النقص فى الأجزاء ولكن النقص فى المهارة التى تقيم بناءها ؛ إن الذى يرى أحرف الهجاء أمامه ولا يستطيع أن ينشئ منها قصة أو قصيدة يكون العجز فيه ولا يكون العيب فى الأحرف .

قلت : دع عنك الآن هذا الحصان ولعبته ، وانظر ماذا أردت أن تضع فى هذين القدحين من شراب .

لكننى صممت أن أستطلع قصة « الأحدب » لعلى أردّ هذا الحدب الذى تورَّم به ظهره إلى عناصره .

الفصل الثاني

حصان من الحلوى

١

أخذت أحفر تحت هذه النّبتة الملتوية لأتعقبها إلى جذورها العميقة الدفينة فى تربة الأرض ، لعلى بذلك أصِل الخيوط بين الأول والآخر ، بين البداية والنهاية ، بين البذرة والثمرة ، ببين الجرثومة والمرض ، بين ظروف النشأة الأولى وهذا القتب فوق كتفى صديقنا الأحدب المسكين .

فربطت أواصر الصداقة بينى وبينه ، أزوره كلما واتتنى الظروف ، ويأنس لزيارتى ولصحبتى ، ولم تكن الصحبة إلا إلى ذلك الملاذ الهادئ ، خارج المدينة بعد الغروب ، وتركت الحديث بينى وبينه يجرى مجراه الطبيعى ليخرج لى بعض المعالم التى كنت أستند إليها فى متابعة بحثى بعيدًا عنه : فأين كان مولده ، وأين نشأ وتربى ، ومن هما والداه ، ومن هم الذين أحاطوا به فى مراحل حياته ؟ وكنت خلال ذلك كله أتلمس اللحظات التى ظننتها تكوّن من حياته معالمها .

فليست اللحظات فى حياة الإنسان كلُّها سواء من حيث فعلها فى توجيه الأحداث ، فمنها ما قد يمضى ولا أثر له ، ومنها ما يكون له من بُعد الأثر وعمقه مايظل يؤثر فى مجرى الحياة إلى ختامها . وإن النظر إلى حياة إنسان بمجموعة أحداثها ، لكالنظر إلى مشهد طبيعى أو إلى صورة فنية ، فالعين لا تبدأ النظر من حافة الإطار اليمنى ثم تسير فى خط أفقى مستقيم حتى تنتهى إلى حافة الإطار

اليسرى ، بل إنها لتقع أولا على نقطة بارزة هنا أو هناك ، كشجرة على يمين الصورة أو جبل على يسارها أو قمر ساطع فى وسطها ، ثم من هذه النقطة ينساب البصر فى مختلف الاتجاهات : فكأنما هذه النقطة البارزة ينبوع تفجرت منه بقية الأجزاء ، وهكذا يكون النظر إلى حياة إنسان بمجموعة أحداثها ، فعندئذ أيضا يتجه الانتباه إلى لحظات بارزات ، كانت حاسمة فى توجيهها ، ومن تلك اللحظات ينساب البصر إلى سهول تلك الحياة ووديانها .

ولم تكن لحظة الميلاد – بالنسبة لصاحبنا الأحدب – واحدة من لحظاته الحواسم ، فكأنما هى جزء من حياة غيره أكثر منها جزءا من حياته ، إنه يحددها بشهادة الميلاد ، مفترضا الصدق فيمن كتبها ومن أملاها ، لأنه لا يملك فى دخيلة نفسه دليلا على صدقها أو على كذبها ، ولو احتكم إلى حياته الباطنية لما وجد فرقا بين أن يكون قد عاش على ظهر الأرض خمسين عاما أو خمسة آلاف عام ، فكل الشواهد التى يُسْتَدَلُّ بها على مدى ما قد عاشه من سنين ، شواهد خارجية ليس فيها شاهد باطنى واحد ، إن ذاكرته لا تقفل راجعة إلى ساعة ميلاده .

وإذن فالأمر كله مرهون بشهادة غيره ، فهكذا يقول الوالدان ، وهكذا تثبت دفاتر الحكومة .

٣

إن ساعة الميلاد الحقيقية هى أول ما تستطيع الذاكرة أن ترتد إليه ، ولقد جعلتُ « الأحدب » يكدُّ الذاكرة كدًّا راجعاً القهقرى ، لعله يظفر بأولى لحظات خبرته الحية ، فوقفتْ به عند ليلة مظلمة شديدة الظلمة ، حين عاد به

أبوه من القاهرة إلى بلده فى الريف ، وهو بلد يقع فى شمال الدلتا بالقرب من البحر ، وكان المسافر إليه يركب القطار إلى أقرب محطة فى البر الغربى من فرع دمياط ، ثم يستقل مركبا يعبر به النيل إلى ضفته الشرقية منحرفا بعض الشيء إلى جنوب ، حتى إذا مارسا أمام القرية المطلة على النيل ، صعد جسرًا ، وفى صعود صديقنا الأحدب ذلك الجسر مع أبيه فى تلك الساعة المعتمة من جوف الليل ، كان الطفل – وهو عندئذ فى الرابعة من عمره – يحمل ربطة فيها حصان من حلوى المولد النبوى ، اشتراه له أبوه أثناء الطريق ، صعد الصبى الجسر مع أبيه ، حلواه فى يسراه وأبوه يجذبه من يمناه ، وكلاهما يتعثر فى الصعود وتنغرس قدماه فى الحصى والتراب ، فقال له أبوه – وهما فى طريق الصعود يتعثران ويلهثان – كأنما أراد بقوله أن يخفف من حدة الصمت ومن شدة المجهود : « أريد أن أراك رجلا عظيما » ، ولم يكد ينطق بحرف الميم فى آخر عبارته ، حتى سقط الصبى على وجهه ، فانفلتت يده اليمنى من قبضة أبيه ، وانفلتت ربطة الحلوى من يده اليسرى ، وتهشم ما فيها ، فأنهضه أبوه ، والتقط له الحلوى المهشمة التى كان غلافها الورقىّ قد تمزق من بعض جوانبه ، فتسرب شيء من التراب والحصى إلى داخل ، وتسرب شيء من الحلوى إلى خارج .

قصّ علىّ « الأحدب » هذه القصة ، وأردف يقول : « لست أدرى ما الذى دار فى رأسى عندئذ ، لكننى حتى هذه الساعة لا أقرن الكثير الذى رجوته لنفسى أيام الصبا ، بالقليل الذى حققته منه فى الواقع ، إلا وأذكر على الفور تلك الحادثة ، ترى هل كان هذا هو الخاطر الذى طرأ لى عندئذ – ولو بصورة مبهمة غامضة – أعنى هذه المفارقة المؤسفة بين الأمل الذى عبّر عنه والدى ، وهو رغبته فى أن يرانى رجلا عظيما ، والخيبة العاجلة التى جاءت

كالإجابة الهازئة من قدر ساخر ، أقول : ترى هل كانت هذه المفارقة الحادة بين الرجاء المأمول والخيبة الواقعة هي البذرة الأولى التي منها انبثقت على مدى حياتي هذه الرغبة الملحة في الوصول ثم هذا الشعور القوى بأنني لم أصل ؟ »

قلت للأحدب : ليست هذه حالة خاصة بك أنت وحدك ، برغم هذه القصة التي قصصتها ، فمن خصائص الطبيعة الإنسانية كلها هذا التطلع الذي يتشوّف وراء الكائن الفعلي المحصَّل إلى ماهو غائب مجهول مرتقب ، نعم إن من خصائص الطبيعة الإنسانية كلها هذا القفز من المتحقق بالفعل إلى ما يجب أن يتحقق ، هذا القفز من الواقع إلى الممكن ، من المكسوب إلى المأمول ، فهذا التطلع من الإنسان ، تطلعا يجاوز به دائمًا حدود الواقع إلى عالم الممكن ، هو الذي يدفع به من حالة النقص إلى حالة الكمال .

قال : لكني مازلت أتساءل : لماذا كلما رأيت الفرق شاسعا بين ما رجوته لنفسي وبين ما حققته ، وثبت إلى ذاكرتي عبارة أبي في تلك الليلة التي طمست بظلامها معالم الأشياء على مرتق الجسر ، مصحوبه بعثرتي التي عفّرت وجهي وهشمت حلواي ؟

كنت عندئذ في زيارة « الأحدب » عصر يوم من أيام الجمعة ، ولما كانت نافذة غرفته مطلة تجاه الغرب ، فإن أشعة الشمس قد سبقتني إلى غرفته ، وفرشت له الأرض بمستطيل من ضوئها ، دخلها خلال الستارة الرقيقة فكان رمادي اللون إلا عند بقَع صغيرة تقابل خروق الستارة ، وكان الشهر في أوائل الصيف ، فلم تكن حرارة الشمس من الضعف بحيث تحتمل الجلوس في مستطيل الضوء ، كما لم يكن في الغرفة إلا تلك النافذة الغربية فكان لابد من تركها مفتوحة ، ولذلك فقد جلسنا على كرسيين متباعدين بعض الشيء ، يقع

مستطيل الضوء بينهما ، فكان وهو يقصّ على قصة الحصان المهشّم ، يميل على كرسيه أحياناً ويشير بذراعيه ، فيحدث ظلا على مستطيل الضوء كثيرا ما كان يتخذ أشكالا غريبة ، حتى لقد جعلت أنصت إليه بنصف انتباهى ، وأتتبع تلك الأشكال الغريبة بالنصف الآخر ، فالظل أحياناً على شكل بجعة تمط عنقها الطويل ، وأحياناً أخرى على شكل أرنب مُقْعٍ ، وأحيانا ثالثة يصبح كالطائر الذى نشر جناحيه

ولعلى قد تعمدت أن ألهو بهذا الظل وأشكاله حتى لا أربكه بتركيز انتباهى كله فيما يقول ، فينطلق مرَّ العبارة ، ناضحا ذكرياته البعيدة من أعماق نفسه ، ولقد اعتقدت أنى بهذه القصة الصغيرة التى رواها ، ووقعتُ على مفتاح شخصيته التى أردت فتح مغاليقها والكشف عن أسرارها .

كان عند « الأحدب » جهاز صغير يصنع فيه الشاى وهو فى غرفته ، وهو إناء ذو قابس كهربائى ، يضع فيه الماء فلا يلبث أن يغلى بحرارة الكهرباء ، ولم يكد ينتهى من قصة الحصان ، حتى نهض فملأ الإناء من صنبور فى البهو ، ووضع القابس فى مقبسه من الحائط ، وراح يخرج فنجانَى الشاى من خزانتها الصغيرة ، ومعها سائر الأدوات ، حتى إذا ما أعدَّ كل شىء وجلس على مقعده ، نظر إلى فكأنما راعه صمتى وتصويب نظرى إلى مستطيل الضوء لا أتحول عنه ، لأننى كنت لا أزل أراقب ظل الأحدب وهو يعبر الغرفة ، لأستخرج منه بخيالى كل ما استطعت من صنوف الحيوان .

ناولنى فنجانى ، وراح يقول استئنافا لحديثه السابق : إنى لأذكر الآن موقفا آخر فى طفولتى ، وكنت عندئذ فى الخامسة من عمرى ..

قلت فى هدوء : وكيف عرفت أنك كنت فى الخامسة ؟

قال وهو يبتسم : إننى أعتمد فى تحديد مراحل عمرى بالنسبة إلى الحوادث الباكرة فى حياتى على المساكن التى سكنّاها ، فالحادث الفلانى قد حدث ونحن فى المنزل الفلانى ، والحادث الآخر قد حدث ونحن فى المنزل الفلانى ، وهكذا ، ثم أحدد تواريخ سكنانا فى هذا المنزل أو ذاك مستعينا بشواهد معينة من تاريخ أسرتنا .

فقد كنا – وأنا فى نحو الخامسة – نسكن منزلا فى حى المنيرة بالقاهرة ، أذكره الآن جيدًا ، وأذكر « خالتى أم محمد »– صاحبة المنزل وصديقة الأسرة – وهى تسكن منزلا على السطح ، وأمام منزلها مسطح كبير مفتوح إلى السماء ، فيه يُنشر الغسيل وفيه دكة خشبية كبيرة مشققة الألواح من لفحة الشمس ، وتحتها تربض سلحفاة كبيرة ، ولكَمْ دخلتُ تحت هذه الدكة أمد ذراعى بين إقدام وإحجام حتى ألمس ظهر السلحفاة لمسة خفيفه ثم أسرع خارجًا وأنا أقهقه قهقهة الغازى المنتصر

وفى شقة من ذلك البناء كانت تسكن الأسرة وقد حدث ذات يوم أن زارنا رجلان من الأهل أو من الأصدقاء لا أدرى ، لكن أحدهما ما تزال صورة شاربيه عالقة بذاكرتى ، لا لكبر فيهما ، ولكن لاهتزاز فى أطرافهما غريب كلما حرّك الرجل شفتيه بالكلام أو بالضحك ، ودعانى أبى من الداخل لأحيى ، وكان قد حفّظنى عن ظهر قلب ماذا أقول عند التحية وبماذا أرد التحية ، وكثيرا ما كنت أخطئ فألقى اللوم إما ساعتها أو على انفراد ، كما حدث يوما حين ناولنى أحدأصدقائه شيئا قائلا : تفضّل ، فأجبته بكلمة « العفو » وأعاد الرجل قوله « تفضّل » وهو يضحك ، فأعدت جوابى بكلمة « العفو » ، فأمهلنى أبى حتى انفرد بى وأخذ يقرعنى على هذا الخلط المعيب الذى خلطت به كلمة « العفو »

بكلمة « متشكر » .

دعاني أبي يومئذ من داخل البيت لأحيي ذينك الرجلين ، وحييتهما بما حفظت من عبارات التحية .

فقال صاحب الشارب الراقص : هل تذهب إلى المدرسة ؟

قلت : نعم .

قال : اتهَجَّ اسمك .

قلت : ري اض : رياض .

قال : ما شاء الله

فأراد أبي أن يزيد الصورة جلاء ، وسألني سؤالا فى الحساب ، لكنى لم أسرع له بالجواب ، فضربنى بكتاب ضخم على رأسى ، فقال صاحب الشارب الراقص وهو يضحك : « أهكذا تضربه بالدنيا كلها على رأسه ؟ » ولم أفهم لهذه العبارة معنى ساعتئذ ، لكنى أذكر كيف عز على نفسى أن أضرب بالدنيا كلها على رأسى ، فانفجرت باكيا ، كما يحدث كثيرا للطفل أن يبكى مؤخرًا ، فقد يصاب ويجرح وهو لا يدرى ، حتى إذا ما نبهوه أن دماءه تسيل ، أخذ فى البكاء .. ودارت الأيام ، وجاء يوم كنت فيه تلميذا بالمدرسة الابتدائية ، وتسلمت الأطلس الجغرافى بين ما تسلمته من الكتب أول العام الدراسى ، وأخذت أقلب صفحاته وأدير فيها البصر معجبا بألوانها ، فإذا جارى يهمس لى : « هذه هى الدنيا كلها فى هذا الكتاب بين يديك » ، فعندئذ فقط فهمت الجملة التى قالها صاحب الشارب الراقص ، انفجرت باكيا لتلك الجملة ولم أفهمها ، فطلب منى والدى أن أكف عن البكاء ، ولما عجزت عن طاعته ، صفعنى وأعاد لى أمره بأن أكف عن البكاء . ولست أدرى الآن كيف استطعت

أن أقف البكاء ، لكنى فعلت ، وأعاد والدى سؤاله الحسابى من جديد وأراد الجواب السريع ، لكنى كنت فى هذه المرة أعجز عن الجواب منى فى المرة الأولى ، فحملنى بين ذراعيه حملا ، وقذف بى خارج الغرفة كما يقذف اللاعب بالكرة ، وقال متجها نحو صاحب الشارب الراقص فى نغمة هادئة : لن يعيش لى ولد خائب ، فإما أن يفلح أو يموت .

كنت والأحدب يقص علىّ هذه القصة الثانية ، أشخص له ببصرى ، وأتتبع انفعالاته على وجهه ، والابتسامة الخفيفة لم تزل على شفتيه ، لكنه كان يروى ويمثل الأحداث بيديه وذراعيه ولفتات وجهه ، وفنجان الشاى فى يدى ، وفنجان الشاى فى يده ، فلا شربت ولا شرب ، حتى فرغ ، وضحكنا معًا ، وأخذنا نشرب لا أتكلم ولا يتكلم ، وأبصارنا مرسلة خلال النافذة ، ووجهانا مبتسمان ، وكان مستطيل الضوء قد امتد حتى أخذ طرفه الداخلى يصعد على الجدار المقابل ، وزحزحنا كرسيينا قليلا لنكون فى الظل ، فبعدت المسافة بينى وبينه ، لا أدرى ماذا كان فى رأسه عندئذ ، وأما أنا فقد ازددت يقينا أننى وقعت على المفتاح ، فها هو ذا رجل قد شدّ بصره منذ الطفولة نحو الممكن لا نحو الواقع ، فكلما حدث واقع وتحقق ، توقع ماوراءه وهو يائس ، وكلما قصرت قدرته مرة دون بلوغ الممكن — ولابد أن تقصر إذ « الممكن » —ماينفك يتراجع أفقه خطوة فخطوة إلى الوراء — تكونت على ظهره طبقة رقيقة من الهمّ ، ولبثت الطبقات تتراكم على مر السنين ، فإذا هذا القتب الذى يحمله فوق ظهره مشحونا بهموم حياته كلها لا يخفف منه مايصيبه من نجاح ، لأن عينيه لا تنظران أبدًا إلى ما قد تحقق ، إنما تمتدان إلى ما لم يتحقق والذى كان من الممكن أن يكون .

٣

كانت الشمس قد دنت من الغروب ، وزيارتى قد طالت عند الأحدب أكثر مما قد عودته وتعودت ، لكنى وجدتها فرصة سانحة أن يستطرد فى ذكريات طفولته ، فتذرعت بذريعة الشمس الغاربة ورغبتى فى أن أرى الشفق من سطحه ذاك الذى تقع فيه غرفته ، فسألته هلاّ أذن لى فى أن أقف معه قليلا خارج الغرفة حتى نشهد غياب الشمس وراء الأفق ؟ وخرجنا معا من غرفته ، فحانت منى التفاتة إلى جلدة كتاب ملقاة كما اتفق ، كتب عليها « رياض عطا » فعرفت بذلك اسمه كاملا ، إذ لم يتبرع هو قبل ذاك أن يذكر لى اسمه ولا طلب منى أن يعرف اسمى ، كأنما نحن فكرتان مجردتان التقتا فى ذهن إنسان ، أو كأننا شبحان من الأشباح التى تُذكَر بنوعها لا بأفرادها التى تعيّنها الأسماء ، وحتى تلك الساعة لم أكن قد عرفت ماذا يعمل هذا الأحدب ، ومم يكسب قوته وأين يقضى بياض نهاره .

وما كدنا نقف على السطح المكشوف متكئين على حافته التى تعلو إلى نصف إنسان واقف ، حتى أثرت حديث طفولته من جديد ، حافزا له أن ينطلق فى ذكرياته ، بأن أخذت أمدح فيه هذه الذاكرة التى مازالت تعى حوادث كهذه قد طال عليها الأمد ، مع أننى مهما كددتُ الذاكرة إلى ذلك العهد البعيد فما تعود إلىّ بشىء ذى بال .

فأحس بشىء من الزهو بنفسه ، واستطرد يقول : إن من الأحداث التى وقعت لى وأنا فى نحو الخامسة — وأستطيع تحديد هذه السن بتاريخ سكنانا عند مدخل درب الجماميز من ناحية قسم بوليس السيدة زينب — حادث سرقة ، اشتركتُ فيه معى ابنة عمى — وكانت فى مثل سنى — فقد كان أبى وعمى

وأسرتاهما يسكنان شقة واحدة ، ولبثا حريصين على هذه المشاركة في السكن الواحد أعوامًا طويلة ، وساعدتهما ظروف الحياة على أن ينتقلا معًا كلما انتقلا ، وأن يستقرا في بلد واحد كلما استقرا [illegible]

كان على ناصية الشارع والميدان بقال يرص أكياس الحلوى على نضد رخامي سميك يمتد ما امتدت فتحة الدكان إلا منفذًا صغيرًا على يمين المدخل ، ولو وقف الصغير ذو الأعوام الخمسة ملصقًا جسده بالنضد الرخامي من جانبه الخارجي في الطريق ، لما رآه صاحب الدكان من داخل ، ثم لو رفع مثل هذا الصبي ذراعه ، ومد أصابعه وشبّ على أطراف قدميه ، لاستطاع أن يمسك بكيس من أكياس الحلوى المرصوصة عند حافة النضد ، فيجذبه ولا يراه صاحب الدكان ، خصوصًا إذا أحسن الصغير اختيار اللحظة الملائمة .

ولست أدري كم مرة وقع منا هذا الاختلاس ، لكن المرة الواحدة التي أذكرها ذكرا ناصعا ، قد كانت ذات صباح — ولابد أنه قد كان الوقت صيفًا ، لأن خلفية الصورة التي أذكرها الآن مليئة برجال الشرطة وقد لبسوا بدلاتهم البيضاء ، وقوفًا أو سائرين في حركة بطيئة عند مدخل قسم البوليس القريب من ذلك الدكان ، فها كلانا في تلك المرة نجذب الكيسين بأصابعنا كما كنا نفعل ، حتى نزلت علينا يدان كل يد منهما تمسك بواحد منا ، وقبضتا على أعناقنا قبضًا وأخذتا ترجّاننا رجًّا ، ونصعد بوجهينا إلى أعلى لنرى ما الخبر وكيف يجثم هذا القضاء ، فإذا عينان تلفظان الشرر وشاربان يهتزان على شفة راجفة من شدة الغضب ، وفي أحرف متقطعة من شدة الانفعال ، قال الرجل — وهو صاحب الدكان — : إنه لبث أيامًا طويلة يعجب بأي أيد خفية تختفي أكياس حلواه ، حتى قبض علينا متلبسين ، فأخذنا نستعطف الرجل ونعده بالكف ، مزاعمين له أن لم

يشتد بي تلك المرة مرات الماضية ، وأنا كما تأخذني ما تأخذه عندئذ شراهة لا حرقة ، فأطلق صراخًا متوقعًا أن يبلغ الأمر إلى والديّ ، وقد كان بيتنا مجاورًا للكتّاب ، فكان يرى الوالدين وهما يخرجان من البيت ويدخلان فيه . إذن فقد قضي الأمر وبلغت الحقيقة ! فما الفرق بين أن يعلم أبي بالأمر وبين الموت ؟ تسللت إلى البيت خفية كأني الظل ، وزحفت تحت السرير حيث قبعت هناك من الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل . كانت الشقة التي سكنها مظلمة ، وكانت غرفة السرير أشد ظلامًا ، ثم كان ما تحت السرير كأنه الليل المتراكم ، وحسبت أني قد أصبحت من الخطر في مأمن ، وإذا كنت أذكر جيدًا ، فإني أذكر أنني في مخبئي ذلك لم أشعر بخوف ، كأنما الطامة قد بلغت بهذا الملاذ ختامها ، ولكن لم يمض طويل وقت حتى سمعت أصوات المتحدثين في غرفة الدار وفي بيوتها ، من أب وأم ، إلى عم وامرأة عم ، يسألون : أين رياض ؟ ثم يتوجهون بالسؤال إلى ابنة عمي مرة بعد مرة بعد مرة ، كأنما المرة الواحدة أو المرتان لا تكفيهم سؤالا ! لقد كان رياض معك في الصباح فأين ذهب ؟ فتجيب ابنة عمي متألمة في كل مرة يوجهون إليها السؤال : تركته أمام الباب في الشارع ، ولا أدري بعد ذلك شيئا .

إنني لا أزال أذكر حتى هذه الساعة ، أذكر كيف أخذ الفزع يزداد بهم شيئا فشيئا ، فتارة تسكت الأصوات كلها وتخلو الدار من ساكنيها جميعًا ، لأنهم خرجوا يبحثون عني في مظاني ، كل يذهب في طريق ، وتارة تعود الدار فتعج بأصواتهم يتساءلون في فزع جازعين ، وجاء الليل واشتدت عتمته واشتد معها خوفهم ، حتى شاء الله للذراع أن تمتد تحت السرير لتجر قطعة صغيرة مخزونة هناك ، وراحت الذراع الممدودة تتحسس حتى أحست حركة خفيفة ، هي

حركة جسمى يزحزح نفسه قليلا إلى ناحية الجدار ، فرفعتْ الذراع ملاءة السرير المدلاّة ، وإذا بالشارد الضال مختبئ هناك فى كهف ! فصرخت صاحبة الذراع – ولا أذكر من هى – صرخة امتزجتْ فيها الفرحة بالدهشة بالترحيب بالوعيد بكل العواطف الإنسانية حين تمتزج فى خليط واحد ، وأخرجتُ من مكمنى جرًّا إلى البهو ، يسألوننى ولا أجيب ، وأخيرا جاء أبى من دورة بحثه عنى ، فإذا هو يلقانى فيدهش فيسأل ، ولا جواب إلى هذه الساعة .

وضحك الأحدب ضحكة صافية من كل شوائب السخرية التى كثيرا ما يمزج بها ضحكاته ، وقال : أحسب أن صاحب الدكان لم يقل شيئا لوالدينا ، وأن ابنة العم كتمت أمرها وأمرى ، فلم يزد أهلى عندئذ على أن أضافوا هذا « الفصل » إلى فصول أخرى كانوا يحصونها علىّ ولم أكن أدرى من أمرها شيئا ، مما كانوا يتخذونه دليلا على زَعْمٍ لهم عنى ثبت عندهم ورسخ ، وهو أنى « عبيط » . وهاهو ذا شاهد على « عبطى » جديد ، فكان مما يتندرون به دائما أنى وأنا صغير – الظاهر أن سن الخامسة عندهم كانت سنًّا كبيرة – كنت آخذ منهم خمسة القروش أو عشرة القروش ، لأشترى لهم شيئا من الطريق ، فأغيب عنهم قليلا ثم أعود لأقول : لقد أكل الحمار قطعة النقود ، فيذهب منهم ذاهبٌ ليجد قطعة النقود موضوعة فى فجوة كانت بين أحجار الحائط عند مدخل البيت .

فرغ رياض عطا من ذكرياته ، وهو منبسط النفس ، منشرح الصدر ، معتدل القامة ، حتى كدت لا أرى على ظهره قتبا ، وكأنما النشوة التى شاعت فى أساريره قد قللت من عمره فجأة عشرة أعوام كاملة ، وكانت الشمس قد غابت وبقايا الشفق القرمزى منتثرة فى الأفق ، حين حييته وانصرفت إلى مدخل

الدرج ، ونزلت أتحسس الطريق بقدمى درجة درجة حتى كنت فى الطريق ، أسير الهوينا من عمق انشغالى بالأحدب وقصته .

أىّ مفتاح تريد لشخصيته أجلى وأوضح من هذا الذى ذكره الآن ؟ إن اختفاءه فى الظلام اتقاء لشر مرتقب ، ثم إرهاف الحس ليتتبع مجرى الحوادث من حوله دون أن يغادر مخبأه ، فيهما محور حياته كلها : انطواء من ناحية ، وتسلل بالسمع وبالبصر فى الخفاء إلى ما يدور فى العالم من وقائع وأحداث من ناحية أخرى ، إنه كمن يريد أن ينظر إلى العالم من ثقب الباب ، يريد أن يَرى ولايُرى ، إنه ليخيل إلىّ أن شخصيته نسيج من ثلاثة خيوط ، يأس أكثر من الرجاء ، وانطواء أكثر من الظهور ، ورغبة فى إقامة البرهان على قدراته ليمحو بها تهمة « العبط » التى اتهموه بها وهو صغير ، أما اليأس فقد كانت بداية خيطه حادثة الحصان المهشم ، وهى الحادثة التى تلاحق فيها الأمل والخيبة تلاحقاً مباشرا ، وأما الانطواء فقد كانت بداية خيطه حادثه كيس الحلوى حين أحس الطمأنينة فى مخبئه تحت السرير ، وأما تهمة « العبط » فقد بدأت قبل أن تعى ذاكرته أولى الحوادث التى كانت تسوغها .

وبالإضافة إلى هذه الأضواء التى بدأت تكشف لى عن سره الدفين ، فكأنما انفتحت لى فى السماء طاقة ليلة القدر حين نظر إلى بعين فيها النفاذ وفيها طيبة القلب ، وقال مبتسما :

كأنى بك تريد عنى مزيدا من علم ؟! ونهض بحركة سريعة واستخرج لى من خزانة ملابسه كراسة ممزقة وقال : هاك مذكرات كنت كتبتها من سنين وهممت بتمزيقها . ثم عدت فأبقيت على ما بقى منها ، فلعلها تشفى منك غليلاً .

الفصل الثالث

أطلال دوارس

أخذت كراسة المذكرات في لهفة شديدة ، لأنني اعتقدت أنني واقع فيها على كنز ثمين . ففي صفحاتها سأشاهد الأحدب وجها لوجه ، فيعفيني مشقة البحث والتنقيب ، ولكني وجدتها ممزقة منقوصة الصفحات مطموسة الفقرات ، مما أكد لي أن كاتبها ربما أحس بعبث الجهد في الكتابة عن نفسه ، فكتب ما كتبه ثم هم بتمزيقه ، كما يفعل كثير من الأدباء والشعراء حينما يقربون حياتهم الفانية بالأبدية فيرونها أقل شأنا من أن تشغل الوقت بالكتابة عنها .

ومهما تكن الحال فقد أسرعت العودة إلى منزلي في تلك الليلة ، نافد الصبر متوقاً إلى استطلاع المنثورات التي بقيت مما كتبه الأحدب ، ولم أنم حتى أتيت عليها تمحيصًا وصمًّا لما يمكن ضمه في أجزائها ، وهأنذا أثبت ما ظفرت به من فقرات مرتبة بحسب ترقيم الصفحات .

ليست لحظات الزمن في حياة الإنسان سواسية كلها من حيث قوتها في توجيه الأحداث ، وأثرها في تكوين الشخصية وتشكيلها ، فمنها ما قد يمضي ولا أثر له ، ومنها ما يكون له من بعد الأثر وعمقه ما يظل يؤثر في مجرى الحياة إلى ختامها ، ولا عجب أن تجيء حيوات الأفراد متفاوتة في الوزن والقيمة ، متباينة الخصوبة والثمر . فمنها ما تتتابع فيه اللحظات على وتيرة واحدة . حتى

لكأنها في حياة الأمر لحظة واحدة مكررة معادة ، فضلا عما تتصف به هذه اللحظة الواحدة من خواء ، ولذلك فهي حياة تمضي وكأنها لم تكن شيئاً ، ولكن منها كذلك حياة تجيء لحظاتها ثقالا بأحمالها ، فتمضي تاركة وراءها أثرا يبقى على وجه الدهر أمدًا طويلا ، وبأمثال هذه اللحظات الحبالى تصبح الحضارات وتبنى .

إن النظر إلى حياة بمجموعة أحداثها ، لكالنظر إلى صورة فنية لا يسير عليها البصر في خط مستقيم بالتتالي من حافة الإطار هنا إلى حافة الإطار هناك ، بل إنه ليقع أول ما يقع على نقطة مركزية فيها ، كشجرة فارعة على يمينها ، أو قمة شاهقة على يسارها ، أو بقعة لونية في أي موضع منها تلفت النظر إليها لتكون له نقطة ابتداء ، ثم ينساب البصر في مختلف الاتجاهات ، عائدا آنا بعد آن إلى نقطة البدء ، فكأنما هذه النقطة المركزية ينبوع تفجرت منه سائر النقاط ، وكذلك قل عند النظر إلى حياة فرد من الأفراد بمجموعة أحداثها ، فهنالك كذلك يتجه الانتباه إلى لحظات أمهات كانت الحاسمة في توجيه صاحب تلك الحياة .

فما هي تلك اللحظات الأمهات في حياتي ؟

ليس منها ساعة الميلاد ، لأن تلك اللحظة جزء من حياة سواي أكثر منها جزءا من حياتي ، فقد فرضت علىّ ولم أردها ، ولم يكن لي حيلة في إلغائها أو في إرجائها أو في تمييزها ، إلا أن أحددها بشهادة الميلاد ، مفترضا صدق أولئك الذين أملوها والذين كتبوها لأنني لا أملك في دخيلة نفسي شاهدا على صدقها أو على كذبها ، إذ لو احتكمت إلى حياتي من باطنها لما وجدت فرقا بين أن أكون قد عشت على ظهر الدنيا خمسين عاما أو خمسة آلاف عام ، فكل الدلائل التي يستدل بها على مدى ما عشته من سنين ، دلائل خارجية عني ،

وليس فيها شاهد باطني واحد ، لأنني إذا ركنتُ في الشهادة على ما تسجله الذاكرة ، ألفيت الذاكرة لا تقفل راجعة إلى ساعة الميلاد ،

وقصاراها أن ترتد إلى السنوات الأولى بعد الميلاد ثم يكتنف الضباب كل شيء فيطمسه ، وإذن فالأمر كله – بالنسبة إلى ساعة ميلادي – مرهون بشهادة غيري ، فهكذا يقول الوالدان ، وهكذا تسجل دفاتر الحكومة ، أليس عجيبا بعد هذا كله أن يتمنى إنسان لو استطاع أن يُمَدَّ له في الأجل مائة أو مائتين أو ألفا من السنين ؟ إنه لا يحمل في جوفه دليلا على أنه لم يعش هذا الأمد الذي يتمناه لنفسه ، لو كان متوحدًا معزولاً فلم يجد أحدًا من حوله يروى له نبأ مولده ونشأته الأولى ، لما كان في وسعه أن يعلم متى ولد وكم عاش .

لا ، ليست لحظة ميلادي من اللحظات الأمهات التي أعنيها ، لأنني لا أعلم عنها شيئا من باطن نفسي ، وكل علمي بها آت من سواي ، فهي إذن أقرب إلى أن تكون جزءًا من حياتي ، ففي أول صفحة مقروءة ، بعد عدة صفحات ممحوة لاتبين ، قرأت العبارة الآتية :

من بين ما يروونه لي أني ولدت في منزل من قرية ، زرته فوجدته بيتا نصفه الأسفل من حجر ونصفه الأعلى من قش وطين ، لكنهم إذ يحكون لي أني في هذه الغرفة التحتانية المعتمة ولدت ، وفي تلك الغرفة الفوقانية المضيئة ، خُتنت ، أحس كما لو كانوا يحكون لي تاريخ طفل لا شأن لي به الآن ، فليس في جسدي اليوم خلية واحدة من خلاياه التي ولد بها ، ولم تكن في رأسه عند ولادته فكرة واحدة مما هو في رأسي اليوم .

إنه لوهم غريب هذا الوهم الذي يوهم الإنسان باتصال شخصه من لحظة الميلاد إلى لحظته الراهنة ، نعم إنها وسيلة نافعة لغيري من الناس أن يعدُّوني فردًا

واحدًا متصل الحياة ، بدأ في اللحظة الفلانية ولبث يتنقل هنا وهناك حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن ، أقول إنها وسيلة نافعة للناس لكي يسهل عليهم عَدُّ الأفراد عند الإحصاء ، ولكن ما لي أنا وما ينفع الناس عند العدّ والحساب ؟ المرجع عندي هو خبرتي كما أحياها واعيًا بها ، وليس ذلك الطفل الذي يروون لي عن زمان مولده ومكانه جزءًا من تلك الخبرة الحية الواعية ... ... ثم استقامت معي صفحات الكراسة ، فقرأت فيها مايلي :

٣

العجيب أني حينما أعود بالذاكرة إلى سني الطفولة الأولى ، فسرعان ما أصطدم بشخصية أبي تملأ مسرح الحوادث ، ولكني مهما حاولت فلا أعثر على صورة أمي عندئذ ، فأين كانت ؟ هل كانت من الخفاء والانطواء بحيث تنمحي من صفحة الذاكرة فلا يسمع لها صوت ولا يظهر لها أثر ؟

والحق أن اختلاف الخصال كان بعيدًا بين أبي وأمي ، فهو منبسط لا يكاد يخفي من نفسه شيئاً ، وهي منطوية لا تكاد تظهر من نفسها شيئاً ، هو لا يخشى الناس ولا يفر منهم ، وهي تخشاهم وتفر ، هو حريص على إثبات وجوده وهي أحرص على إنكار وجودها ، هو لا يضحي بنفسه إلا قليلا ، وهي تضحي بنفسها بحيث لا تُبقي لنفسها إلا قليلا ، يغلب عليه المرح الصاخب إلا في ساعات قليلة تراه قد سكن وكأنما هو غارق في فكر عميق ، ويغلب عليها الهدوء الصامت في غير جهامة وعبوس ، إلا في ساعات قليلة تراها قد أخذت تصيح زاعقة في هذا أو في هذه ، كأنما تُنفس عن طاقة مكبوتة ، كلاهما يتعبد ويؤدي الشعائر كلها ، لكني طالما أحسست أن تعبُّده موجات على السطح ،

وأما تعبُّدها فخفقات من القلب ، يثور على الناس فتهدئه ملتمسة لهم الأعذار ، حتى أطلق عليها أبي اسم « الطباوى » مشيراً بهذا إلى نهوضها للدفاع دائماً ، وأما هى فإذا ثارت على أحد من الناس فإنه ينفخ لها فى النار لتزداد اشتعالا . نعم قد كان اختلاف الخصال فيهما بعيد المدى ، ولكن هل بلغ ما بينهما من حدة التباين أن حفظت ذاكرتى كثيرا عن أبى وأوشكت ألا تحفظ شيئا عن أمى ؟ إنه مهما تكن حقيقة الأمر ، فيقينى هو أنى عن أبى أخذت الذكاء وعن أمى أخذت الخلق ، عنه أخذت النفس القلقة الطامحة فى عجز ، وعنها أخذت الرغبة فى الخفى عن قناعة ورضى ، ومن مزيج النقيضين وقع الصراع .

٣

التشاؤم والانطواء صفتان فى حياتى بارزتان ، فمن شأن المتشائم اعتقاده بأن نتائج الأشياء وأواخر الأحداث عبث كلها فى عبث ، اعتقاده بأن الحياة عملية معقدة من جمع وطرح وضرب وقسمة ، فيها أعداد صحيحة وفيها كسور ، وفيها ربح وفيها خسارة ، لكن الناتج النهائى صفر دائما ، لأن الناتج النهائى عدم محتوم ، إنه سيجىء اليوم الذى تبرد فيه الشمس ، وعندئذ تتعادل حرارة الكون شمسا وأرضيا ، وعندئذ تكف الأرض عن دورانها ويسكن كل شىء فى مكانه ، فلا نماء ولا ذبول ، ولا حياة ولا موت ، ولا ليل ولا نهار ، ولا صيف ولا شتاء ، ولا ريح ولا مطر ، فأين عندئذ يكون فرد من الناس بكل ما قد بذل من جهود وما قد حقق من نجاح ؟

وهكذا ترانى أنظر إلى الأشياء وإلى الأحياء وإلى المواقف وإلى الحوادث ، ولكنها نظرة لا تمنع عندى جهاد الحياة ولا تحول دون السعى نحو التقدم ، بنفسى وبغيرى من الناس ، برغم كونى أحس فى أعماق نفسى أنه جهاد وأنه

سعى ينفيها ضرورة الحياة ما دامت الحياة قائمة ، وأما الحياة نفسها فهي كما قال المعري عبث ، لكنني لا أعجب كما يعجب المعري من راغب في ازدياد من ذلك العبث ، لأني أعلم أن « الرغبات » شأنها شأن العقل في كونها من صميم الحياة ولبابها ، فليس من حق العقل أن تكون له وحده الكلمة فيما يعمل وما لا يعمل ، لأن « للرغبة » اللاعقلية مجالها ، وها هو ذا المعري قد أملى عليه عقله أن الحياة عبث كلها ، وأنه إنما يعجب من راغب في ازدياد من ذلك العبث ، فهل كفّ المعري نفسه عن « الرغبة » في الزيادة؟ ...

على أن التطرف في التشاؤم عندي كثيراً ما تقتضيني أن أسارع إلى استحضار الضد الأسود أمام ذهني كلما مرّ بخاطري نقيضه الأبيض ، أمور أخرى ، أنظر إلى المرأة الجميلة فأقول : ولكن جوفها يحمل العفن ، وأنظر إلى الطير الصاعد فأقول : إنه لابد بعد صعوده هابط ، واختصاراً فإنني أنظر إلى الكأس إناء ملئ إلى نصفه فأقول : لكنه كذلك فارغ في نصفه الآخر ، وهي بغير شك نظرة معوقة لصاحبها في حركته الحياتية ، لكنها هي نظرتي ...

وأما التطرف فهيهات أن يراه مني الرائي بقدر ما أخبئه في باطني ، لأنه فيما يراه مني الرائي تكلفاً وتصنعاً قد يخفيان إلا على الخبير بطبائع الناس : إنني كلما عدت إلى داري بعد عمل اليوم أحسست وأنا أغلق الباب من دوني بنشوة العائد إلى مكمنه بعد أن تعرض لأهوال الغابة ، ولست أعرف كيف يحس الأرنب المطارد حين يلوذ بجحره ، لكنني كلما عدت إلى داري بعد عمل اليوم ارتسمت في ذهني صورة الأرنب راجعاً ، عادت إليه الطمأنينة بعد أن لاذ بمأواه ، إنني لأخاف الخروج من مكمني كما يخاف العليل برئتيه أن يعرض نفسه للفحة البرد ...

وقد أتشجع فأواجه الناس ، لكنني وحدى أعلمُ الناس بما يرتجف من نفسي عندئذ ، فمثل هذه الشجاعة الظاهرة كثيرًا ما تكون خجلا معكوسا ، قل إنه ضعف ، وقل إنه مرض ، لكن هو الواقع على حقيقته - ومرة أخرى أقول إنها طبيعة معوقة لصاحبها عن السير السريع فى ركب الحياة ، لكنها هى طبيعتى .

ماذا تظننى أسرح إليه حين أسترسل فى أحلام يقظتى ، لا أقول مرة فى الشهر ، ولا مرة فى الأسبوع ، بل أقول مرة أو عدة مرات كل يوم ؟ إننى فى أحلام يقظتى أسرح باحثا عن مكان ملائم ألوذ به لأعيش هناك فى عزلة الرهبان : هل أختبئ فى غرفة من مكان مجهول على شاطئ البحر - لأنى أضيق بالحر ضيقاً شديدًا -؟ أو هل يكون مخبئى فى موضع من الصحراء ؟ ولكن أين ؟ أيكون فى دير من أديرة الرهبان النصارى ، وهل يجوز ياترى للمسلم أن يعيش مع رهبان المسيحية فى أديرتهم دون أن يشابَ إسلامه بشائبة ؟... صور من هذا القبيل تتلاحق ، وأظل فى كل صورة منها أعيش مع الخيال برهة لأحسَّ حسناتها وعيوبها قبل أن أنتقل إلى الصورة التى تليها - لكنها أحلام يقظة لا ألبث بعدها أن أمارس عملى كأننى مقبل على الحياة مع المقبلين .

إنه لا تناقض بين أن يميل المرء بوجدانه إلى شىء ، وأن يخضعه بعد ذلك لتحليل العقل فلا يجده على ما كان الوجدان قد صوره ، وعلى ذلك فلا تناقض بين أن أختار لنفسى - بالوجدان - أن أعيش منطويا على ذاتى ، غاضًّا نظرى عن الدنيا التى حولى ، وبين أن أرى بعقلى بعدئذ أن دفعة الحياة تقتضى أن نخرج من ذواتنا إلى حيث الأشياء المادية المحسوسة ، فكأنما أريد الحالة الوجدانية الأولى لنفسى ، وأريد الحياة العقلية الثانية للناس .

هأنذا أشهد الله والناس أنى ما قرأت مرة عن المتصوفة فى صدورهم عن عرض الحياة الدنيا ، وفى ازدرائهم لشهوات الجسد وإشباعها ، إلا ووجدت لهم فى أغوار نفسى صدى عميقا ، كأن هذه النفس قد أعدت وهيئت لمثل هذه الحياة العزوف ، ومع ذلك فانى أتمنى أى شىء لقومى إلا أن يسود فيهم العزوف عن تيار الحياة الحسية المادية العملية العقلية العلمية ، التى تعنى كل العناية بتطبيقات العلوم على الزراعة والصناعة وباصطناع القوة المادية فى شتى مظاهرها — وهكذا ترى وجدانى على هوى وعقلى على هوى آخر ، ولا تناقض بينهما ما داما يحيثان على تعاقب .

٤

... ... إننى حتى الخامسة من عمرى لم أكن — فيما تعيه الذاكرة — قد شعرت بأنى عضو من أسرة ، تربطنى بأفرادها علاقات تختلف باختلاف مواقفى من أفرادها ، فكلما تذكرت نفسى فى الخامسة أو قبلها ، تذكرت كيانا مستقلا بذاته ، يرتبط بغيره من الأفراد ارتباطا خارجيًا لا ارتباطاً باطنيًا .

أما حين أنتقل بالذاكرة إلى عامى السادس وعامى السابع ، فإننى أتذكر على الفور أننى جزء من جماعة ، فقد كان أبى قبل ذلك هو الشخص « الآخر » الوحيد الذى يكوّن مع وجودى محورًا أدور حوله أو أسير بإزائه عن خوف أو عن رضى ، أما الآن — فى العام السادس ومابعده — فأمى قد أخذت تظهر بوضوح ، وكذلك أخى ، وكذلك عمى وامرأة عمى وأبناء عمى ، وكذلك نفر من ذوى القربى كانوا يعاودون زيارة بيتنا زيارة تقصر حينا ، وتدوم عدة أيام حيناً آخر .

... وإنما يعني الذاكرة على التفرقة هذا بين المرحلتين المتعاقبتين: مرحلة الكائن الفرد، ومرحلة الكائن الاجتماعي. فالطفل الذي عشته من البيت إلى بيت [illegible] انتقلت الأسرة [illegible] والأسرة إلى ذلك الحي [illegible] أبي وعمي ومن بعدها انتقلت إلى مسكن آخر في حارة الصاجرية [illegible] كان يسمى [illegible] حينئذ بالقرب من مسجد السيدة زينب، لأن القاهرة قد تبدلت في يومها عن نفسها [illegible] شوارع [illegible] كان [illegible] فيها من الحواري [illegible] انتقلت الأسرة إلى مسكن آخر [illegible] المشكلة [illegible] الروابط بيني وبين أبي – وقد كانت لها بدايات سابقة – وبيني وبين أمي وبيني وبين أخي بصفة خاصة، فلأول مرة أشعر بوجود أمي معي، تحميني دون أن تقتصي مقابل هذه الحماية خوفًا، فلم أكن أبدًا لأخشى بأسها مهما يكن ما اقترفته جسيمًا، وذلك برغم صرامتها في معاملتي ضربًا [illegible] وزجرًا، لكن هذا كله [illegible] كان كالموج الذي يتلاشى [illegible] على [illegible] إلى شاطئ الأمان ولا يهدده بالغرق [illegible] ولعل هذا هو الفارق الواضح بين علاقتي بأمي وعلاقتي بأبي: كلاهما يحميني، لكنه دونها يتوقع مقابلا لحمايته فزعًا منه وخشية لبأسه ربما كان يخشيه [illegible]

وكذلك تحددت علاقتي بأخي على نحو [illegible] مع تقدم السنين، فكأنما نحن منذ تلك السن الباكرة قد تعاقدنا [illegible] ولا مكتوب [illegible] أن يكون كل منا حليفًا للآخر فيما عسى أن تأتي به الأيام من [illegible] المهاجمين [illegible] والمهاجم الخارجي [illegible] لكن موقفنا في التحالف ثابت، فكل منا يطلع أولًا فأولًا على ما يقترفه الآخر من زلات العصيان، لكن أحدًا منا لا يشي بالآخر عند الوالدين أو عند [illegible]

الأمر ، فلذا سئل أي منا عن خطأ وقع : من فعل هذا ؟ أجاب : لا أعرف .
وتكون النتيجة دائما أن يُضرَبَ كلانا ، فقد كان أخي مغرما بكشط قطع الأثاث بالمبراة ، لا يردعه عن فعل ذلك توعد ولا وعيد ، لكنه كلما كشط ، وسُئِلتُ : من ؟ أجبت : لا أعرف ، وكذلك حدث مرة أن اشتروا له معطفا جديدا ولم يشتروا لي نظيره لجدّة معطفي ، فقصصت معطفي بالمقص شرائط شرائط ، حتى أرغمهم على شراء معطف آخر ، وسئل وسئلت : من ؟ وكان الجواب من كلينا : لا أعرف . فنال العقاب كلا منا على السواء ، على الرغم من أنهم يعلمون أتم العلم أنه هو كاشط الأثاث ، وأنني أنا الذي قص المعطف .
هكذا تآزرنا على الخير وعلى الشر منذ تلك السن البعيدة ، كما يتآزر المرضّون لخطر مشترك ، وتلازمنا قياما وقعودا ومشيا وجريا وخروجا ورجوعا ولعبا وجدا ، حتى تلازم اسمانا على الأفواه ، فلا ينطق أحد باسم أحدنا غير مقرون باسم الآخر ، فيقال « رياض وعماد » — لا ينفصل شق فيه عن شق إلا إذا نودي أحدنا بحرفه النداء .
ولعل حارة السناجرة التي سكنّاها عندئذ أن تكون الحارة الوحيدة في حياتنا التي نزلنا بها لنلعب مع أطفال الجيران ، وحتى عندئذ فقليلا ما فعلنا ، ومن طريف ما أذكره في هذا الصدد أن أفراد الأسرة جميعا قد ذهبوا لبعض شأنهم ذات عصر ، وتركوا معنا مفتاح البيت ، على أن نلعب في الحارة مع الأولاد إلى أن يعودوا ، ولست أدري أي فكرة مجنونة طافت برأسينا عندئذ ، أن نقيس مقدار شجاعتنا بأن نعرى جسدينا ونسير هكذا في مواجهة الأولاد لنرى ماذا في وسعهم أن يصنعوا ، لكننا وجدنا من سخريتهم ما لم نحتمله ، فصممنا أن نسارع بالعودة إلى دارنا ، ونبحث عن المفتاح فإذا المفتاح مفقود ، فوقعنا

بين نارين : حملة السخرية التى أخذت تشتد كلما ازددنا أمامها ضعفا ، والقلق الشديد المهموم المغموم على هذا المفتاح الضائع ، وربما كان ذلك من أول الدروس التى لقنتنا إياها الحياة الاجتماعية فيما ينبغى أن تكون عليه علاقة الفرد بالمجتمع ، فإما أن تكون متجانسا مع الآخرين إذا أعوزتك قوة المقاومة ، وإما أن تتصف بالجرأة المتبوعة بصفاقة الوجه إذا أردت أن تنفرد وحدك بسلوك خاص ، أما أن تتحدى المجتمع بالعصيان الذى يأبى التجانس دون أن تكون مزودًا بما يلزم هذا من سلاح المقاومة ، فذلك إنما يؤدى بك حتما إلى اختلال فى اتزان عناصر النفس ، ومن ثم إلى صراع داخلى فانطواء ، وما هى إلا أن عادت طلائع الأسرة الغائبة لتُصدم بهذا الموقف الغريب ، وراحت عيونهم تلفظ أوار الغيظ الكظيم ، تمهيدا لما هو لاحق بنا حتما إذا ما انفتح الباب ودخلنا ، وجيء بنجار ، وكسر الباب ، ودخلنا ، وكان ما كان من عصيّ تهوى على جسدينا العاريين .

وفى تلك الفترة من عمرى دخلت المدرسة الأولية ، وكان اسمها مدرسة السلطان مصطفى ، عند مدخل حارة الكاشف بجوار المدرسة السنية للبنات ، وهى دار أثرية قديمة ، ولا أذكر منها شيئا إلا سلالمها التى كانت تبدأ من الباب الخارجى مباشرة — فليس للمدرسة فناء ، وكان التلاميذ الصغار يتجمعون فى حارة الكاشف ، المحظوظ منهم يأكل البليلة وغير المحظوظ تأخذه العزة فيبتعد ، أو لا تأخذه فيقترب سائلا — وكانت السلالم عالية الدرجات على من كان فى مثل عمرنا ، وكذلك أذكر شعاعا من الشمس ساعة العصر ينفذ من جهة الغرب خلال النافذة ذات الزجاج الملون ، كنت أرتقب سقوط هذا الشعاع على درجى كل عصر فارغ الصبر ، ولا أدرى هل كان ذلك بسبب الألوان

الجميلة التي كان يلقيها ذلك الشعاع أمامي ، أوكان ذلك علامة على دنو ساعة الانصراف .

وعلى أي حال فقد كان ارتفاعي في درجة الوعي عندئذ بما يشبه القفز والطيران ، ففي عام واحد أو عامين ، انتقلت انتقالا كالمفاجئ من طفل لا يعي إلى صبي تفتحت حواسه ، ولا أدلّ على ذلك من متابعتي لما كان يقوله ابن عم لي وابن عمة يكبراني بخمسة أعوام ، وكانا عندئذ تلميذين في مدرسة محمد علي الابتدائية ، فكانا يفخران أمامي بما يعلمانه مما لست أعلم : كلمات انجليزية وعبارات ، فكنت أسارع إلى حفظها عنهما لأسايرهما فيما يعلمان .

لكن الذي لم أستطع قط أن أسايرهما فيه ، هو ما كان يسميانه « مطارحة » بالشعر ، فيقول أحدهما بيتا من الشعر ، ليردّ عليه الآخر ببيت يبدأ بالحرف الذي انتهى به البيت السابق ، فمن أين لهما بهذا الكلام ؟ أين يجدانه وكيف يحفظانه ؟ وقد مضت الآن منذ ذلك العهد عشرون عاما . ومازلت أذكر بيتا قاله أحدهما في المطارحة وأعجبني لفظه فحفظته عنه لساعته ، فرسخ في الذاكرة — وذاكرتي يغلب عليها الضعف — لسبب لا أدريه ، وهو :

نونان نونان لم تكتبهما قلم ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ وفي كل نون من النونين عينان

حفظته ولم أعلم ماذا عساه يعني ، بل لا أظن أن قائله كان يعلم .

كذلك تحددت في تلك الفترة من العمر علاقتي بالجنس الآخر ، بمعنى أنني أدركت إدراكا واضحا ماذا يكون بين الجنسين في تستر وخفاء ، فلست أنسى ذات مساء والبيت يعج بزواره ، كيف اتفقت مع طفلة من الأسرة الزائرة أن نلعب زوجا وزوجة ، وانثنينا إلى غرفة بعيدة عن الأعين ، وأغلقنا من دوننا بابها ، ولم أكن أعلّم الطفلة من قواعد اللعبة أكثر مما علمتني ، ولم تكن تعلمني

أكثر مما علّمتها ، فالطفل والطفلة كلاهما – وهما فى السابعة أو نحوها – كانا يعلمان ما يكفى ، كما حدث فى هذه السّن نفسها أن سافرتُ مع أهلى إلى القرية لنقضى إجازتنا بها ، وكنت فى الضحى ذات يوم ألعب على سطح الدار مع طفلة ريفية من الجيران ، فما هو إلا أن تفاهمنا ، وكان إلى جوارنا « سحارة » كبيرة عميقة ، بابها مربع خشبى صغير يغطى فتحة على وجهها الأعلى ، فقفزنا إلى سطح السحّارة ، ورفعنا بابها وهبطنا والبابُ إلى جوفها ، ولكن كيف الخروج والسحارة عميقة كأنها البئر؟ وعبثا حاولنا ، فكان لابد للسر أن يفتضح ، فأخذنا ندق جوانب السحارة بقبضات أيدينا ، ونركلها بأقدامنا ، ونصيح فى بكاء الفزع ، حتى سَمِعنا مَن سَمِعنا ، وانتشلَنا ، وما كادت القصة تسرى ، حتى كانت الضحكات من هذه « الشقاوة » ، ولكن هل أدرك الراشدون مدى ماقد ذهب إليه هو الطفلين؟ لا أظن ذلك – وهذه هى براءة الأطفال ، وهذه هى طهارة الريف ، وتلك هى سذاجة الراشدين .

هكذا كملت جوانب الشخصيه الاجتماعية بين السادسة والسابعة وتحددت لها طرائف مختلفة فى ردود الأفعال لمختلف البواعث ، أو قل هكذا نشأت مجموعة الأشخاص التى تكوّن جوانب نفسى « الواحدة » ، وما كان على الأيام بعد ذلك إلا أن تطور هذا الذى بدأ : فموقفى إزاء أبى هو هو نفسه موقفى إزاء كل سلطان متحكم ، أثور عليه فى داخلى تارة ، وأنفجر بالثورة العلنية تارة ، وأكتب لأهدم ما أراه طغيانا – سواء فى ذلك الأشخاص أو النظم – فتجىء الكلمات كأنها شواظ وشرر ، وكثيرا مادهش من لم يكن يعرفنى ثم رآنى ، فرأى شخصا تغلب عليه الوداعة والهدوء ، فكيف يمكن أن تجىء تلك الثورة من هذا المستكين؟ وموقفى ازاء أمى هو موقفى من الصديق أحبه حبا خالصا غير ممزوج

بالحذر والخوف ، وهو الموقف الذى أقفه ممن تربطنى بهم علاقة الود وأصطفيهم دون سائر المعارف ، وموقفى من أخى هو نفسه موقفى من نفسى ، أسرُّ إليه بما لم أكن أسر به إلى أب أو أم أو صديق ، أطلب منه النصح جادًّا ، وأعتصم به آمنا ، وموقفى من أقربائى الذين كانوا يكبروننى ويسبقوننى فى مراحل التعليم ، هو موقفى من كل سابق فى طريق العلم ، أجد السير لألحق به ، وأما موقفى من الجنس الآخر ، فبرغم العبث الطفلى الذى عبثت به مع الطفلتين إلا أنه سيتحدد بفعل شيطانة من الجن فى سنّ المراهقة .

إنهم يَصدقون حين يقولون عن الأسرة إنها نواة المجتمع ، لأنها هى المجتمع الصغير الذى يتعامل الطفل مع أفراده ، فيعامل كلا منهم بما يحقق له صالحه كما يتصوره ، يحب هذا ويخشى ذاك ، ويخلص الود هنا ويمكر بالحذر هناك ، حتى إذا ماخرج إلى المجتمع الكبير ، جسَّد فى مواقفه وفى ناسه ماكان قد لقيه فى المجتمع الأسرى الصغير ، فكم ثائر ثار على الدنيا حتى غيَّر وجهها ، تراه — إذا مارددت ثورته هذه إلى أصولها — إنما يثور فى الحقيقة على أب طغى به وهو صغير ، فانتقم منه فى سواه حين استطاع ، وقد يجيء هذا الانتقام المقنَّع خيرًا فيكون صاحبه من الأبطال المصلحين ، أو قد يجيء شرًّا فيكون من المفسدين ، وكم ملحد أنكر وجود الله إذا ما رددت إلحاده هذا وإنكاره إلى أصولها ، تبيّن كذلك أنه فى الحقيقة يريد أن يكفر بالوالد أو بالمعلم الذى أغلظ له القسوة وهو ضعيف ، وهكذا حلِّل حب المحبين وكراهية الكارهين وعبادة العابدين وزهد الزاهدين ، وحلِّل نشاط العالم فى معمله ، والرحالة فى ارتياده للمجهول ، تجد كل ذلك امتدادًا لأصول نشأت فى النفس وهى ناشئة بين رعاتها ولداتها ، فكان ماكان بعدئذ من خسَّة هنا ومجد هناك .. أتقول لى : لكن هذه نظرة

متشائم إلى القيم الإنسانية العليا ؟ لكن كانت كذلك ، فلا حيلة لى فى نظرتى المتشائمة ، لأنها وليدة حياتى التى عشتها حتى بلغت السابعة أو نحوها .

٥

انتقلت الأسرة إلى السودان والصبى فى تاسعته ، كان له ما كان من أحداث الحياة ، لكنه ذهب والأحداث مكنونة فى جوفه لم يظهر بعد منها شيء على ظهره ، ذهب والظهر معتدل وعاد والظهر مقوس معوجّ ، لقد طفح الداخل إلى خارج وتكور .

الشمس فوق رأسى كأنها عين فتحت فى جهنم ! ذلك هو أول انطباع تلقيته فى الطريق من المحطه إلى المنزل ، إذ جلست فوق الحقائب المحملة على عربة لأحرسها ، ولست أذكر بعد ذلك شيئا سوى أننى أرقد مصابا بضربة الشمس تحرسنى عناية الأبوين نهارا وليلا لبضعة أيام ، صحوت بعدها وجلْتُ قليلا ، فتبينت أننا قد انتقلنا من الظل إلى الوهج ، ومن رطب إلى يابس ، ومن حركة إلى سكون ، ومن غزارة حياة وصلات إلى تخلخل وتفرق ، فالمسافة بين بيت وبيت هنا أبعد ، وبين دكان ودكان أطول ، والناس قليلون والأفراد متناثرون ، والشارع ميدان والميدان فلاة ، والمشى كأنه وقوف والجلوس كأنه رقاد ، وشدة الحر تزيد الناس بعثرة بعضهم عن بعض ، لأنهم لائذون بالسقائف ، حتى ليتعذر على الخيال أن يتصورهم « جمهورا » بمعنى الحشد المتجمع فى مكان ، كما يتعذر على العقل أن يتصور قيام رأى عام ينتقل بين الأفراد بطريق العدوى ، وفى ظنى أن ظروفا للعيش كهذه من شأنها أن تزيد من اعتداد الفرد بنفسه وبفرديته ، لقلة صلته الطبيعية القريبة بسائر الأفراد ، وبالتالى فهى تقلل من استعداده للتفاهم السهل مع سواه ، فعوامل تكوين « الرأى » الواحد هنا مفرقة

مبعثرة ، وحوافز التفكير واهنة ، لأنه لا تفكير بغير مشكلات ، وإذا قربت الحياة من البساطة فلا مشكلات .

أنا لا أتحدث عن السودان الآن ، لكننى أتحدث عن موقف الصبى الذى ذهب إليه وهو فى التاسعة ، وكان ذلك منذ أمد بعيد ، ذهب إليه وإحدى قدميه مازال مغروسة فى أرض الطفولة ، والأخرى أخذت تخطو نحو نضج الشباب الباكر ، وقد بدأت خبرات الصبى هناك بموقفين متضادين فى آن واحد ، كان فى أحدهما طفلا لاهيا وكان فى الآخر إنسانا مسئولا .

فأما أولها فى الكُتَّاب الذى أرسلنا إليه لنقضى بعض أشهر حتى يبدأ العام الدراسى فى كلية غوردون ، وفى الكُتَّاب عرفت ما « الفَلَقة » وعذابها ، فالكُتَّاب كله غرفة واحدة لا أذكر أن لها نوافذ ، يفتح بابها على سقيفة مفروشة بالحصير ، ولذلك فهى — أعنى السقيفة — مضيئة وللهواء فيها حركة ، إذا قيست إلى الغرفة فى ظلمتها وسكون هوائها ، وتحت السقيفة كان يجلس الشيخ الدرديرى — صاحب الكتّاب والقائم فيه بالتعليم كله — وإلى جانب مقعده منضدة وطيئة عليها قُلّتان ، وحدث ذات صباح أن وجدت المقعد خاليا من شيخه ، ورأيت القُلّتين تلمعان بما يبلل سطحيهما من ماء ، فأخرجت من جيبى قلما من أقلام « الكوبيا » وطفقت أخطّ به على القلتين ، ولم أكن أتوقع أن أجد هذه المتعة كلها فى التخطيط بالقلم « الكوبيا » على سطح مبتل ، فانطلقت أرسم الأشكال وأكتب الأحرف ، فتسيح الخطوط وتتشابك فى زخرف جميل ، وهنة « طَبّ » الشيخ فجأة ، فأخذته صاعقة لما رأى ، وأمر فمُدّت « الفلقة » ورُبطت فيها قدماى ، وطرحت على الأرض ظهرًا ، ورفعت القدمان مزمومتين فى شقّى الفلقة ، والفلقة يحملها ولدان أمسكها كل منهما بطرف ، والشيخ

الدرديرى يهوى علىّ بالسوط فى غير رحمة كأنما نسى أنهما متصلتان بكائن حى ، وعدت إلى البيت مورَّم القدمين ... وغير هذا الحادث لا أذكر من هذا الكتّاب شيئا ، إلا أن زائرين كثيرين كانوا يزورونه ، فإذا دخل الزائر انتفضنا واقفين واضعين أكفَّنا الصغيرة على جباهنا « تعظيم سلام » ، مرددين فى صوت عال بيتين حفظناهما لهذه المناسبات ، أظنهما يجريان هكذا :

من نال العلم وذاكره حسنت دنياه وآخرته
فحياة العلم مذاكرة وحياة العلم مذاكرته

نمطُّ الهاء فى آخر الشطر الأول مطًّا منغما موصولا بالشطر الثانى ، وكذلك نقف قليلا عند التنوين فى آخر الشطر الثالث وأخيرا نجعل الوقف على الهاء الأخيرة كضربة الطبل معلنة ختام التحية ، وعندئذ نؤمر بالجلوس .

وأما الموقف الثانى الذى وقفت فيه موقف رجل مسئول ، فهو أن لصوص المنازل قد كثروا خلال ذلك العام كثرة قيل إنها لم تعهد من قبل ، وكان مردّ الأمر إلى قلة فى المطر وقحط فى المحصول ، وما يتبع ذلك من عوز وجوع ، وقد رأى الموظفون – ومنهم أبى – أن يساعدوا رجال الشرطة بأن يكونوا من أنفسهم دوريات تجوب الشوارع أثناء الليل ، لتفزِعَ اللصوص كما تُفزِّعُ العصافير من فوق الغصون بقرعات خفيفة على الصفيح ، فلصوص ذلك العام لم يكونوا لصوصا محترفين لهم جرأة وتدبير ، بل كانوا لصوصا تدفعهم الحاجة الماسة العاجلة إلى أى شىء يؤكل أو يلبس أو يباع ، إلى أقل شىء ، إلى رغيف يأكلونه ، إلى قميص يلبسونه ، إلى إناء يخطفونه ليبيعوه فى السوق برغيف أو قميص ، وإذن فتخويفهم أمر ميسور تكفى له هذه « الدورية » من الموظفين تجوب شوارع المدينة ليلا .

لكن كان لابد للبيوت كذلك من حراسة بالليل ، فعلى كل أسرة أن يتناوب أفرادها فى اليقظة لتكون هنالك العين الساهرة دائما ، والشاخصة نحو الأسطح وحواف الجدران الخارجية ، فاللص إما أن يهبط إلى فناء الدار من سطح الغرفات — والدور كلها من طابق واحد يتوسط غرفه فناء يحيط به السور الخارجى — وإما أن يهبط إليه واثبا فوق السور المحيط به ، وكان يقال لنا إن أقل صوت يصيح به الحارس اليقظان إذا رأى لصا يهم بالهبوط إلى الفناء ، كاف لتخويفه يفر كأنه الظل يختفى بلا صوت .

ومن ذا فى بيتنا تقع عليه هذه الحراسة سواى ؟ إن أخى أصغر من أن يوكل إليه هذا العمل الجرىء ، وأمى وحدها لا تغنى لأنهم يريدون للحراسة « رجلا » ، و « رجُل » البيت فى غيبة أبى هو أنا الصبىُّ ذو الأعوام التسعة ، لأننى أنا « رشيد العائلة » كما كان يحلو لأبى دائما أن يقول ، كان علىّ إذن أن أقف فى وسط الفناء ، ممسكا بيدى حطبة من حطب الموقد — وحطب الموقد هنالك قطع غليظة من فروع الشجر الجافة — وأظل أتطلع بعينىّ إلى حافة السطح وإلى حواف الأسوار ، وإننى لأكتب هذه الأسطر الآن وما يزال فى نفسى مزيج المشاعر التى كانت تملؤنى أثناء عملية الحراسة بضع ساعات من كل ليلة : فشجاعة مصطنعة تجعلنى أشدُّ بقبضتى على الحطبة الخشنة ، وزمٌّ للشفتين وحبس للأنفاس ، ودفعٌ بالصدر إلى أمام ، وتثبيت للقدمين على الأرض ، ووراء كل هذا رجفة الخوف تعترينى من الرأس إلى القدم ، وماذا تتوقع من صبى صغير أمر أن يضع فى إهابه رجلا ؟ إنه لا مناص من أن تكون الرجولة البادية الظاهرة مبَطنة بطفولة خافية مستترة ... ألا ما كان أرهبها من لحظة تلك اللحظة من جوف الليل الساكن ، التى نظرت فيها إلى حافة السطح المطلة على

الفناء ، لأشهد ساقين تدلتا وجذعا فى سبيله إلى الظهور ، ولم تكن بعدئذ إلا حركة واحدة من الواثب ليكون معنا فى فناء الدار ، فارتعشت ركبتاى ، وزعقت فى صوت مكتوم ماتت حروفه فى حلقى ، ولكن استطعت أن ألفظ الكلمتين : « امسك الحرامى » — فيا لعجبى من تلك الزفرة المبحوحة من طفل راجف ، تكفى لطرد الشبح إلى حيث لا أدرى ، وقل ما شئت عما ملأنى من شعور بالزهو لشجاعتى المزيفة ، فكأن تلك الليلة كانت مولدا لمركّبٍ شعورىّ أحسبنى لا أزال أحمله بين جنبىّ ، هو مركّبُ الشجاعة الخائفة ، أو الخوف الشجاع .

٦

كانت النقلة واسعة مما كنتُ عليه فى كتّاب الشيخ الدرديرى ، إلى ما أصبحتُ فيه بكلية غوردون ، فهى نقلة من طفل يفرض فيه أنه لا يعرف شيئا ولا يُعَلَّم شيئا إلى طفل يُفرض فيه أنه يعرف كل شىء ويتعلّم أى شىء .

كان المدرسون فى المرحلة الابتدائية أكثرهم من المصريين وأقلُّهم من أبناء السودان : هذا هو مدرس اللغة العربية الذى تولانا أول من تولى ، أستاذ أزهرى من المصريين ، فيه من الجد والصرامة مالو قُسم بين عشرين مدرسا ، لكان من كل واحد فيهم مدرس ناجح ، إنه أوشك ألا يفرق بيننا نحن الصغار الذين جاءوا إليه ليبدأوا حياتهم الدراسية ، وبين متخصص فى دراسة اللغة العربية من علماء الأزهر ، فقد كان يأمرنا أن نسطر له هوامش كتاب النحو المقرر بخطوط مائلة ، لنكتب عليها ما يمليه من إضافات ، على نحو ما تكتب الحواشى فى الكتب القديمة ، ويعلمنا الإعراب فيما أشكل من آيات الكتاب

الكريم أو من أبيات الشعر الجاهلي ، بعد أن يشرح لنا هذه وتلك شرحا وافيا ، لكنني كنت أحفظ الإعراب عن ظهر قلب دون أن أفهم من مصطلحه شيئا ، فما زلت أحفظ من تلك السنة الأولى أن « إذا ظرف لما يستقبل من الزمان ، خافض لشرطه منصوب بجوابه » ولابد أن يكون ذلك الأستاذ القدير قد شرح المعنى المقصود بكل هذا ، لكنني كنت أعجز عن استيعابه ، فكلمة « الظرف » عندى لم تكن تعنى إلا الظرف الذى يوضع فيه « الجواب » — خصوصا وكلمة « الجواب » واردة فى آخر العبارة ، و « الاستقبال » عندى لم يكن إلا استقبالا للضيوف ، و « الشرط » لا يكون إلا فرقا فى الثوب ، فما علاقة « اذا » بهذا كله ؟ لم أكن أدرى ، ولكنى أحفظ عن ظهر قلب ، والأستاذ يحدوه فينا أمل يجاوز قدراتنا .

وهذا هو مدرس اللغة الإنجليزية : شاب مصرى شاحب الوجه حاد الفكّين ، لا فرق — فى الصرامة والجد — بينه وبين مدرس اللغة العربية إلا فى الزّىّ ، فذلك شيخ وهذا أفندى ، نعم كان بأيدينا كتاب المطالعة الذى يبدأ بدرس عن ثور يركبه صبى فلاح ، لكن هل كان يكفيه هذا ؟ كلا ، فالمادة المضافة لا أول لها ولا آخر ، وأعمدة الأفعال وتصريفها ، وقوائم الكلمات التى نحفظها كل يوم كانت تلاحقنا بلا هوادة ، إلى الحد الذى كنا نخرج معه إلى فناء المدرسة بعد درس الإملاء ، فيسأل بعضنا بعضا (وهذا مثل حقيق تعيه ذاكرتى منذ ذلك الحين) : كيف كتبت كلمة boy ؟ — كتبتها هكذا ، فيعود السائل ليقول : لا إنها buoy التى معناها « عوامة » وإلا لما كان للجملة معنى ، وكيف كتبت كلمة story ؟ — كتبتها هكذا ، فيعود السائل ليقول : لا ، إنها storey التى معناها الطابق فى البناء ، لأن كلمة « قصة » لا تجرى مع

السياق ... وهكذا عبأنا الأستاذ بمادة اللغة تعبئة لا أكاد الآن أصدق مداها حين أذكرها .

ولما بلغنا السنة الرابعة الابتدائية ، تولى تدريسنا الانجليزية ناظر المدرسة — وكان مصريا — وهو رجل غاية فى الأناقة والنظافة والدقة والنظام ، بدلاته بيض من تيل هزاز ، ويخيل إليك أن له فى كل ساعة من ساعات النهار « غيارا » نظيفا ، وكان لا يمسك الطباشيرة إلا وهى ملفوفة إلى نصفها بالورق ، فهو يعيّن تلميذا خاصا لإعداد هذا الطباشير المكسوّ بالورق ، ليمده به كلما طلب ، وكنت أنا فى فرقتى صاحب هذه الحرفة ، كان من عادته أن يكلفنا شراء زجاجات من المداد الأحمر ، لأن طريقته فى تصحيحنا لأخطاء الهجاء ، هى أن نكتب الجزء المغلوط من الكلمة بالمداد الأحمر .

وأما الحساب فحيّا الله أستاذه وأكرمه إن كان ما يزال حيا ، وأسبغ الله عليه رحمة واسعة إن كان ميتا ، لأنه موهوب ، ولك أن تضيف إلى موهبته تلك الحماسة التى كانت تسرى فيه وفى زملائه لتعلم أى أستاذ كان .

وقد كانت لنا فى الترجمة دروس خاصة ، من الانجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الانجليزية ، وو الله لا أذكر مستواها إلا ويأخذنى العجب ، كان يدرسها مدرس سودانى طويل نحيل ، أرسل لحية قصيرة جعداء الشعر فى أخريات أيامه ، وما أخريات أيامه تلك إلا تهمة بالسرقة وجهت إليه ، وغاب عنا ، وكانت له فى نفوسنا هيبة حتى لقد صدقنا من قال إنها تهمة مزورة أريد بها الانتقام منه لأسباب سياسية ، ومضت بعد ذلك شهور ، ثم شاءت المصادفات أن أكون بمحطة السكة الحديدية على استعداد مع بقية الأسرة للسفر إلى مصر ، فمن ذا أرى هناك يقف محروسا بجندى مسلح ، إلا مدرسنا ذاك فى

وقاره وهيبته ، فما كان منى إلا أن نطقت باسمه ذاهلا دهشا ، فالتفت الرجل نحوى بحركة لا إرادية فما هو إلا أن نهّره السجان بصوت غليظ أجش : انظر أمامك يامسجون !.. ومسحت عن وجهى دمعة سالت .

لكننى كذلك لا أنسى قسوة مدرسينا فى المدرسة الابتدائية — من مصريين وسودانيين — قسوة جاوزت كل حد معقول ، وكانت لهم فيها فنون : كان مدرس الجغرافيا شيخا سودانيا ، وكان يطلب منا أن نحفظ خمسين صفحة من صفحات الكتاب بين ليلة ويوم ، بحيث نتلوها كما تُتلى الفاتحة — على حد عبارته — وإلا فسوطه القصير المخبأ فى كم ردائه على استعداد أن يهوى فوق الظهور ، ولم يكن مدرس اللغة الإنجليزية يكفيه أن تمدّ له الأكفّ ليضربها بالمسطرة — والمسطرة عنده هى أداة العقاب — بل كان يضفر قلما فى أصابع اليد ، ثم يضرب على ظهر الكف لا على بطنها ، وبسنّ المسطرة لا بعرضها ، وكانت العقوبة عند مدرس اللغة العربية جلوسا على الركبتين فوق البلاط ، وقد لا يكتفى بذلك فيجعل حصاة تحت كل ركبة ، ثم قد يضيف إلى هذا وذاك رفع الذراعين إلى أعلى ، وأما ناظر المدرسة فكانت طريقته أن يستعين بمدرس الألعاب الرياضية و « جَلْدته » ، فيجيء فراشان ويشدان المذنب المعاقب على ظهر كرسى من الخيزران ، فينثنى المعاقَب فوق ظهر الكرسى ، وكل فراش ممسك بذراع ، ومدرس الألعاب يضرب بالجلدة على مؤخرة الجسم عدد الجلدات الذى يقرره حضرة الناظر ، وكان فى المدرسة مدرسان للألعاب الرياضية ، كانا « صوليّن » فى الجيش أكملا فترة التجنيد ، أحدهما يدعى إبراهيم والآخر يدعى فرنسيس ، وكلاهما مصرى ، أما إبراهيم فشديد السمرة غليظ الكبد لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، وأما فرنسيس فأشقر اللون أصفر الشعر طيب القلب

رحيم ، إذا أمِرَ بجلد تلميذ فتراه يُنزل الجلدة خفيفة ، ولذلك كان الناظر حريصا دائما على أن يكون إبراهيم هو أداته في تنفيذ العقاب .

وننتقل إلى المدرسة الثانوية فيتغير المنظر تغيرا جوهريا ، فالتدريس هنا كله بالانجليزية ، والمدرسون أكثرهم انجليز ، ومن أول المدرسة الثانوية يبدأ التخصص المهني ، لينتهي بنهايتها ، لكن هذا التخصص كان يتركز في السنتين الأخيرتين ، ففيهما يكون قسم للمهندسين ، وقسم للمدرسين ، وقسم للقضاة الشرعيين وهكذا .

على أن أهم ما يميز الدراسة هو الحياة الاجتماعية والرياضية ، فالتلاميذ مقسمون إلى « بيوت » أربعة — وهو ما نسميه في مدارسنا المصرية بنظام الأسر — يختص كل بيت من البيوت الثلاثة الأولى بالتلاميذ الوافدين من جهة معينة من جهات السودان ، فهؤلاء من الجنوب ، وأولئك من الشرق أو من الغرب ، وأما البيت الرابع فللتلاميذ « الخارجية » ومن هؤلاء كان المصريون جميعا .

وكانت كرة القدم إجبارية على التلاميذ كافة ، فيقسمون أحد عشر درجة بحسب قدراتهم ، وكلما أظهر اللاعب قدرة ارتفع إلى فريق المستوى الأعلى ، حتى يصل إلى الفريق الذي يلاعب الفرق الخارجية باسم المدرسة ، وكانت كلية غوردون محاطة بملاعب لكرة القدم كثيرة العدد ، حتى لتمتد رقعتها إلى مسافة بعيدة .

ولا أذكر هذه الملاعب إلا وأذكر عقوبة أمر عليَّ بها الرئيس الانجليزي الذي يشرف على « البيت » الذي كنت أنتمي إليه ، وذلك لأنني أخرجت ساعتي خلال الدرس ، وكانت العقوبة أن تؤخذ مني الساعة أولا ، وأن أظل

ثلاثة أسابيع ، مدة ساعتين كل يوم ، أجمع الأحجار الصغيرة التي قد تكون مخبوءة في العشب النامي على الملاعب ، على أن يكون ذلك بالطبع بعد نهاية اليوم الدراسي نحو الساعة الرابعة عصرا ، وأشهد أن تمتعت خلال هذه العقوبة أكثر مما تألمت ، لأنني كثيرا ماكنت أنعم بالجلوس مع الزملاء « الداخلية » على العشب – وكانوا يجلسون حلقات حلقات – وأشرب معهم الشاي الجيد بلونه الذهبي في أكوابه الخاصة ، والذي كنت أعجب له أنهم يجلسون بجلابيبهم البيضاء على العشب فلا تتسخ ، وأجلس ببذلتي البيضاء فأقوم وعليها رقعة خضراء (كانت الثياب البيضاء شرطا واجبا ، فالسودانيون يلبسون الجلابيب البيضاء والعمائم السودانية البيضاء ، والمصريون يلبسون بدلات بيضاء ، وأربطة عنق سوداء ، على ألا يكون الحذاء إلا بُنّي اللون) وقد تفتقت حيلتي ذات عصر عن طريقة ظننتها تنجيني من تلك الرقعة الخضراء إثر الجلوس مع الزملاء على العشب ساعة الشاي ، وهي أني خلعت حذائي وجلست عليه ، فإذا الرقعة هذه المرة مزيج من البني والأخضر ، وأسأل نفسي الآن : ولماذا لم أستخدم ورقة أو منديلا فرشًا أجلس عليه ، ولا أستطيع الآن أن أقع على التعليل ، لأني نسيت .

على أن أهم ما أقلقني من تلك العقوبة – فضلا عن الرقع الخضراء التي كنت أعود بها كل يوم فتستشيط أمي غضبا – هو ساعتي وضياعها ، لأني أخفيت أمرها عن والديّ ، وكنت في خشية دائمة أن يجيء الوقت الذي أسأل فيه أين الساعة ؟ فلا أجد الجواب ، لكن الله سلّم في آخر لحظة من العام الدراسي فبينما أنا هابط السلم مع طابور التلاميذ ، إذ ناداني العريف (رئيس البيت من الطلاب) وأخذني إلى غرفته حيث أعطاني ساعتي بعد نصح

وتقريع ، فأخذتها وهرولت أنزل السلالم درجتين درجتين ، وأنا أصيح بأعلى صوتى لأسمع أخى الذى سبقنى مع الطابور :

فلعلها ولعلها ولعلها ولعل من عقد الأمور يحلها

٧

لكنى لا أكتب هذه المذكرات لأقص تاريخا ، بقدر ما أكتبها لأتعقب علّتى إلى جذورها ، فمها يكن لزملاء كلية غوردون علىّ من فضل ، فقد أساءوا إلىّ — من حيث لا يشعرون — إساءة لا أخطئ كثيرًا إذا قلت إنها كانت هى الحد الفاصل بين أن أكتم علتى فى جوفى وبين أن يفلت منى زمامها فتخرج — خرجت — قتبا على ظهرى ، وذلك أنهم غرزوا فى أعماق نفسى عقدة نقص ما زالت تسيطر علىّ إلى يومى هذا ، ثم مازالت تتفرع فى شعاب النفس أشكالا وألوانا ، كأنها الأخطبوط ، إذا بترت منه خيطا نبتت خيوط .

والبداية بسيطة ككل البدايات ؟ ذلك أن صغار الزملاء قد أدركوا — ونحن بعد فى أول المرحلة الابتدائية — ما فى بصرى من قصر ملحوظ فى زرّى لعينى اليمنى كلما أردت النظر إلى شيء ، وأعجب العجب أنى لم أكن أعلم قبل إذ أن بصرى يقصر دون أبصار الناس ، كلا ولم يكن يعلم ذلك أحد من أهلى ، حتى وجدته موضع السخرية من هؤلاء الزملاء الصغار .

كل ما أذكره قبل ذلك حادث عابر جاء وذهب فى لحظة قصيرة ، فقد كنا نعبر النيل عند الخرطوم فى مركب اشترته جماعة من الموظفين الأصدقاء ، الذين يسكنون من النيل فى ضفة ويعملون فى الضفة الأخرى ، ليكون المركب تحت تصرفهم دائما ، على نحو ما يملك المالك اليوم سيارة خاصة ، واصطف

الراكبون صفين متقابلين ، وفى الصف المقابل لى ، كان والدى وكان أحد أصدقائه ، وأحسبنى قد زررت عينى اليمنى ، حين قال ذلك الصديق : « أتزر عينك منذ الآن يابنى ؟ فماذا أنت صانع إذن حين تتقدم بك السنون ؟ » ومع حرف النون الأخير فى عبارته وقعت كفٌّ والدى على وجهى صافعة ، وهو يزجر : « افتح عينك حين تنظر » .

لم أكن أعلم قبل ذلك — اذن — ولا كان أهلى يعلمون أن بعينىّ ضعفا ، حتى كشف لى الأمر صغار الزملاء من السودانيين ، حين راحوا يطلقون علىّ أسماء من قبيل « الأعور » و « الأعمش » ، ثم استقروا أخيرا على مصطلح لم أفهمه بادئ ذى بدء ، وهو قولهم « ٧ و ٤ » أحيانا ، « ٥ و ٦ » أحيانا أخرى ، ولطالما عجبت من العلاقة بين هذه الأعداد وبينى ، لكننى كنت على يقين عندئذ أن الإشارة فى هذا كله إلى عينىّ ، وأخذت أحاول أن أنظر كما ينظر أصحاب النظر السليم ، فالكتابة على السبورة لا أراها لكنى أكتم الخبر ، وقد حدث ذات يوم أن أقبلت علىّ طائفة من الزملاء ، وأحاطت بى ليرى من لم يكن قد رأى كيف أنى أزرّ عينا دون عين ، فأردت أن أدحض لهم دعواهم ، وبالغت فى فتح عينى حتى أبرهن لهم أن ليس بها عيب يعاب ، فازدادوا ضحكا ، وازددت عجبا وريبة ، ولما عدت إلى الدار ، وقفت أمام المرآة لأفتح عينىّ كما فتحتهما فى الصباح ، لأرى كيف ظهرنا للمشاهدين ، وإذا بالزملاء معذورون ، لأنها فى الحق حملقة تضحك من قصد إلى السخرية والعبث .

ومنذ ذلك العهد الباكر من حياتى ، وعيناى العليلتان مصدر عجيب لكل ضروب العوامل التى تدفع صاحبها إلى الأمام مرة ، وتردّه إلى الوراء مرة ، فقد

كان مما قيل فى أوساط الأسرة – وقد عُرِفت حقيقة بصرى – أنه لا جدوى من أن أكمل مراحل التعليم إلى آخر أشواطها ، مادام هذا البصر الكليل عقبة فى سبيل التوظف على كل حال ، فالتعليم عندهم وعند الناس أجمعين فى ذلك العهد طريق للوظيفة ، فإذا لم يكن الطريق موصلا إلى غايته بطل أن يكون طريقا ، وكان عبثا ومضيعة للجهد والوقت والمال ، وسمعتُ هذا اللغط يسرى بين من يهمهم أمرى ومن لا يهمهم من أفراد الأسرة الكبار ، فزادنى صلابة وعنادا وإصرارا على المضىّ فيا أرادوا أن يصدونى عنه ، فإذا قال القائل : لا تقرأ حرصا على بصرك ، كان ردّ الفعل عندى أن أقرأ ضعف ما أردت أن أفعل ، ولست أشك فى أن أقوى ما دفعنى إلى حياة الدراسة ، هو ذلك العزم الذى بدأ عنادا أول الأمر ، ثم انتهى إلى ميل وعادة .

ولست أنسى يوما – وكنت فى السنة الثانية الابتدائية – حين « سرحت » عن الدرس ، وسبحت بنظرى خلال النافذة شاخصا إلى قطع السحاب تتسابق مع الريح ، وتتخذ لنفسها أشكالا عجيبة ، فجعلت أتأمل ماذا عساها أن تكون؟ فهذا جمل ذو سنامين وخمسة أرجل ، وتلك بطة سابحة تلوى عنقها ذات اليمين مرة وذات الشمال مرة ، وذلك تمساح فتح فكيه ليبتلع سمكة تجرى أمامه ولا يلحقها ، ثم جاءت سحابة ضخمة تشبه وجه الرجل الكهل بلحية طويلة وشاربين كبيرين ، وعلى الوجه جلال وعظمة ، فقد رأيته وكأنه يأمر بقية السحاب فتجرى بأمره وتقف بأمره ، فمن ذا يكون هذا الأمر العظيم ؟ آه لقد عرفت ، إنه « الله » فقد حكوا لى أنه يسكن السماء ، ياسلام . هذا – اذن – هو « ربنا » ؟!

هكذا كانت خواطرى تجرى وأنا أنظر إلى قطع السحاب ، حين جاءتنى

ركلة بالقدم فى جنبى ، وضربة بجمع اليد فى كتفى ، ومجموعة الأولاد فى الفصل تتفجر ضاحكة ، ونظرت مذعورًا إلى الضارب — الذى هو المعلم وإذا به يكشر عن أسنانه اللوامع البيض : فيم زررت عينك ياأعور ؟ وإلى أى شىء فى السماء تنظر ؟

وليت المعلم يعلم الآن أن العين العوراء مازالت تنظر إلى السماء باحثة عن الله — لكنها هذه المرة تبحث عن وراء قطع السحاب — سائلة عن الكون ونشأته وعن الإنسان ومصيره ، وليت المعلم يعلم كذلك كم كانت تلك العين العوراء حافزا وكم كانت مصدر ألم ممضّ ، فمنذ ركلته بالقدم ، وضَرْبَتهُ بجُمع اليد ، فى تلك اللحظة الحالمة المتأملة ، قد أصبحت العين العوراء همًّا مقيما على صدرى ، لا يتزاح ولايزول ، تبعث فى نفسى كل صنوف المخاوف مما قد تضرب به الأيام فتصيب منى مقتلا ، وإنما هى الشبح المخيف والظل الكئيب ، الذى أراه مطروحا أمامى فى الطريق أينما سرت ، فيظلم الأفق ويصد عنى شعاع الشمس المضىء .

٨

كان للغلام فيا بين عامه العاشر وعامه الخامس عشر سبحات شاطحات فى أحلام يقظته ، معظمها يدور على محورين : أحدهما هو أن يكسب مالا كثيرا يقيم به الدليل على « شطارته » ، والآخر هو أن يضلّ فى التيه طريدا شريدا .

فما سار يوما من البيت إلى المدرسة — ذلك الطريق الطويل برماله الغزيرة وشمسه الحارة وهوائه المغبر — إلا وقد طأطأ الرأس مثبتا عينيه فى قدميه ، وشاردا بخياله ... إلى أين ؟ إلى غابات الجنوب — وكان قد سمع عنها مايثير

خياله — فيتاجر مع أهلها ، فيكسب المال الكثير ، وأهله أثناء غيبته لا يعلمون أين ذهب . فيبحثون عنه حتى يأخذهم اليأس ، فيقولوا ! مات ، أو فقد لغير رجعة . فإذا به بعد أعوام يعود إليهم ومعه صرَر كبيرة ، يسألونه : ماذا تحوى ؟ فيجلس بينهم ويفتحها ، فيتدفق المال ، وتنفغر الأفواه من عجب ، فيوزع عليهم أنصبتهم ، ويبقى لنفسه نصيبا ...

وما جلس وحده يوما ، إلا وقد راح يحلم بأنه يخبط فى فجاج الأرض طريدا شريدا ، يأكله الجوع فلا يجد اللقمة ، ويقتله العطش فلا يجد جرعة الماء ، وتتمزق ثيابه ، وتنهدُّ قواه ، وربما اضطر إلى التسوّل ليقيم الرمق وهو فى عزلة الشريد المجهول .

فأما موضوع المال وكسبه ، فقد همَّ الغلام عندئذ بإخراجه من دنيا الأحلام إلى دنيا الواقع بصور شتى ، فيها السذاجة الشديدة التى انتهت به ذات يوم إلى « علقة » ترده إلى صواب العقلاء ، فمن ذلك — مثلا — أنه فكر : لماذا لا يتاجر ليكسب ؟ ومرَّ بالدار ساعتئذ — وكان أهله فى زيارة — بائع الدجاج ، فاشترى منه زوجين ، وعاد الأهل من زيارتهم فظنوه اشترى الدجاج لحسابهم ، وحمدوا له الصنيع لأنه دجاج جيد بسعر رخيص ، لكنه فى الحقيقة كان يضمر فى نفسه تجارة ، فبعد يومين مرَّ بائع للدجاج آخر ، معروف للأسرة لكثرة تردده على البيت بائعا ، وهو رجل ضرير اسمه « صيام » ، فلم يجد فى الدار غيرى ، وما فتحت له الباب حتى بادرنى بقوله : عندى دجاج سمين ، فقلت له : وأنا كذلك عندى دجاج أسمن ، فهل لك فى الشراء ؟ فتعجب الرجل لبيتنا يُباع منه الدجاج وكان الظن أن يباع له ، لكنه طلب البضاعة المعروضة ليفحصها ، وأمسكت بدجاجاتى من فناء الدار بعد جَرى وراءها وهى مع بقية الدجاج فى

الفناء تندفع مذعورة هنا وهناك وتصيح كأنها تطلب الغوث ممن يغيث ، أمسكت بدجاجاتى وعرضتها على « صيام » فراح يتحسسها ، ثم سعَّرها بثمن يشتريها به ، وهو ثمن يزيد قرشين عما كنت دفعته لشرائها ، فأسلمته الدجاج وقبضت الثمن فرحا بكسبى ، وعاد شمل الأسرة فاكتمل : أبا وعما وأما وامرأة عم . وعلموا بالأمر . فأخذتهم الدهشة المحيرة التى لم تنفك عنهم أسبابها إلا بالعصا ... ولم تكن حيرتهم فى أمرى بأشد من حيرتى فى أمرهم ! لماذا تضربوننى وقد اشتريت الدجاج لأتاجر فيه ؟ فتزداد العصا أداء لمهمتها فى تقويم غلام فسد واعوجَّت به السبيل .

ومن مغامرات الكسب أيضا أن اشتريت من جار لنا فى مثل عمرى بضع صور من بطاقات البريد المصورة ، باع لى البطاقة بقرش ، وكان مشروعى هو أن أقيم من تلك البطاقات مايشبه السينما فأربح منها الكثير ، وكيف ذلك - بأن أضع الصورة داخل زجاج المصباح ، فينظر إليها الناظرون وهى خلف زجاج !.. وانتظرت الزبائن من أولاد الجيران وبناتهم ، ولكن لا زبون ، وكلما أغريتهم ازورُّوا عنى واشتدوا نفورا ، ولم أدرك كم أخطأت الظن إلا حينما عرضت على من كنت اشتريت الصور منه ، أن يجىء ليتفرج عليها لقاء مليمين للمرة الواحدة ، فدهش وقال : ماذا تريدنى أن أرى ؟ ماالفرق بين رؤيتها أمام الزجاج ورؤيتها خلف الزجاج ؟!

ومغامرة ثالثة للكسب المشروع شاركنى فيه أخى عماد . وهو أن اشترينا نعجة قبل فصل المطر - ويسمونه فى السودان بفصل الخريف ، وهو فى حقيقته فصل الصيف - أملا فى أن نطعمها بما ينبته المطر من عشب ، فتكبر ، فتلد ، فنبيعها هى ونبقى على الحملان لتكبر وتلد وهلم جرا ، فما أكثر ما سمعنا عن أغنياء بدأوا

حياتهم مثل هذه البداية البسيطة ، لكن لم يكد ينبت العشب فى الأرض الفضاء الفسيحة خارج البلد ، ولم نكد نأخذها إلى هناك مع الصباح لتغتذى ، ونعود بها ساعة الظهر ، أقول إننا لم نكد نفعل ذلك أسبوعا أو أسبوعين ، حتى نفقت النعجة بعد انتفاخ شديد أصابها ، وقال العارفون من جيراننا إنها لابد أكلت عشبا ساما كانوا هم يعرفونه ويجنبون أغنامهم إياه ، لكن من أين لنا مثل هذا العلم بالعشب والغنم ؟

وأما أحلام التشرد والتسول والعزلة الضاربة فى القفار ، فما تزال هى هى الأحلام التى تعاودنى بعد أن هذبها نضج الدراسة ، فأصبحت أحلاما تحلم بعزلة المتصوفة الزاهدين .

ضلال ليس بعده ضلال فى فهمنا لأنفسنا وفهمنا للناس ، أن نلتمس محورا واحدا ندير حوله أحوال النفس جميعا ، فلكل نفس محاور عدة تدور حولها فى تصريفها لشئون حياتها ، فلو قلتُ للناس — مثلا — إننى فى أعماق نفسى زاهد فى زخرف الدنيا ، لا أريد مالها ولذائذها ، قيل لى : لكنك تجدّ ساعيا فى كسب المال وادخاره ، وتزيد فى حياتك من أسباب الراحة والترف ، وإن قلت للناس : إننى فى أعماق نفسى أحب العزلة ، قيل لى : لكنك تأنس لحديث الأصدقاء ، وإن قلتُ للناس : إننى أجعل من ذاتى وخبرتها أساسا أولا وأخيرا فى تقويم الأشخاص والأشياء ، قيل لى : إذن ففيم دعواك التى قلبت بها الأرض وأوجعت بها الدماغ ، فى وجوب أن يكون معيار التقويم دائما موضوعيا مستقلا عن الذات وأهوائها ... وهأنذا أصيح بملء فمى : نعم ، نعم ، إننى هذه الجوانب كلها ، وقولوا ماشئتم أن تقولوا .

٩

... ... إننى إذ أرتد إلى أعوام المراهقة الباكرة ، أجدنى ملتقى أخلاط عجيبة تشابكت أطرافها من دين وجنس وشعر ، فقد أحاطت بنا جماعة من الأصدقاء لا تكاد تنطق بكلمة واحدة فى أحاديثها إلا ولها صلة بأمور الجنس ، وكانوا يكبروننا بأربعة أعوام أو خمسة ، فكان لهم من الخبرات مالم يكن لنا به علم ، وكنا نستمع إليهم وكأننا نستمع إلى قادم من عالم مسحور يروى عن ضروب من الحياة والأحياء لم ترها عين من قبل ولم تسمعها أذن ، نعم لقد حدث لى قبل ذلك بسنوات أن أخذت أدرك أن بين الجنسين أمرا يحرص الناس على أن يجرى فى خفاء وتستر ، لكننى لم أكن أحسّ شيئا من هذه الفتنة التى يحدثنا عنها الأصدقاء ، وإذن فلا بد أن تكون أبواب هذا العالم المسحور مغلقة عندى حتى ذلك الحين تنتظر مزيدا من النضج يتميز بعلامات حفظتها عن هؤلاء الأصدقاء حفظا ، وجعلت أرتقبها مشوقا إليها ، وأتعجل حدوثها كمن يتعجل قدوم الغائب الحبيب ، لكنها ارتقاب وتعجل لم يخلوا من شعور المرتاع من داهم مجهول .

كان منزلنا يبعد عن النيل مسافة نصف الساعة مشيا ، وعنّ لى ذات عصر أن أحمل حصيرة صغيرة وأقصد بها إلى شاطئ النيل ، فأفترشها لأنظر إلى غروب الشمس على صفحة الماء ، وأظنها كانت أول مرة أقصد فيها إلى شاطئ النيل فى تلك البقعة بذاتها ، إذ لم أكن أعلم أن عشرات السابحين يلهون بالسباحة فى النيل عند ذلك المكان وفى تلك الساعة من النهار ، لقد اخترت المكان عفوا ، لأن الطريق إليه كان يشق حديقة من شجر الليمون ، توُهم الإنسان بأنه سائر فى ظل الشجر ، والحقيقة أن لم يكن هناك ظل يحميه ، لأن

الأشجار قصيرة ومعراة من الورق والثمر ، وعند شاطئ النيل افترشت الحصيرة وجلست وحدى ، لا أجد ماأسند ظهرى إليه ، فكنت أستند إلى ذراعىّ من خلفى حينا ، وأقرفص مشبّكًا ذراعىّ على ركبتىّ حينا آخر ، وأستلقى ناظرا إلى السماء حينا ثالثا ، فربما ظهر هذا التغير فى الأوضاع لمن يشاهده كأنه قلق فى النفس ، لا مجرد بحث من الجسم عن وضع يريحه ، فجاءتنى فتاتان سودانيتان مازلت أذكر منهما لمعة العيون التى تناديك فى إغراء بل فى إغواء صامت دون أن ينطق اللسان بكلمة ، كما أذكر منهما صدورا ناهدة تستثير أصابع القديسين أن تمتد لتجمش ، كانتا سمراوين أفتح لونا من اللون السائد بين نساء السودان ، وأغمق لونا من اللون السائد بين نساء مصر ، جلستا على الحصيرة واتكأتا على الذراعين ، راكعتين على الركبتين ، كأنما دربتا أن تقوما بهذه الحركة معا فى توقيع موسيقى ، وشخصتا إلىّ بعيون ضاحكة وشفاه باسمة كاشفة عن أسنان ناصعة البياض ؟ وقالت إحداهما – ورددت الأخرى قولها – « إنك لتتململ قاعدا راقدا ، باسطا ذراعيك قابضا لها ، كأنما فى القلب جمرات نحن نعرفها » فأخذتنى رعشة هزّت كيانى هزًّا ، من أعلاه إلى أسفله ومن باطنه إلى ظاهره ، فكأننى هذه الساعة أسمع مادقّ به قلبى دقا عنيفا ، وتذكرت الدنيا المسحورة العجيبة التى طالما حدّث عنها الأصدقاء ، والتى طالما ارتقبتها ، وخيل إلىّ أن تلكما الفتاتين هما اللتان أرسلها الغيب لتفتحا الباب الذى لبث حتى تلك اللحظة مغلقا ، لا أدرى ماذا وراءه إلا عن طريق الرواية ، لكنى تذكرت كذلك أن علامات النضج التى هى جواز المرور إلى داخل العالم المسحور لم تظهر بعد ، فقلت لها بأنفاس متقطعة : « لكنى مازلت صغيرا » ، فضحكتا فى دلال لا يعرفه إلا من عرف كيف تدل الفتاة السودانية بأنوثتها ، وقالت إحداهما –

ورددت الأخرى قولها – « صغير؟! هذه هي السن التي جئنا نبحث عنها » ، فلم أشعر عندئذ إلا بالقشعريرة الشديدة تلمُّ ببدني كأنها المرض الداهم ، وجمعت حصيرتي وأسرعت عائدا ، تاركا ورائي فتاتين تضحكان ضحكات عالية الرنين.

ذلك كان نوع الارتقاب الذي كنت أرتقب به دخول العالم المسحور ، ارتقابا مشوبًا بالفزع ، وتلك كانت هي نفسها الأيام التي سمعنا فيها عن ألف ليلة وليلة ، لكننا سمعنا عنها من أفواه أولئك الأصدقاء الذين استَعَرت نيران الجنس بين جوانحهم ، فأقبلنا على قراءتها لا من حيث هي أدب من الأدب القصصي الرفيع ، بل من حيث هي كتاب فيه لمسات من الدعارة المحرمة ، ولذلك وجب أن يقرأ في خفاء عن أولياء الأمر ، فطفقنا أياما متلاحقة في إجازة الصيف ، نجتمع الصباح كله والعصر كله في منزل زميل لنا كانت له في داره غرفة خاصة لا أثاث فيها إلا حصيرة ممزقة على أرضها ، فنضع الكتاب على الأرض وننكبّ عليه ، أحدنا يقرأ في صوت مسموع ، والآخرون يتابعون قراءته بالنظر الصامت ، حتى فرغنا من قراءة أجزائه جميعا.

وكانت تلك هي نفسها الأيام التي أخذ فيها الشعور الديني يملأ قلوبنا ، فالأمر هنا لم يقتصر على صلاة تؤدى في أوقاتها ، وعلى صوم نصوم به شهر رمضان في حرٍّ يجفف الحلوق ويحيلها حطبا يابسا ، بل تجاوز أمر التدين عندنا كل هذه الحدود ، حتى كاد يبلغ بنا حد « الدروشة » أو قل إنه قد بلغها وأوغل فيها ، فكما أرادت لنا أيام المراهقة صحبة من أصدقاء تفتح أعيننا وآذاننا على عالم مسحور هو عالم الجنس ، فقد أرادت لنا كذلك أن نجتمع بحلقة دينية ، يتولى إمامتها شيخ وقور من أهل السودان ، قيل لنا إنه قد تخرج في الأزهر ،

وكانت الحلقة تمتد ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء .

فى ميدان فسيح بالقرب من دارنا ، مبنى صغير يعلو عن مستوى الأرض درجتين أو ثلاث درجات ، له بوابات بغير أبواب من جهات ثلاث ، كان معدا ليكون مكانا يقف فيه حاكم السودان عند الاحتفال بالمولد النبوى ، لتمر أمامه الفرق الصوفية ببيارقها ، وأما بقية العام ، فالمبنى متروك خلاءً لمن شاء أن يأوى إليه فى ليل أو فى نهار ، وفى هذا المبنى كانت تعقد الحلقة الدينية كل مساء بين صلاة المغرب وصلاة العشاء .

وكان أعضاء الحلقة يستأجرون دكانا صغيرا على بعد أمتار قليلة من ذلك البناء ، يخزنون فيه الحصر ، حتى إذا ماقربت ساعة الغروب ذهب منهم متطوع يرش أرض المبنى بالماء رشا خفيفا ، ويكنسه ، ثم يجيء بالحصر من مخزنها ذاك فيفرشها ، فإذا ماأذّن المغرب يكون الأعضاء قد تكاملوا ، فيقيمون الصلاة ، يؤمهم شيخ الحلقة ورائدها ومعلمها ، وهو الشيخ أبو قرين ، حتى إذا مافرغ المصلون من صلاتهم ، جلس الشيخ النحيل الوقور وحوله الأعضاء ، وأخذ يقرأ الدرس الدينى ويشرح ، إلى أن يحين موعد صلاة العشاء .

تلك كانت هى الحلقة الدينية التى وصلنا أنفسنا بها فى ذلك العهد الذى أتحدث عنه ، ثم ماهى إلا أن أصبحنا نحن .. أنا وأخى ... العضوين اللذين يوكل إليهما – إما معا أو بالتناوب – رشّ المكان بالماء وكنسه وفرشه وملء القلل بالماء البارد ، إعدادًا للصلاة وللدرس الدينى ، ولو كان هذا الدرس اليومى مقتصرا على شرح أصول الدين وقواعده ، لما كان منه فى نفوسنا إلا حصيلة من علم ، قد تلتمس طريقها إلى الرءوس دون أن تمس من القلوب شغافها ، إذ لابد من التفرقة بين من « يعلم » أصول الدين وقواعده ، وبين من يتحول ذلك

« العلم » فى قلبه إلى « وجدان » ، فهذان جانبان مستقل أحدهما عن الآخر ، قد يجتمعان فى إنسان واحد ، وقد يتوافر أحدهما دون الآخر ، فهنالك العالم المتبتل ، وهناك العالم فى غير تبتل ، وهناك التبتل عن غير علم ، وهناك من يخلو من العلم والتبتل كليهما : أربعة أنماط من الناس ، لابد من التفرقة بينها حتى لا نظن أن كل علم بالدين مقرون بالشعور الدينى — وإنما قصدت بهذا أن أقول إن ذلك الدرس الدينى الذى لبثنا نستمع إليه أشهرا طويلة لا نتخلف عنه يوما واحدا ، بل يحلو لنا أن نقوم نحن بإعداد العدة له ، فى تلك السن المائجة بمشاعرها ، لم يكن درسا دينيا للعلم وحده ، بل كان يمتد إلى أشياء تهز وجداننا هزًّا عنيفًا .

مثال ذلك أن الشيخ أبو قرين يبين لنا أسرار آيات قرآنية معينة ، وأسرار كلمات معينة ، فهذه الآية إذا قرئت كذا ألف مرة فى ظلمة الليل ، أو تلك الكلمة إذا نطق بها كذا ألف مرة تعد على المسبحة ، ظهر ملك من ملائكة السماء فيبارك القارئ فى دنياه وفى آخرته على السواء ... فهل كنا نسمع هذه الأشياء لمجرد العلم بها ؟ كلا ، بل كنا نسمعها لننفذها فورا ، فإذا ماجَنَّ الليل ونام الأهل ، أوى كلٌّ منا إلى ركن مظلم ، وأمسك بمسبحته وراح يهمس الآية أو يتمتم بالكلمة كذا ألف مرة كما أوصى ، وكنا حريصين ألا يتنبه أحد من أفراد الأسرة إلى هذا الذى نصنعه ، حتى لا يحول بيننا وبين أدائه ، ولكن الملائكة المرتقبة لم تظهر أبدا ، فهل كان يطوف ببالنا عندئذ أنها لم تظهر لأن الأمر كله خرافة فى خرافة ، كلا ، بل إنها لم تظهر لأنه لابد أن يكون هنالك نقص فينا — كأن نكون على غير طهر فى الجسد ، أو على غير صفاء فى النفس بالدرجة التى يتطلبها ظهور الملائكة ، وهكذا نردُّ العيب دائما إلى شىء فى استعدادنا الجسمى

أو النفسي ، ولم نردّه قط إلى تعاليم الدرس وتوجيهات الشيخ .

قيل لنا إن من يؤذن للصلاة يظفر عند الله بثواب أكبر ، فكنا نتسابق إلى الأذان للصلاة بأصواتنا المتسلّخة ، ولست أدرى كيف كان يؤذن لنا بذلك برغم مافى أصواتنا من رداءة الأداء وقصر المدى ، ولعلهم أحجموا عن منعنا خشية أن يكون فى هذا المنع غضب ينزل عليهم من السماء .

تلك كانت هى الموجة الدينية الجارفة ونحن فى سن المراهقة ، لكنها برغم ذلك لم تكن لتتعارض فى أعيننا مع حلقات أخرى ، نجتمع فيها مع ثلة الأصدقاء الذين لم يكونوا يتحدثون قط إلا فى الجنس وما يتصل به ! أيكون هذان الجانبان من النفس الإنسانية على علاقة وثيقة أحدهما بالآخر ، حتى ليحدث كثيرا أن تكون النقلة يسيرة بين الإمعان فى الدعارة والإمعان فى الزهد والعبادة؟ كما حدث للقديس أوغسطين. ولرابعة العدوية ، ولتاييس — نعم قد يكون الأمر كذلك ، حتى لقد اجتمع المعنيان فى كلمة عربية واحدة ، هى كلمة « الحرام » بمعنى المقدس وبمعنى الممنوع فعله ، فيقال المسجد الحرام بالمعنى الأول ، ويقال هذا الفعل حرام عليك بالمعنى الثانى — ومهما يكن من أمر ، فقد جمعت أعوام المراهقة فى حياتى بين حلقتين فى آن واحد : الحلقة الدينية ، وحلقة الحديث فى شئون الجنس .

لكن التقاء الجانبين فى نفس واحدة تعانى تحول المراهقة ، لم يكن يخلو من صراع داخلى عنيف ، وكيف أنسى ذلك اليوم من رمضان وقد نال الصوم منى ما نال ، فتهافت الجسد وانهار ، وانتشى الروح لهذا الضعف نفسه الذى هد الجسد ، إذ علمونا أن الروح والجسد عدوان ماينفكان يتصارعان ، وهزيمة الإنسان هى فى أن تكون الغلبة للجسد وشهواته ، وسموه إنما يكون فى أن تتغلب

الروح ... إذن فقد كنت يومئذ مهدود الجسد منهوك القوى من وطأة الصيام فى ذلك الحر الشديد ، لكننى كنت بروحى فى سماء عالية من الطمأنينة والرضى .

ويومئذ مررت فى بعض طريق على دار أسرة تربطنا بها وشائج الصلة الوثيقة ، لأقضى فيها ساعة القيلولة قبل أن أستأنف السير ، ودخلت غرفة الضيوف وهى قريبة من الباب الخارجى ، بعيدة عن بقية أجزاء المنزل ، وفى تلك الغرفة وجدت فتاة من الأسرة – فى مثل سنى – قد جلست إلى مكنة الخياطة تهز قاعدتها بقدميها ، وتمسك الثوب المخيط بيديها ، فيكون لجسمها بهذه الحركة شىء من التوقيع والنغم ، أما أنا فقد حييت وجلست إلى منضدة قريبة وفتحت القرآن – وكنت أحمله معى – وأخذت أقرأ فى همس ، لا أحول بصرى نحو الفتاة إلا إذا وجهت إلى شيئا من عابر الحديث ، فأرد عليها أو أوجه إليها شيئا فترد ... فلقد كان بيننا وبين أسرة الفتاة من قوة الروابط ومن إلف العشرة مالم يجعلنى أفكر فى الفتاة على أنها قد تكون من ذلك الجنس العجيب الذى تحدث عنه الأصدقاء فى أسمارهم التى لم تنقطع ساعة واحدة من نهار ، ولم يطف برأسى قط – و الله يعلم أننى صادق فيما أروى – أن تلك الفتاة التى تجلس على مقربة منى ، قد تكون هى النافذة التى سأطل منها – لأول مرة – على ذلك العالم المسحور ، أبدا لم يطف ببالى شىء من هذا ، وكأن كيانى كله عندئذ كان هو ذلك القرآن الذى أخذت أتلو آياته فى همس ، مدخلا نفسى فى عالمه ، ومازجا معانيه – بقدر إدراكى لها – بشغاف قلبى ، فكم علمنا الشيخ أبو قرين أنه رب صائم لم ينله من صيامه إلا الجوع والعطش ، ولم أرد أن أكون أنا هذا الصائم الذى يصوم عبثا ، وفجأة دبّرت الأحداث أمرا ، وهو أن دخل عم الفتاة يسألها إن كان لديها شىء يلف فيه ثوبا جديدا كان يحمله على ذراعه ،

فأجابت بالنفي وخرج الفم ، وعلقت الفتاة بعبارة تشير بها إلى معنى خفيّ وقرنت العبارة بابتسامة تنادي وبنظرة تدعو .

فإذا كنت قد رأيت شرارة النار ماذا تفعل بكومة من الدريس الجاف ، فقد رأيت ماذا فعلت تلك الشيطانة بجسدي الذي كان الصوم قد جففه ! لقد أشعلت في أحشائه نارا – على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز – لأنني أحسستُ عندئذ لهب النار يأكل جوف أكلا ، ويعلو إلى وجهي فيشويه ، وتحول كياني الملتهب إلى عينين ذاهلتين تنظر إلى الشيطان وقد تجسّد في إنسانة من البشر ! لكن لساني لم ينطق بحرف ، وسُمِّر بدني كله على مقعدي ، وعيناها ما زالت تدعو ، وابتسامتها مازالت تنادي ... ومضت ساعة أو ساعتان أو لا أدري كم ساعة مضت ، حتى دنا وقت الغروب ووجب الرحيل .

خرجتُ أسلِّم باللفظ من بعيد ، وذهبت إلى دارنا : مصحف القرآن في يدي ، وجسد الصائم المنهوك يمشي بخطوات سريعة ، لا أعلم من أين جاءه الوقود ليسرع ، لكنه أسرع ، ووصل إلى الدار لحظة غروب الشمس ، وأفطر الصائم ، وذهب ليستمع إلى الدرس الديني بين يدي الشيخ – بعد صلاة العشاء والتراويح – منصتًا أضعاف ماكان ينصت كل ليلة ، وخاشعا أضعاف ماكان يخشع ، كأنه أراد بذلك أن يقيم الأسوار الحصينة بينه وبين الغواية ... لكن هيهات ، فلقد انفتح الباب المرصد عن العالم المسحور ، لقد كانت روحي يومها من جسدي كأنها يوليسيز من سفينته أثناء تجواله في البحر ، حين ربط جسده إلى قلعها وشدَّ على نفسه الوثاق ، إذ قيل له إن الساحرات في إحدى الجزر على الطريق ، تُغنّين بصوت خلاب لا يملك دفعه إنسان من البشر ، فينحرج الملاحون بسفائنهم إلى حيث الصوت الساحر ، حتى إذا ما وقعوا في

فخاخ الساحرات دارت بهم الحتوف ، ولم يُرِدْ يوليسيز أن يضعف أمام الإغراء، فشدَّ نفسه إلى قلع السفينة شدا ، لكن السفينة اضطربت أيما اضطراب ومالت أيما ميل ، وهكذا كنت يومئذ من ساحرتى ، تلك الشيطانة التى رسمت فى نفس الفتى المراهق صورة للمرأة كيف تكون ، فتوالت الأيام وكرّت الأعوام ، لكن الصورة قد رسخت فى نفسه لا تزول .

وها هنا يخطو الفتى خطوة نفسية قصيرة المدى ، فإذا هو مغمور بحبه لقراءة الشعر ، وماهو أقرب إلى الشعر من نثر الناثرين ، فالزملاء فى المدرسة ما يفتأون يباهى بعضهم بما قرأوا من الشعر وبما حفظوا ، وأخذت تتردد بينهم أسماء سمعتها لأول مرة : الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران ، وليالى سطيح والبؤساء لحافظ إبراهيم ، والعبرات للمنفلوطى ، فاندفع فتانا فى هذا العالم الجديد اندفاعا ، لكنه كلما قرأ قصيدة فى الغزل ، أو وقع على كلام فيه لوعة الحب ، فهمه على ضوء ماكان يحسه إزاء تلك الشيطانة التى رسمت أمام خياله معالم الطريق .

فلطالما عَبَرْتُ طريق الأعراف بين عالم الجسد وعالم الروح ، فأعرج إلى السماء مرة وأهوى إلى الأرض مرة ، وتجسدت لى العلاقة بين الأرض والسماء ، كم هى قريبة إذا شاء الله ، ذات يوم وكان قد جاء إلى الأسرة وافدتان جديدتان هما أختان ، ثم وافد ثالث هو أخ لم يلبث على وجه الأرض إلا عاما وبعض عام ، وثقلت عليه العلة ، ولم ينقطع له أنين عدة أيام ، وفى ذلك اليوم الذى أعنيه — ساعة الضحى — لم يبق فى الدار — فيما أذكر — إلا أمى وأنا ، ولا أدرى أين ذهب الباقون ، وكان لابد للأم أن تنظر فى شئون البيت فأجلستنى متربعا على السرير ، ووضعت الطفل العليل على ركبتيَّ لئلا

أرفع عن وجهه نظرى ، لأنها كانت تخشى فيه أمرًا ، ومضت ساعة أو أكثر أو أقل ، والحشرجة تزداد فى صدر المحتضر ، ثم ماهو إلا أن مال برأسه ، وسكنت الحشرجة ، ولم يعد الصدر يعلو ويهبط كما كان يفعل .. لقد مات راقدًا على ركبتّى ، فصرخت فازعا ، وجاءت الأم فى هلع ، ونظرت إليه ، وحملته ملهوفة عليه ، وكأنها لم ترد أن تصدق أنه مات ، فصاحت فىّ : اذهب كالبرق وناد خالتك أم محمد لتفحصه ... فلا أطباء ، ولا أحد من أفراد الأهل الأقربين هناك لأدعوه ، ولم يبق أمامها من موئل إلا جارة وقورًا ، هى التى صاحت بى أمى أن أناديها على عجل .

وكان ذلك أول موت شهدته على مقربة ، حين كانت النفس منى حائرة بين أرضها وسمائها ، فعلمت بما قد رأيت أن المسافة قريبة بين الأرض والسماء

وأراد الله أن يعوضنا أخًا مكان أخ ، فجاء من لقى منا كل إعزاز وتدليل . وما يزال يلقى .

* * *

بهذا انتهت مذكرات الأحدب ، أو ماستطعت أن أستخرجه من مذكراته ، لأن بها أجزاء كثيرة ممزقة أو مطموسة تتعذر قراءتها وهى مذكرات كتبها وهو فى الخامسة والعشرين أو نحوها ومضت عليها خمسة وأربعون أخرى ، لأنه اليوم فى السبعين .

الفصل الرابع

فاوست فى قبضة الشيطان

١

أحسست من الطريقة التى أعطانى بها الأحدب مذكراته القديمة الممزقة . أنه أراد أن يفض الأمر بينه وبينى فإذا كنت أتعقبه لأكشف عن سره ، فهاهو ذا سره مكتوبا – ولم يعد بعد ذلك مايدعو إلى تعقبه فى وحدته . لكنه فى الحقيقة قد أخطأ الظن ، لأن قراءتى لمذكراته تلك لم تزدنى إلا رغبة فى معرفة ما بقى من قصة حياته ، لأن تلك المذكرات إنما وقفت عند سن المراهقة أو بعدها بقليل ، فماذا كان بعد ذلك حتى بلغ ما بلغه الآن من عمر ؟.

لقد ختمت مذكراته بذكر أخ أصغر أضيف إلى أسرته . وكأنما أضيف إليها تعويضًا عمن كانت فقدته قبل ذلك بقليل ، فماذا لو بدأت البحث بالسؤال عن بقية أفراد أسرته ؟ إننى فى الحقيقة لم أكن أسعى إلى تفصيلات حياته فى حد ذاتها ، لأنه لاتثير اهتمامى إلا بمقدار ما تكشف لى عن السر الدفين فى أن تكونت له تلك العاهة النفسية التى برزت على ظهره قتبا يكبر حينا ويصغر حينا . وهى نفسها العاهة – أو لعلها أن تكون – التى مالت به إلى خشية الناس وإلى الانفراد بنفسه فى مسكن منعزل أو فى ركن من المدينة قصى بعيد .

ولم يطل عنائى فى السؤال عن أفراد أسرته ، والمصادفات فى أمثال هذه

الأمور تسعف الباقين أكثر جدا مما يتصور الناس ، كأن لهذه المصادفات قوانينها التى تشبه قوانين العلوم : فيندر أن يتفيأ الإنسان فى حياته غاية يريد بلوغها . إلا وتولد له المصادفات مما يشبه العدم أو المحال ، فتقدم له المعونة وتخلق له الظروف التى تحقق له غايته المنشودة

جلست على مقهى فى ميدان السيدة زينب بالقاهرة . ولم تكن تشغلنى عندئذ مسألة الأحدب وأسرته ، فما هو إلا أن لمحنى من الطريق صديق قديم منذ عهد الدراسة . فضلا عن كونه منتميا إلى القرية نفسها التى أنتمى إليها . فجاء مسلّما . ودعوته للجلوس ، فنظر فى ساعته ليرى إن كان الوقت يسمح له بجلسة قصيرة معى ، ثم جلس ؟ ثم لم تكد أطراف الحديث تتصل بيننا حتى ورد ذكر الأحدب ورودا سريعا فى حديثه ، فاستوقفته فى لهفة نبهته إلى أهمية الأمر عندى ، مما دهش له :

قلت : من هذا الأحدب الذى ذكرته الآن ؟

قال : هو رجل عرفته منذ سنين ، حين تزاملنا فى إحدى مدارس الريف ، وبينى وبينه قرابة بعيدة .

قلت : هلا حدثتنى بأى شىء تعرفه عن أفراد أسرته ؟

قال : وما سر اهتمامك به ؟

قلت : لقد عرض لى فى طريق الحياة لفترة وجيزة . أثار فيها استطلاعى . ولم أعلم عنه بما يشبع رغبتى . ولو لم يكن على شىء من الغرابة اللافتة للأنظار ، لما عنيت به . ولكان واحدًا من ألوف الناس الذين يجيئون فى طريق الحياة ويذهبون .

قال : صدقت . إنه على كثير من الغرابة . ولكنى – على كل حال –

لا أعلم عنه إلا أقل من القليل . بسبب انطوائيته الشديدة فى معظم الأحيان ، انطوائية لا تشجع أحدًا على الاقتحام ، ومع ذلك فصلة القربى البعيدة بينى وبينه قد أتاحت لى أن أعلم بأن أباه كان ملحقًا بحكومة السودان ، ولقد اصطحب ابنه هذا إلى هناك وهو غلام . ومضت أعوام لا أعرف عددها ، ثم عادت الأسرة كلها إلى القاهرة . وكانت عند العودة مؤلفة من الوالدين وثلاثة أبناء وبنتين ، وهذا الأحدب هو أكبر الأبناء .

قلت : ومن هما أخواه ؟

قال : أحدهما قريب من سنه . وهو يزامله مزاملة لم أشهد مثلها فى أخوين ، فلقد كانا على طريق فى الدراسة واحد ، وتخرجا معا ، واشتغل كلاهما بالتدريس أول الأمر ، وأظن شقيقه هذا الآن مديرا للتعليم فى منطقة القناة : وأما أخوهما الأصغر فأظنه طبيبا فى إحدى عواصم الصعيد .

وتركنا سيرة الأحدب بعد هذه العجالة المفيدة . واستأذن صديق بعد دقائق قليلة ، وتركنى على عزيمة بأن أقصد إلى شقيقه مدير التعليم ، لعله أن يكون طريق الوصول إلى ماكنت أبتغى الوصول إليه من تفصيلات تكمل سيرة حياته ، ويكون لها عندى دلالتها فى تكوينه النفسى .

ولن أطيل فى ذكر التفصيلات التى اعترضت طريقى فى البحث عن شقيق الأحدب ، وهو الذى قيل لى عنه إنه والأحدب بمثابة التوأمين بالروح . فهما وإن يكن بينهما فى العمر سنتان ، والأحدب يكبر بها شقيقه ذاك . إلا أنهما بدءا الدراسة معا وتلازما فى كل مراحل الحياة بعد ذلك ، حتى لقد تشابها فى الفكر وتشاركا فى مجموعة الأصدقاء ، وتزاملا فى كل ما قد عرض لهما أثناء الطريق ، ولا يكاد أحدهما يكن سرا لا يطلع عليه توأم روحه ، فهما فى الحق — كما قال لى

القائل عنهما – قد أوشكا أن يكونا شخصًا واحدًا فى جسدين .

وصلت إلى الشقيق خلال إجازة قصيرة كان يقضيها فى القاهرة ، ولم أرد أن ألف معه وأدور ، بل كاشفته بكل ما جئته من أجله ، وهو أنى رأيت فى أخيه الأحدب ما أثار اهتمامى وأردت أن أتعقب تاريخه ، لاحبًّا منى فى استطلاع غوامض الناس لمجرد الاستطلاع ، بل لأنى أردت أن أتخذ منه موضوعا للتحليل المفيد ، فهو بغير شك يمثل نموذجا صالحا للدراسة التى نستبين بها مدى ما تفعله عوامل النشأة فى تكوين النفوس ، ولو كان إنسانا على الصورة المألوفة للأناسى ، لما لفت الأنظار ، لكنه هو حبه للعزلة والانطواء على نفسه وخوفه من مخالطة الناس . دون أن يكون ذلك صادرًا عن شك فى نواياهم بالنسبة إليه ، وإنما هى عزلة وانطواء وخوف قد أصبحت جزءًا من كيانه ، لا يطمئن إلا بها ، ولا يكتمل له وجوده إلا إذا تحققت له ، فما الذى ينتهى بانسان إلى مثل هذا ؟ ذلك هو السؤال .

استمع إلى شقيقه برحابة صدر ، ثم سألنى : أين التقيت به ، وكيف ؟ فقصصت عليه ما كان ، وذكرت له شيئا عن مذكراته التى أعطانى إياها عن حياته الأولى ، لكنها مذكرات تنتهى عند أول الشباب .

فروى لى الشقيق فى إيجاز عن أخيه – وهو لا يشير إليه باسم الأحدب كما كنت أشير – بل يسميه باسمه الحقيقى ، وهو رياض – فقال : كان أخى رياض لم يزل فى سن باكرة من شبابه حين أوشكت كلية غوردون الثانوية أن تنحرف به إلى عمل متواضع يؤديه لحكومة السودان ، إذ أن تلك الكلية لم تنشأ أساسا إلا لتغذية الحكومة بمن تريدهم من العاملين على اختلاف الأنواع – من عمل فنى أو مهنى إلى عمل كتابى أو غير كتابى ، فأسرعت الأسرة بإرساله إلى القاهرة

ليستأنف دراسته ، ولحقت به أنا بعد قليل . حيث عدنا إلى متابعة السير على طريق واحد

وماهو إلا أن فرغنا من المرحلة الثانوية ، وكان علينا أن نختار من المدارس العليا القائمة عندئذ ما يطيب لنا أن نختار – وتلك المدارس العليا هي التي تحولت بعد قليل إلى كليات الجامعة – وهاهنا لعبت الأقدار لعبتها المألوفة ، وهي أن تقذف في طريق الإنسان عندما يكون في مفترق الطرق ، ما يميل به إلى هذا الطريق أو ذاك ، فترى الإنسان في أمثال هذه المواقف الحاسمة قابلا للتأثر بأوهى العوامل .

ولقد شاءت المصادفة أن يكون لنا قريب تخرج من مدرسة المعلمين العليا ويعمل بالتدريس في إحدى المدارس الثانوية ، لكنه كان من ذلك الصنف الذي يجيد حسن المظهر ، وكان الوقت أوائل الصيف ، عندما انعقدت في القاهرة لجان التصحيح للشهادات العامة ، وجاء صاحبنا من مدرسته التي يعمل بها – وأظنها كانت في الإسكندرية – ليشارك في لجان التصحيح ، ورأيناه نحن عندئذ نزيلا في فندق ممتاز ، ويلفت الأنظار بروعة هندامه وارتفاع المستوى الذي يتحرك فيه كلما قضى سهرة هنا أو جالس بعض أصدقائه هناك ، حتى لقد خيل إلينا أنه النموذج الحي لما نريد لحياتنا أن تكون عليه .

وإذن فقد انحل الإشكال وتحدد أمامنا طريق الاختيار ، وهو أن نسلك الطريق نفسه الذي سلكه صاحبنا ، فإلى مدرسة المعلمين العليا بغير تردد !

ولم نكن في هذا الاختيار على ضلال ، لأن طريق المعلمين العليا – بالنسبة إلى طلاب الدراسة الأدبية – لم يكن عندئذ ينافسه طريق آخر لمن أراد أن يضمن لنفسه « وظيفة » بعد تخرجه ، ولا غرابة أن كانت « الدفعة » التي شملتنا

ممن دخلوا مدرسة المعلمين العليا فى ذلك العام (١٩٢٦) تحتوى على نسبة كبيرة جدًّا من أصحاب المجموعات العالية فى امتحان « البكالوريا » .

٣

سار شقيق الأحدب بالحديث إلى هذا المدى القصير ، ولأمر ما أخذه القلق وأراد أن يترك الرواية للأحدب نفسه ، لا سيا ومطلب الباحث هو العوامل الداخلية التى عملت على تكوينه ؟ فحتى هذا التوأم الروحى له — أعنى شقيقه — قد تخفى عليه الخلجات الباطنية ولا يرى من الأمر إلا ظواهره ، ولقد تعهد لى أن يصلنى بأخيه الأحدب على النحو الذى يشق أمامنا الطريق ، وذلك ما حدث.

وابتسم لى الأحدب كأنما أراد أن يسألنى : أين كنت ، وفيم اللجوء إلى أخى ؟ ولم يكد أخوه يتركنا وحدنا ، حتى دار بيننا حديث مقتضب فى أمور مختلفة ، استطعنا بعدها أن نضع أنفسنا فى موقف نستأنف به الرواية عند النقطة التى ختم بها أخوه حديثه ، قال :

أربع سنوات قضيتها فى مدرسة المعلمين العليا ، كانت هى التى وضعت لى أساس التحصيل العلمى الغزير ، وهى التى أمدتنى بمجموعة الأصدقاء الذين كانوا هم العالم الصغير الذى أحاطنى بعوامل الحب والتنافس معا ، وهى التى بذرت فى نفسى تذوق الأدب والفن ، وهى التى وضعت أمامى عددا من النماذج البشرية التى أحتذيها ومن النماذج التى أنفر منها وأجتنبها ، وهى التى كانت بمثابة المرحلة التحضيرية الحقيقية لمستقبلى كله قارئا أو كاتبا.

كانت الأسرة — والوالد بصفة خاصة — قبل ذلك هى المحيط المؤثر بكل ما فيه من حوافز تحفز ومحبطات تؤدى الى الكساح ، وأما بعد ذلك فالمحيط المؤثر

هو تلك المدرسة بما ذكرته عنها ؟ ولعلى لا أخطئ كثيرًا لو أجملت أثر المرحلتين فى نفسى فقلت إن عوامل الحفز فى المرحلة الأولى كانت على سبيل التحدى ، وأما عوامل الحفز فى المرحلة الثانية فقد جاءت عن طريق التنافس والطموح الإيجابى الذى لا يتحدى أحدًا بذاته ، ولكنه يريد المزيد ويريد الصعود للذات الزيادة والارتفاع ، وكانت الحلقة الواصلة بين المرحلتين هى أخى توأم الروح — كما قيل لك عنه بحق — فقد كان معى فى المرحلة الأولى ونحن نتحدى العوامل التى تحيط بنا معًا ، كما كان معى فى المرحلة الثانية ونحن نطمع فى مزيد ونطمح إلى صعود ...

سكت الأحدب وانقبضت أسارير وجهه وسرح ببصره إلى السماء ، وفوجئت بهذا التغير الغريب . حتى لقد نظرت أنا الآخر إلى حيث اتجه ببصره لأرى إن كان هناك ما استدعى ذلك التغير ، لكن لا شىء ، إنها طبيعته المتقلبة بين انبساط سهل وانقباض يائس ، ولماذا لا أقول إن هذه الطبيعة نفسها هى طبيعة المصرى ، وكل ما فى الأمر عند الأحدب أن تلك الطبيعة المتأرجحة بين بسط وقبض قد تطرفت فوضحت معالمها ، إنك لا تدرى أين الصواب حين تريد وصف الطبيعة المصرية : أتقول عنها إنها سهلة منبسطة ضاحكة فى غير تعقيد ؟ أم تقول عنها إنها مأساوية حزينة ؟ أقول إنك لا تدرى أين الصواب هنا ، إذ يبدو أن الصواب فيهما معًا ، وحسبك أن تقف أمام التماثيل المصرية القديمة لترى جهامة الجد قد عبست بها الجباه ، لكن الشفاه مع ذلك تفتر عن ابتسام . هو أقرب إلى ابتسام الساخر من الحياة ؟؟ ألا ما أكثر ما يوصف المصرى أو يصف نفسه بالمرح ولذع النكتة ، وما أكثر كذلك ما سألت نفسى : أصحيح ما يوصف به المصرى من مرح ؟ إنى لا أراه كذلك ، وإلا فأين جانب

المرح فى نتاج أدبائه ؟ وأما النكتة اللاذعة فلا ريب فى شيوعها . ولكنها على الأغلب نكات المرارة والإحباط .

وصديقنا الأحدب مصرى صميم . فيه ما فى طبيعة مصر التى ربما حددت معالمها خضرة الزرع فى الوادى ملاحقة لصفرة الرمل فى الصحراء ، فبين اللونين خط فاصل حاد لا يتدرج فى هذه الناحية أو فى تلك ، وبذلك تجاورت فى نفس المصرى حالة الأمل الضاحك وحالة اليأس العابس ، ينتقل من إحداهما إلى الأخرى بغير تمهيد وبلا تدرج .

ظللنا صامتين فترة ، ثم استدرجته لمتابعة الحديث ، فقلت له :

— قد أفهم أن تمدك دراسة المعلمين العليا بالعلم الغزير ، ولكن لا أفهم كيف جاءك منها تذوق الأدب والفن ؟

— فأجاب : لعلها مصادفات ، فلقد شاءت المصادفة أن يبدأ لنا أستاذ الأدب الانجليزى بشرحه لقصيدة ورد زورث التى نظمها عن النرجس الأصفر ، والتى يقول فى سطرها الأول ما معناه : « تجولت وحدى كالسحابة » ، وأخذ ذلك الأستاذ يحلل هذا السطر وحده فى درس كامل ، مما جعلنى أستمع إليه وأنا ذاهل لما يمكن أن يتكشف عنه بيت واحد من الشعر لو وجد الناقد . الدارس الذى يفجر ألفاظه تفجيرًا ليخرج مكنونها ، ولم أكن أعهد فيما قرأناه وحفظناه قبل ذلك من الشعر العربى ، لم أكن أعهد مثل هذا التحليل العجيب ، فلو قلت الآن إن هذا الدرس الأول فى النقد الأدبى ، الذى تناول به الناقد المعلم الشارح سطرًا واحدًا هو فاتحة القصيدة ، لو قلت الآن ! إن هذا الدرس الأول عن ذلك السطر الأول هو بذرة التحول عندى فى قراءة الشعر كله والأدب كله . لما بعدت عن الصواب .

وربما شاءت مصادفة نكدة أن يجيء محاضر الأدب العربى فى إثر ذلك الدرس الأول العجيب فى الأدب الإنجليزى ، فكان هذا المحاضر العربى شيخا يضع أمامنا أبياتا من الشعر الجاهلى وكأنه يقدم لنا أحجارًا خشنة غلاظا لا تقوى على هضمها أقوى المعدات ، ولا هو فى وسعه أن يفك تلك الجلاميد لتخرج مكنونها أمام الأبصار ، فبقدر ماكان الدرس الأول طاقة فتحت أمامى الطريق إلى سماء فى الفهم الأدبى تعلوها سماء ، كان الدرس الثانى – ولو بالمقارنة بما قبله – صارخا بأن تراثنا الأدبى يحتاج إلى أيدٍ أخرى غير الأيدى التى كانت تعبث بذلك التراث وهى عجماء

وكذلك كان لنا أستاذ فى الفنون ، لا أقول إنه ذواقة للفن بحيث جاءتنى منه العدوى ، لأننى – حتى فى تلك السن – كنت أدرك أن تعليقه على أعمال الفنانين ينقصها شيء من الحساسية ، لكننى برغم ذلك أشهد له بأنه كان بمثابة من فتح أمامنا بابا وقال هاكم المروج الفسيحة إذا أردتموها فادخلوا إليها من هذا الباب ، ومن هنا بذرت فى نفسى بذرة ربما كانت ضئيلة ضعيفة مقيسة إلى بذرة التذوق الأدبى – أقول إنه من هنا قد بذرت فى نفسى بذرة الالتفات إلى دنيا الفنون .

وقد أظلم نفسى إذا لم أذكر هنا بأن الحاسة الأدبية – متمثلة أول الأمر فى الحس بالألفاظ وجرسها – قد انغرست عندى منذ الطفولة الباكرة التى قد لا تصدقنى إذا حددت تلك الطفولة الباكرة بسن التاسعة أو العاشرة ، وإنه لمن الأحداث المحفورة فى ذاكرتى منذ ذلك الحين البعيد ما حدث لى ذات يوم وقد دعيت مع بقية أفراد الأسرة إلى حفلة زواج ، وماكان أشد دهشة الحاضرين جميعا والحاضرات ، وهى دهشة اختلطت معهم بضحكات الهزء والتصغير ،

عندما فاجأت الجميع بأن صعدت على كرسى فى ركن الغرفة وأخرجت ورقة وأخذت أتلو خطبة التهنئة التى كنت قد أعددتها سرًّا.

أذكر ذلك لأستشهد به على ميل مبكر نحو صياغة اللفظ التى قد تكون عتبة الدخول فى رحاب الأدب تذوقا وإنشاء ، وربما كان هذا الميل المبكر عندى هو الذى جعلنى ألتقط شعاع النور حين أرسله أستاذ الأدب الإنجليزى وهو يقدم لنا قصيدة وردزورث ، وهو الشعاع الذى أضاء لى طريق الأدب كيف يكون إبداعه وكيف يكون فهمه وتذوقه ، فإذا كان جرس اللفظ هو الذى ملأ سمعى قبل ذلك ، وهو أيضا ما أراد أن يؤكده فى آذاننا شيخ الأدب العربى يومئذ ، فإننى بعد ذلك الدرس الأول الملهم قد أدركت أن الأدب شىء آخر ، يستخدم قوة اللفظ والعبارة بما فيها من تنغيم ، ليجعلها أداة موصلة لذلك الشىء الآخر – وهذا الذى انغرس فى نفسى عن الأدب ، قد اتسع معى فيما بعد ليكون مبدأ عاما يشمل جميع الفنون.

ولقد ظهرت معى محاولات أولى منذ ذلك العهد ، أمزج فيها بين النغم والمعنى ، لعل من أوائلها حادثا عابرًا كان أقرب إلى اللهو المازح منه إلى الجد البناء ، وذلك أن مجلة مصورة فى ذلك الحين – أظنها كانت مجلة « اللطائف المصورة » – قد أعلنت عن مسابقة يكتب فيها المتسابقون أسطرًا لا يزيد عدد كلماتها عن أربعين كلمة – فيما أذكر – بحيث يصفون فى هذه الأسطر القليلة ماذا عساهم صانعين لو علموا أن نهاية العالم ستكون بعد ساعة واحدة ، فكتبت مع الكاتبين ، وبالطبع لا أذكر ما كتبته ، لكننى أذكر أننى قلت إننى لا أعمل شيئا ، ومازال ترن فى أذنى إلى اليوم عبارة وردت فى أسطرى ، قلت فيها إننى وقد « وجدت الدقائق تمر سراعا ، والقلب يدق تباعا » مع ما تكاثر فى خاطرى

مما ينبغي عمله في هذه الساعة الواحدة الباقية ، لعجزت عن التنفيذ .

وجاءت نتيجة المسابقة بفوزي بجائزتها الأولى ، وكانت جنيهين !! لا ، إنه لمن أفدح الخطأ ألا تقيس هذه الأمور بما يصاحبها من مشاعر وعما يحيط بها من ظروف ، فأنا الآن حين أقول إني كسبت جنيهين ، لا يسعني إلا الضحك كما أراك أنت الآن ضاحكا مما سمعت ...

— أردت الاعتذار فقاطعني الأحدب قائلا : لا تعتذر ، فهو أمر طبيعي لا غرابة فيه ، لكنه هو نفسه الأمر الذي يميل بأبناء الحاضر أن يظلموا أسلافهم عند الحكم عليهم : فقد يقيسون أعمالهم بمقاييس عصرنا فيجدونها ضئيلة نحيلة فيهزأون ؟ ما علينا من هذا الآن ، كسبت ذينك الجنيهين من تلك المسابقة ، فقل ما شئت عن فرحتي التي أحسستها بالفوز في ذاته أولا ، وبالمال نفسه ثانيًا

ماذا تظن عن موقفنا عندئذ من المال ؟ بضعة قروش تتحرك في مجالها ! وجاءني صديقان ممن كانت الصلة قد توطدت بيني وبينهم ، يلحان في نزق الشباب وخفته أن نذهب جميعاً : أنا وأخي والصديقان ، لننفق هذين الجنيهين في « فسحة » نخططها لتستوعب كسبي كله : وكانت أول الخطة أن نذهب الى مسرح يوسف وهبي .

وذهبنا وكانت المسرحية القائمة تلك الليلة هي « كرسي الاعتراف » — لم أكن قد شهدت قبل ذلك في حياتي مسرحا ولا عرفت كيف يكون ! كنت أسمع عن دنيا المسارح ، لكني كنت أحسبها بديهية من بديهيات الرياضة أنها لم تخلق لي ولا خلقت لها ، أما وقد ذهبنا ، وأما وقد رأيت ما رأيت ، فلست أدري بأي لغة أستطيع أن أصور لك الهزة العميقة العميقة العميقة التي اهتزت بها نفسي لما رأيت ، فكل ما رأيته جديد ، وكل ما سمعته جديد ، وعدت إلى

دارى ذلك المساء لأحلم بما قد رأيت وسمعت ، والحق أنه كان فتحا جديدا فى حياتى ، لا لأن المسرحية والتمثيل يستحقان كل هذا الثناء ، فأنا لم أكن ليلتها على أدنى درجة من العلم بدنيا المسرح ، فقد تكون تلك المسرحية جيدة وقد لا تكون ، وقد يكون الممثلون أجادوا أو لم يجيدوا . لم يكن ذلك هو مدار انتباهى ، بل كان المدار هو هذه الدنيا الجديدة نفسها حين انكشف عنها الستار .

٣

نهض الأحدب واقفا بغير تمهيد ، ودون أن تبدو على وجهه معالم الضجر المألوفة عنده حين يضيق صدره ، قال :

— لماذا لا نخرج فى الهواء الطلق ساعة أو ساعتين ، وقد نكمل الحديث هناك ؟

— أنت وماتريد .

وخرجنا معا وكأنى بالأحدب قد استقام ظهره بعض الشىء لكننى لم أمعن النظر حتى لا أعكر عليه الصفو الذى هو فيه ، وسرنا فى الطريق لا يبدو على سيرنا أنه هادف إلى مكان بعينه ، فلم أكن من ناحيتى أريد التدخل ، وتركت له القياد ، قانعا بأن يكون الحديث بيننا فى أثناء الطريق مسترسلا فى مجراه الطبيعى الهادئ ، على أننى ما لبثت أن تبينت خطة سيره ، إذ أراد لنا الجلوس فى مكان يقع على النيل فى مكان قصى شمالى القاهرة . كثيرًا ما مررت به وسألت نفسى : ترى أى مجنون تحدثه نفسه بالجلوس فى هذا المكان البعيد عن كل عمران . ومع ذلك فلابد أن يكون له زائرون وإلا لأغلق صاحب المكان أبوابه وانصرف إلى سواه .

جلسنا هناك وكنا وحدنا ، فقد يكون زبائن مكان كهذا من ذوى المزاج الشاذ الذين إذا اختار سائر الناس ساعات النهار اختاروا هم ساعات الليل ، ولم نكد نستوى على مقاعدنا ونطلب شراب الليمون ، حتى حركت فى صديق شهوة الحديث فيما كان بصدده ونحن فى غرفة مسكنه .

قال : الذكريات حلوة حتى وإن كانت فى حينها مصدرًا للمرارة والألم ، وإن حياتنا فى تلك السنوات الأربع التى قضيناها – أخى وأنا – فى مدرسة المعلمين العليا ، لهى فى الحق حياة لم تخل من ضنك وضيق ، لكننا برغم ذلك لم نكن نحس مما نحن فيه إلا بالحيوية الدافقة تدفعنا إلى العبّ من ثقافة أيامنا عبًّا ليمتلئ الإناء ! كنا نجمع كل ماكان يخرجه أعلام الفكر والأدب من كتب خلال العام الدراسى لنجعله زادنا فى أثناء إجازة الصيف ، على أن كل ماكانت تخرجه المطابع عندئذ خلال العام كله لم يكن ليجاوز أصابع اليدين ، ولم تكن أثمان الكتب بحيث نعجز عن الشراء .

كان أحمد حسن الزيات قبيل ذلك الزمن بقليل ، قد أخرج كتابيه المترجمين : « آلام ڤيرتر » لجيته ، و « رفائيل » للامارتين ، فكم مرة تظننى قد قرأت هذين الكتابين ؟ لو قلت إننى قرأتهما على الأقل ثلاث مرات متوالية لما بالغت ، لأن لغة الترجمة سحرتنى إلى حد الفتنة ! وإن لم تكن هى فتنة المسحور ، فماذا تسمى هذا السلوك الآتى : أردت أن أكتب خطابا إلى أبى ، وكان لم يزل فى منصبه فى حكومة السودان بالخرطوم ، وكنت قد عدت من إجازة قصيرة قضيتها معه هناك ، وكان طريق السفر تتخلله مرحلة بالسفينة البخارية فيما بين أسوان ووادى حلفا ، وفى هذه المرحلة النهرية كان يحدث للسفينة أن تقف بركابها عند أبى سمبل ، ليستطيع من أراد ، أن يزور ذلك المعبد

القديم المنحوت فى حجر الجبل ، فلما أردت الكتابة إلى أبى بعد عودتى الى القاهرة ، أغرتنى صفحات جميلة فى « رفائيل » يتحدث فيها الكاتب عن معبد قديم ، فانتحلتها لنفسى وكتبتها خطابا مستفيضا لأبى ، دون أن أذكر له شيئا عن حقيقة ماكتبت ، لأوهمه بأننى صاحب هذا الإبداع ، ومن الفتنة نسيت أن أضع فى الخطاب – لا فى أوله ولا فى آخره – التحية المألوفة فى الخطابات التى يرسلها ابن إلى أبيه فأرسل إلىّ يعاتبنى على إهمال تحيته فى الخطاب . ولم يذكر لى شيئا عما ورد فى الصفحات الطوال التى نسختها وبعثت بها إليه .

فتنت بأسلوب الزيات يومها ، فلا هو الأسلوب الذى يفوح بالقدم لما يرد فيه من لفظ غريب وسجع أغرب ، ولا هو الأسلوب الذى يخلو من العناية باختيار اللفظ ويصقل العبارة صقلا يعطيك شيئا من التوازن بين أجزائها ؟ نعم كانت كتب المنفلوطى هى الأخرى أمرا يشبه أن يكون واجب الأداء ، فليس قارئا بين الشباب من لم يقرأ « العبرات » و « النظرات » للمنفلوطى ، ولكن كان شائعا بين هؤلاء الشباب من الكاتبين أن يستخدموا كثيرًا من « لوازم » المنفلوطى فى التعبير ، ولست أقول إنى نجوت من هذه العدوى ، لكننى أقول إننى أضفت إلى ذلك ما لم يضفه كثيرون غيرى ، وهو الإعجاب بأسلوب الزيات إعجابًا تمنيت أن يكون له أثر عندى وصدى .

وكانت « للمطالعات » و « المراجعات » وغيرهما مما أخرجه العقاد فى ذلك الحين أو قبله بقليل ، أثر فى عقولنا أكثر منه أثرًا فى قلوبنا أو فى أسلوبنا ! فعند العقاد وجدنا زادًا فكريًّا غزيرًا ، لقطناه ووعيناه ورددناه فى أحاديثنا إلى حد الإسراف ، فمن ذلك مثلا أننا حين عرفنا فكرة العقاد عن الجمال بأنه هو الحرية ، بمعنى أن الشىء يكون جميلا بمقدار ما يتغلب على القيود وينساب فى

حركة سهلة ، كالنهر الجارى بالقياس إلى الماء الآسن ، وكالبدن الراقص بالقياس إلى البدن الثقيل البطيء ، وكالزهرة الطبيعية التى تشف عما يجرى فى أوراقها من عصارة الحياة بالقياس إلى زهرة شبيهة بها صنعت من ورق وهكذا وهكذا ، أقول إننا حين عرفنا فكرة العقاد هذه فى إرجاعه صفة الجمال فى الشيء إلى ما يكون فى ذلك الشيء من حرية الحركة وعفوية الحياة ، ملكت علينا عقولنا إلى الحد الذى جعلنا — أخى وأنا — حين ذهبنا فى إجازة الصيف إلى الريف ، واعتدنا الجلوس أمام دكان لبقال كان يرحب بأمثالنا من طلبة العلم يجلسون للمناقشة أمام دكانه ، يسمع منهم معجبا وهو صامت ، إلا ذات مرة طرقنا نحن فيها فكرة العقاد فى الجمال ! ففى هذه الحالة لم يستطع البقال الريفى — وكان على شيء يسير جداً من العلم الأزهرى — أن يمسك لسانه بالصمت ، فتدخل فى حديثنا ساخرًا من هذا الكلام الفارغ الذى نقوله أو يقوله العقاد عن الجمال ، ثم زعم لنفسه المعرفة العملية — لا النظرية — بالموضوع ، وهى عنده معرفة ترجح ألف مرة ما ينقله القارئون من الكتب ، فهو كما قال متحمسا — متزوج من أربع زوجات ، ولم يكن للعقاد زوجة واحدة ، فمن حق أمثاله أن تكون لهم كلمة فى طبيعة الجمال أكثر جداً مما يكون ذلك من حق رجل كالعقاد ، أو من حق شباب مثلنا لم يكن لهم بدنيا النساء علم ! قال ذلك جادا ، فلئن كان الرجل عجيبا فى انعراجه بالحديث إلى مالم نكن نعنيه ، فذلك مفهوم من رجل مثله لم يتسع أفقه لأمثال هذه الأفكار النظرية فى علم الجمال ، أقول إن كان هذا الرجل عجيبًا ، فنحن كنا أعجب منه وأغرب ، لأننا قابلنا جده بجد مثله ، وأخذنا بكل الحرارة المشتعلة ندافع أمامه عن فكرة العقاد تلك ، بأن الجمال كائن فى الحرية من القيود والمعوقات مهما يكن نوع الشيء

الجميل ، ومهما تكن ضروب القيد والتعويق .

وكان سلامة موسى داعيًا آخر من دواعى انشغالنا الفكرى فى تلك السنين ، خصوصا حين نشر كتابه عن « الحرية » وكتابه عن « التطور »، وسأقص عليك القصة الآتية : إننى حين قرأت كتاب « حرية الفكر » — وهذا هو عنوان الكتاب كاملا — وجدت فيه قصة الإمام ابن حنبل وماتعرض له من محنة يقشعر لها البدن لما فيها من قسوة فظيعة بالرجل ، لمجرد أنه خالف رأى الخليفة المأمون فى مسألة القرآن : أهو قديم أم حديث مخلوق ؟ فالخليفة يريد للناس أن يقولوا عن القرآن إنه مخلوق ، والإمام أحمد بن حنبل يصر على أنه قديم ، فكان ما كان من تعذيب له حتى يغير رأيه ، لكنه لم يغيره .

لم أكن قبل ذلك سمعت بهذه المشكلة الغريبة ، ولم أفهم شيئاً من هذين المصطلحين « مخلوق » و « قديم » بالنسبة للقرآن ، فانتهزت فرصة فى أول محاضرة فى التاريخ الإسلامى — وكان هو مقررنا فى التاريخ لذلك العام — وسألت الأستاذ المحاضر عن المشكلة وماأصلها وفصلها ؟ وكان الأستاذ قد عاد لتوه من بعثته بانجلترا ، وكنا قد لاحظنا عليه نواحى كثيرة من ضعف الشخصية ومن الخصائص التى تبعث على الاستخفاف به والسخرية منه ، حتى لسرعان ما أصبحت نوادره حديث مجالسنا ، لكن لم يكن لأى شىء من ذلك دخل فى جدية سؤالى . وفى جدية المأخذ الذى توقعت أن أجاب به ، فم كان أشد دهشتى حين ثار الأستاذ ثورة صبيانية ، وأمرنى بالخروج من قاعة الدرس ، وبينما كنا نتجادل فى عنف دق الجرس : فأسرعت لأشكو إلى العميد هذا التصرف من الأستاذ ، وخصوصا وقد قضى بحرمانى من حضور محاضراته إلى آخر العام : فلكم دهشت مرة أخرى حين رأيت الأستاذ يجرى جريًا فى فناء

المدرسة ليصل إلى غرفة العميد قبل أن أصلها ، ودخل هو وأمرت أنا بالانتظار ، حتى إذا ما خرج سُمِحَ لى بالدخول : ولم أبدأ الحديث إلا وقد تلقيت اللعنات والشتائم ، والأمر بألا أحضر محاضرات التاريخ الإسلامى إلى أن يأذن لى الأستاذ بذلك .

وأما طه حسين فقد كان هو الذى ملأ خيالى فى تلك الأعوام ، ليست المسألة هنا متعلقة بالمادة المكتوبة نفسها ، وإلا فلست أظن أن طه حسين بما كان ينشره عندئذ أغزر فكرًا من سواه ، لابل ربما كان العقاد أو سلامة موسى أو الدكتور محمد حسين هيكل أوفر محصولا من محصوله ، لكن المسألة متوقفة على الروح التى يبثها فى النفوس ، ولذلك فقد كان طه حسين دون هؤلاء جميعا هو الذى انشقت له جماعة المثقفين معسكرين : معسكر معه يؤيده ويسانده ومعسكر ضده يعارضه ويحاربه ، ولقد كنت بغير شك من المؤيدين المساندين ، إنك تظلم طه حسين لو وزنت مقداره بوفرة المحصول الفكرى الذى قدمه للناس فى كتبه ، لأنه استمد معظم قيمته من قدرته على تغيير الاتجاه ، إنه لم يكتب ما كتبه لمجرد الرغبة فى الكتابة أو الرغبة فى اكتساب الرزق بل ولا مجرد عرض الأفكار المنقولة أو المبتكرة ، وإنما كان يكتب ليغير وجه الثقافة فى الأمة العربية ، ومن ثم جاءت خطورته ، إنه لم يتحرج ذات يوم أن يقول عن مراكز التقليد الثقافى فى مصر ، التى كانت عقبة كأداء فى سبيل التغير المطلوب ، أقول إنه لم يتحرج ذات يوم من أن يعلن فى الناس عنها ، إنه لابد من هدم قرطاجنة ليستقيم لنا السير .

لست أمدح نفسى ولا أذمها حين أصفها أمينا فأقول : إن لديها استعدادًا قويا – لابد أن تكون له جذوره البعيدة فى طفولة لم تجد فرصتها فى نمو حر

طليق – استعدادًا قويا لتلقف كل فكرة تراها مؤدية إلى تقويض ماهو شائع مقبول ، لتقيم مكانه جديدًا مأمولا ؟ إنني لأتصيد الأفكار التي يثور بها أصحابها على التقاليد المستقرة الراسخة تصيدًا ، وأخرج كلما وقعت منها على شيء يغذى هذا الميل فى نفسى ، فلو كان مجموع الناس على اتفاق بأن الشيء الفلانى صحيح ، ثم ظهر كاتب يقول إنه خطأ لم أجد فى نفسى رادعا يصدنى عن تأييد هذا الكاتب الخارج على الإجماع ، فأنا أؤيد خروجه أولا ، ثم أنظر بعد ذلك فى صدق حجته ، ولكى أنصف نفسى لابد أن أضيف أن هذه الرغبة القوية فى تأييد الخارج على التقليد الشائع ، إنما هى رغبة فى التحطيم حين يكون البناء المراد تحطيمه قد أكله البلى ولم يعد صالحا إلا للعناكب تعشش فى سقوفه وجدرانه ، وللعفن يسرى فى أجوائه فيزكم الأنوف .

لقد كتبت بعد تلك السنوات الأربع التى أضع معالمها الآن على الورق ، أقول إنى كتبت بعدها بأكثر من ربع قرن ، فى مقدمة كتابى عن فلسفة برتراند رسل ، أقول إننى وإن لم أكن تابعا كل التبعية لبرتراند رسل فى فلسفته ، ولا رافضا كل الرفض لها ، إلا أننى مع ذلك أشعر برباط قوى بينه وبينى ، وهو الدفاع الحار الذى ينهض به رسل فى سبيل حرية الفرد من كل طغيان : طغيان التقاليد الاجتماعية وطغيان الحكومات : فإنى لأوشك أن أرى الصدق كل الصدق فى دعوى « رسل » بأن النظم الاجتماعية والسياسية كلها – فى أرجاء العالم أجمع وعلى اختلاف العصور – مؤامرة كبرى يراد بها الحد من حرية الفرد التى كان ينبغى أن تكون هى الأساس وهى المدار لكل نظام فى اجتماع أو سياسة ، وإن شئت فانظر فى أى بلد من بلاد العالم إلى ما يسمونه « التربية » تجدها تسابقا من الهيئات ذوات السلطان للاستيلاء على عقل الناشئ ومشاعره !

واستمع إلى رجال « التربية » يسألون : ما الغاية من التربية ؟ ثم يجيبون : هى إنتاج « المواطن الصالح » — وصلاحية المواطن هى دائما — كما ينبهنا « رسل » — الموافقة على النظم القائمة . ويستحيل عندهم أن يكون معنى « الصلاحية » هو الثورة على تلك النظم ، وإنه لمن عجب — كما يقول رسل — « أنه بينما تستهدف الحكومات جميعا إخراج رجال من طراز يؤيد الأنظمة القائمة . ترى أبطالها من رجال الماضى هم على وجه الدقة رجال من الطراز نفسه الذى تحاول الحكومات أن تمنع ظهوره فى الحاضر »

وكذلك بينى وبين برتراند رسل رباط آخر يقربه من نفسى ، هو تلك الفرحة الكبيرة التى يفرحها كلما استطاع إقامة البرهان على خطأ اعتقاد كان يظنه الناس بديهية لا تحتمل الشك والجدل ، وربما قيل إن مثل هذه النزعة انقلابية هدامة خطيرة ، وإن صاحبها يكون فى شخصيته شبيها بـ « مفستوفوليس » شيطان فاوست ، لكنى أراها برغم ذلك ضرورية لتمهيد الطريق نحو تغير الأوضاع الاجتماعية والأفكار والمعتقدات التى قد تتحجر على مر الزمن ، فيظن الناس أن صلابتها تلك هى صلابة الصواب واستحالة الخطأ ، إن أصحاب هذه النزعة هم دائما بمثابة الفدائيين الذين يتسللون إلى حصون العدو فيمهدون الطريق إلى دكها وتخريبها ، والفرض هنا — بالطبع — هو أن مايراد دكه وتخريبه ومحوه ، بناء فاسد يستوجب التغيير والإصلاح .

وهكذا كان طه حسين فيما كتب يومئذ ، وهكذا كنت حين تابعته بقلبى وبعقلى معا .

٤

وفى تلك السنوات الأربع التى هى فترة الدراسة فى المعلمين العليا ، نشأت مجموعة الأصدقاء التى منها تكون النسيج الاجتماعى الذى لبثت أتحرك بين لحمته وسداه حينا طويلا من الدهر ، فهى المجموعة التى كان يقاس إليها كم حقق أفرادها من النجاح ومن الفشل ، مَنْ من هؤلاء الأفراد كان سابقا ومن كان مسبوقا ، كانت تلك المجموعة الصغيرة التى لم يتجاوز عدد أفرادها عشرة ، هى المناخ الاجتماعى الذى أتنفسه ، فبقدر ما كان فى ذلك المناخ من نقاء استنشقت الصحة ، وبقدر ما كان منها من عكر استنشقت المرض ، كانت من التجانس بحيث لا أغلو إذا قلت إنها إذا اجتمعت فى مكان ، جعلت لنفسها لغة خاصة يفهمها أفرادها ولا يفهمها سواهم ، بما ملئت به تلك اللغة من إشارات مختصرة الى خبرة مشتركة ماضيه ، وأكاد أقرر كذلك بأن كانت لتلك المجموعة نكاتها الخاصة بها تضحك لها وقد لا يضحك لها غيرها

أما وقد مضى على تلك الصحبة ما يقرب من نصف قرن كامل ، فإننى لأتساءل الآن عن الصفة أو الصفات المشتركة التى وحدت بينهم ، ولا أجد الجواب عن هذا التساؤل حاضرًا مُيَسّرًا ؟ فهم بغير شك يختلفون فيما بينهم أبعد اختلاف يفرق بين إنسان وإنسان؟ وليست أهدافهم فى الحياة موحدة ولا متقاربة ، فمنهم من كان هدفه الصعود فى مناصب التعليم ولا زيادة ، ومنهم من كان هدفه تحصيل العلم ومع العلم تحصيل الشهادات الدالة عليه ، ومنهم من كان هدفه جمع المال ، هكذا تفرقت بهم السبل حتى لقد كان بعضهم يسخر من أهداف بعض ، لكنهم مع ذلك كانوا هم الصحبة الحميمة التى لم يكن ليستغنى أحد منهم عن أحد !

ولعل الرباط الوثيق الذى وحد بينهم جميعا ، وجعل بعضهم لبعض رفيقا أقرب رفيق ، هو التواضع الاجتماعى الذى ينطوى بصاحبه على خلصائه ولا يريد أن ينشر أجنحته عراضا على رقعة أوسع ؟ ولقد حدث خلال السنين أن تمرد من تمرد من تلك المجموعة على انطوائها الضيق فأخرجته المجموعة من حسابها أو أخرجها هو من حسابه ، كما حدث خلال السنين كذلك أن أضيف إلى المجموعة من وجد بينه وبينها صلة القربى النفسية على أساس التواضع الاجتماعى الذى يؤدى إلى كثير من الانكماش والتخفى .

ولما كان هذا التواضع والانكماش والتخفى جذورا راسخة فى نفسى - هكذا قال الأحدب ضاغطًا على حروف الكلمات ليؤكدها - فقد كانت تلك الصحبة أنسب مناخ عشت فيه على طبيعتى ، فلم أكن فى تلك المجموعة أقل من حقيقتى ولا أكبر من حقيقتى ، ولئن باعدت بيننا السنون بعد ذلك ، فلست أظنها قد استطاعت أن تمحو ما كان بيننا من صلة نفسية وثيقة ، فيها الازدواجية العاطفية التى لابد من وجودها بين الأصدقاء أو الأقرباء ، وأعنى بها ازدواجية التجاذب والتنافر فى آن معا .

كانت مجموعة من الأصدقاء ، لكن كان بين أفرادها اختلافات بعيدة المدى ، فنهم من كان شديد الاهتمام بالحياة الثقافية - وكنت أنا واحدًا من هؤلاء - ومنهم من لم تكن له بالحياة الثقافية صلة ، كأن تلك الحياة فى واد وحياته هو فى وادٍ آخر ، ولقد حدث لنا نحن الذين مالت بهم الرغبة نحو الحياة الثقافية . أن تنشأ لدينا فكرة الالتحاق بالصحافة نشبع فيها هوايتنا فى أوقات فراغنا ، وكنا بالفعل قد بدأنا نكتب مقالات أدبية فى المجلات الأسبوعية . وهى مجلات كانت تكون يومئذ ركنا هاما من أركان الثقافة : فنها « السياسة

الأسبوعية » التي كانت تصدرها جريدة السياسة المعبرة عن حزب الأحرار الدستوريين (وهم أقرب إلى من نسميهم اليوم بحزب اليمين) كما كان منها « البلاغ الأسبوعي » الذي كانت تصدره جريدة البلاغ الناطقة بلسان حزب الوفد، وهو حزب تقدمي بالنسبة إلى الأحرار الدستوريين.

وكان الأغلب على السياسة الأسبوعية أن تنقل عن الثقافة الفرنسية، كما كان يغلب على البلاغ الأسبوعي أن ينقل من الثقافة الإنجليزية، أو هكذا كان انطباعنا بحكم أن الأولى كانت تنشر لطه حسين. ومحمد حسين هيكل وغيرهما من الذين تلقوا العلم في السوربون، وأن الثانية كانت تنشر للعقاد الذي وإن لم يتلق العلم في إنجلترا، إلا أن مصادره الرئيسية كانت من الأدب الإنجليزي.

بدأنا نحن نكتب المقالات في هاتين الصحيفتين، وأذكر أن أول مقالة كتبتها في حياتي الأدبية كانت تعليقا على الأغاني التي شاعت في ذلك الحين وامتلأت أصواتها – ولا أقول كلماتها لأنها كانت في بعض أجزائها أصواتا بغير كلمات – أقول إن مقالتي الأولى كانت تعليقا على تلك الأغاني التي شاعت في ذلك الحين وامتلأت أصواتها – ولا أقول كلماتها لأنها كانت في بعض أجزائها أصواتا بغير كلمات – أقول إن مقالتي الأولى كانت تعليقا على تلك الأغاني التي امتلأت أصواتها بما يوحي بالدعارة، ونشرت لي تلك المقالة الأولى في السياسة الأسبوعية سنة ١٩٢٧ فيما أذكر.

أقول إننا أحسسنا برغبة قوية في أن نتصل بالصحافة. أنا وأخي ومعنا ثلاثة من مجموعة الأصدقاء ذوي الهواية الأدبية، واتفقنا بادئ الأمر على تكوين جمعية أدبية تنمو مع الزمن، وأقمنا علينا من بيننا رئيسا وسكرتيرا وأمينا للصندوق، أي أنه لم يبق منا إلا عضوان فقط بغير ألقاب، كنت أنا أحدهما،

وقررنا فى أول جلسة من جلساتنا التى كنا نعقدها فى منزل الرئيس ، أن يكون الاشتراك الشهرى عشرة قروش — وهو كل ماكنا نستطيع الاستغناء عنه — كما قررنا أن نبدأ فى تكوين مكتبة للجمعية تنمو هى الأخرى مع الزمن ، وبدأنا بشراء كتاب كان قد صدر حديثا وارتجت له الصحافة الأدبية ، هو كتاب « عصر المأمون » للدكتور فريد الرفاعى ، ثم ماذا؟ ثم حزمنا أمرنا ذات يوم ، وصممنا على أن نعرض أنفسنا للخدمة مجانا فى الصحيفة التى تقبل العرض

وبدأنا بجريدة الأهرام ، ودخلنا نحن الخمسة على رئيس التحرير ، يقودنا رئيسنا ونتبعه فى صف كأننا جماعة من الطلاب جىء بها أمام ناظر المدرسة مشكوة ، ويراد بها التحقيق فالعقاب ، فكان هذا الدخول المتعثر المتخاذل الضعيف كفيلا وحده بأن يوحى إلى رئيس التحرير بالرفض السريع :

— ماذا تريدون ؟

— نحن جمعية أدبية تريد الاشتغال بالصحافة (وكان المتحدث هو الرئيس ، وهو أجرأنا فى توجيه نظره نحو من يحدثه فى غير خجل ، ولا عجب أن كان هو الوحيد من مجموعة الأصدقاء كلها الذى صعد فيما بعد إلى مناصب الوزارة أكثر من مرة ، وعمل فى منصب من أعلى المناصب فى منظمة العمل التابعة لهيئة الأمم المتحدة لفترة دامت عدة سنين) ونحن لا نريد أجرا على عملنا — هكذا مضى رئيسنا فى توجيه الخطاب إلى رئيس التحرير — وكل ما نريده هو أن يؤذن لنا بالاشتراك مع هيئة التحرير ، نطيع ما تؤمر به ، لتكون لنا بذلك فرصة للتدريب حتى إذا ما تخرجنا جعلنا الصحافة مهنتنا عن خبرة ودراية

— فقال رئيس التحرير فى نغمة العطف ، لكنها فى الوقت نفسه نغمة

المستخف بأحلام شباب غر ساذج : أتمنى لكم التوفيق ، لكن يحسن أن تنصرفوا إلى دروسكم ، وأن ترجئوا هذا الحديث إلى ما بعد التخرج .

— أجاب رئيسنا : ولكننا لو تركنا أمورنا تجرى مجراها الطبيعى ، فقد يجرفنا التيار ، ونشتغل بالتدريس الذى نُعَدّ من أجله ، مع أننا ذوو ميول أدبية واضحة ، وربما ضاعت هذه الميول إذا نحن وأدناها فى براعمها .

— فأجاب رئيس التحرير بلهجة حاسمة : لا ، لا ، معاذ الله أن تفهم منى أننى أدعوكم إلى إهمال مواهبكم العظيمة ، لكن صحيفة الأهرام تعتذر لأنها لا تستطيع قبول ما تعرضونه عليها .

وخرجنا من عنده صفا متعثرا متخاذلا ضعيفا كما دخلنا ، وكل ما هنالك من فرق بين الحالتين ، هو أن رئيسنا هذه المرة كان فى مؤخرة القافلة ، وما كدنا نخرج من دار الأهرام إلى الطريق ، حتى وقفنا قليلا إلى جوار الجدار ، ونظر بعضنا إلى بعض ثم انفجرنا ضاحكين ، إلا الرئيس فلم يضحك ، بل قال فى عزم : هلموا إلى صحيفة أخرى ، تعالوا نذهب إلى جريدة السياسة .

وتبعناه إلى جريدة السياسة فى شارع المبتديان ، وطلبنا مقابلة رئيس التحرير ، فلم يكن فى مكتبه ذلك المساء ، ولكن أمرًا حدث لم نكن نتوقعه ، وذلك أن الدكتور حافظ عفيفى أرسل إلينا من يستوقفنا ونحن نهبط السلم خارجين ، وعدنا لنجده يستقبلنا استقبال الرائد للمسترشد ؟ وأمر ففتحت لنا الغرفة المقابلة لغرفة رئيس التحرير ، ودخلناها لنجدها صالونا فاخرًا فرش كله بالقطيفة الحمراء : بساط وستائر وكراسىّ وأرائك ، وجلسنا على أطراف المقاعد ، وجلس أمامنا حافظ عفيفى ، فقال فى صوت هادئ :

— ماذا تريدون ؟

– فأجاب رئيسنا : نحن جماعة أدبية ... إلى آخر القصة .

– قال حافظ عفيفى بصوته الهادئ : الدكتور هيكل غائب هذه الليلة ، وسأرتب معه لقاء بكم ، لكنى أحب أن أوجهكم منذ الآن بنصيحة : إن جريدة السياسة – كما أرجح – ستقبل تدريبكم كما تريدون ، لكن فلتعلموا منذ الآن أن الصحافة لم تعد كلاما يستقطع من رءوس الكتّاب بغير اطلاع ولا دراسة : فمهما يكن الموضوع الذى قد يرد على خواطركم لتكتبوا فيه ، فسوف تجدونه موضوعا قد سبقكم إلى الكتابة فيه من هو أعلم منكم وأوفى بحثا ودراسة ، وإذن ، فالنصيحة الواحدة التى سأكتفى بها الآن هو : ألا كتابة بغير درس وقراءة تسبقها .

شكرناه على عطفه الأبوى ، وانصرفنا على أن نعود فى مثل هذا الوقت من الليلة التالية ، ففعلنا ، وكان الدكتور هيكل عندئذ فى مكتبه ، وكان قد سمع بأمرنا ، فلم يسأل : ماذا تريدون ؟ لأنه يعلم ما نريد ، بل أخذ يوزعنا من فوره على أقسام الجريدة : فاذهب أنت إلى فلان فى القسم الفلانى ، واذهب أنت إلى فلان فى الغرفة الفلانية ، واذهب أنت إلى مصححى التجارب فى المكان الفلانى ... ثم أردف يقول : إن أماكنكم هذه ستتبدل مرة كل أسبوعين.

لكن الأسبوعين الأولين لم ينقضيا ، حتى دعانا الدكتور هيكل لتناول الشاى ذات مساء فى داره – وكانت عندئذ شقة من عمارة فى جاردن سيتى – وقولوا ماشئتم عن مشاعر الغبطة التى ملأتنا ، وذهبنا فى الموعد لنستوى بعد قليل إلى مائدة مثقلة بأصناف الفطائر والفاكهة إلى جانب الشاى ، وبدأ الدكتور هيكل حديثه معنا قائلا :

– لقد فكرت فى أفضل طريقة يستفاد بها من ميولكم الأدبية . فوجدت

أن تعاونونى على إخراج كتيبات صغيرة تباع مع الصحف بأثمان رخيصة ، كل كتيب منها يبسط موضوعا مما يتصل بتاريخنا وأدبنا ، وبخاصة القديم منهما ، حتى نذيع أصولنا الثقافية فى أوسع دائرة ممكنة ، وسأخصص لكل منكم موضوعا ، يجمع لى ما استطاع جمعه من مادة فيه ومهمتى أنا هى الإخراج والخلق والصياغة ، فما رأيكم ؟

— رأينا هو ماترى .

وأذكر أن نصيبى فى هذا التوزيع كان موضوع « سميراميس » كما ورد فى الأساطير ، وبعد عدة أسابيع من تجميع للمادة والتقاء مع الدكتور هيكل كلما تجمع لدينا من المادة ما يستحق العرض ، صدر الكتيب الأول ، ولا أذكر ماذا كان موضوعه .

وبيع عند باعة الصحف . وكان أول همنا نحن أن نسرع لنرى كيف ورد ذكرنا فى هذا المشروع ، وأظن — لأنى قد نسيت — أننا لم نذكر بالإسم ، بل وردت فى المقدمة عبارة تنوه بجماعة من الطلاب يعاونون فى جمع المادة من المراجع ؟ ولا أدرى إن كان شعورنا بخيبة الأمل ، أو كان اقتراب موعد الامتحان فى آخر العام الدراسى . هو الذى حتم علينا أن ننفض أيدينا ، وبذلك انتهى الأمر مؤقتا — وأعنى أن ذلك المشروع المعين قد أخفق لساعته — وأما النشر الأدبى فى الصحف فقد لبث قائما فى صدرى . حتى ألح علىّ آخر الأمر فجعلته مدار عملى .

فرغ الأحدب من هذه الرواية الطويلة ، وكأنما أحس بشىء من التعب ، فأسند ظهره إلى مقعده ، ونظر إلّى نظرة تكاد تسألنى : ماذا تريد منى بعد ذلك ؟

— سألته : وماذا جرى للجمعية الأدبية بعدئذ ؟

— فقال : مات أمين الصندوق بعد بدء تكوينها بشهور قليلة . وانقطع بموته دفع الاشتراك ، وأصبحت كما كانت فى البداية مجموعة أفراد أصدقاء ، ضمن المجموعة الأشمل ، يلتقون حيثما تيسر لهم اللقاء : وأما المكتبة التى أردنا تكوينها . فلم يدخلها إلا كتاب واحد ، هو « عصر المأمون » ولا أدرى إلى أينا ذهب ؟ .

وبابتسامة خفيفة على شفتيه ، استأنف الأحدب حديثه عن جماعة الأصدقاء فى تلك السنوات الأربع من حياته :

— قال : لا تنس ما قلته لك ، وهو أن تلك الجمعية الأدبية لم تكن تمثل بميولها الثقافية مجموعة الأصدقاء التى تحدثت عنها ، فمن تلك المجموعة من كاد لا يعرف من معارف الدنيا حرفا أكثر مما ورد فى مذكراته التى يحفظها للامتحان : ومنهم من كان أقرب فى ميوله إلى الفجور الذى لا يستحى ، ومنهم من كان يؤثر الخفاء فى وسائل متعته ، لكن جميعنا كان يحب النكتة والمرح وحلقات السمر ، والحقيقة أن تنوع ميولنا ذاك هو الذى ربط أطرافنا فى مجموعة متجاذبة ، لأن كلا منا كان لابد واجدا ما يشبع فطرته بكل أبعادها داخل تلك المجموعة النادرة من الأصدقاء .

ففضلا عما كان بين أفرادها من رباط مشترك ، هو كما قلت لك التواضع الاجتماعى ، ممزوجا بكثير جدًّا من الفكاهة والمرح ، حتى لقد كانوا يجعلون من أنفسهم موضوعا لفكاهتهم بل موضوعا لسخريتهم أحيانا ، أقول إنه فضلا عن تلك الصفات المشتركة بينهم ، فقد كانت بينهم بعد ذلك فوارق شاسعة كما ذكرت لك ، هذه التشكيلة العجيبة هى التى تكون منها المحيط البشرى المباشر

الذى هو بمثابة المجتمع بكل ما يعطيه لأبنائه من حوافز ومن معوقات .

فقد كانت تلك السنوات الأربع (١٩٢٦ - ١٩٣٠) هى البوتقة الحقيقية التى صهرتنا بخيرها وبشرها ، وهى التى شكلتنا فيما نحن فيه ، فنى تلك الفترة تجسدت لكل منا مثله العليا التى يريد احتذاءها ، وقد كان مثلى الأعلى يومئذ مزيجا من عدة عناصر ، قد يسهل التقاؤها معا وقد يصعب ، فهو مثل أعلى فيه جانب الأستاذ الأكاديمى المتمكن من مادته ، وهو جانب انطبع فى قرارة نفسى انعكاسا لشخصية أستاذ التاريخ الحديث شفيق غربال ، وفيه جانب الأديب صاحب الصوت المسموع والمواقف الثقافية الحاسمة ، كما طبعنى به الدكتور طه حسين . وفيه جانب الأديب المفكر المكافح الذى يدفعه الفهم العقلى إلى سكب ثقافات الأولين والآخرين - إذا استطاع - فى ذات نفسه ، كما كانت صورة العقاد عندى أيامها ... فهل كان يسهل لهذه الجوانب كلها أن تجتمع فى شخص واحد ولو بمقادير متواضعة ، شريطة أن تجتمع عند من يغلب عليه التواضع الاجتماعى . كما تغلب عليه الرغبة الشديدة فى الانعزال والتخفى ؟ لست أدرى : لكن الذى أدريه هو أننى وجدت عسرًا شديدًا فى محاولة جمع هذه العناصر معا ، فكنت إذا حصلت شيئا من جانب الأستاذ ، أفلت منى جانب الأديب ، وإذا تحقق لى جانب الأديب ضاع منى عنصر الأستاذ ، وإذا تحقق لى شىء من هذا وذاك وجدت نفسى أقف على الطريق جامدا لا أتحرك فى دنيا الناس خطوة إلى أمام

فهل عرفت ياصديقى سر الشعور بالخذلان الذى أعانى منه حتى ظهرت آثاره على بدنى ؟ لقد رأيتك تسعى لاهثا لكشف السر ، ولعلى قد أرحتك فى كثير مما أردت أن تكشف عنه الستار .

الفصل الخامس

حلم ليلة فى منتصف الصيف

١

انقطعت صلتى بالأحدب لبضعة أسابيع : ولم تكن نفسى قد اطمأنت — كما ظن هو — بما رواه لى عن نفسه خلال الأعوام الأربعة التى قضاها فى الدراسة العليا ، لأن ما رواه لى لم يكن فيه ما يكفى لكشف السر كله وراء حياته الانفعالية بما سببته له من علل

ثم أسعفتنى مصادفة سعيدة : أخذت القطار إلى الإسكندرية ذات صباح من صيف ، وجلست فى مقعدى الذى أختاره لنفسى دائمًا ما وجدت إلى اختياره من سبيل ، لأنه مقعد فردانى من جهة ، ويتجه الجالس عليه مع سير القطار من جهة أخرى ، وفضلا عن ذلك فهو يواجه مقعدين يغلب أن يشغلها زميلان فيتحدثان . فأتسلى باستراق السمع لما يقولان من جهة ثالثة .

ولم أكد أنشر صحيفة الصباح بين يدى قبل أن يتحرك القطار ، حتى فوجئت بما لم أكن أتوقع حدوثه ، وهو أن يكون شاغلا المقعدين اللذين يواجهان مقعدى هما صديق القديم فريد — صديق الشباب — وزوجته عفاف : وكنت لم أرها ، ولم أسمع عنهما ، منذ أمد طويل : فاضطربت لرؤيتهما ، لأن اللقاء مباغت : فأسقطت عند قيامى لأسلم عليهما ، حقيبة صغيرة كان يرفعها

فريد ليضعها على الرف ، ولبث ثلاثتنا يتحركون ويتكلمون فى غير هدوء ولا انسجام . حتى لقد سددنا الطريق على المارة من المسافرين : وأخيرًا استوينا على مقاعدنا ، لا ندرى أين نبدأ الحديث ولا كيف نبدؤه بعد هذا الغياب الطويل ، الذى باعد بيننا بعد أن كان اجتماعنا المطرد المتكرر جزءًا لا يتجزأ من حياتنا وقد كنا نأنس أحدنا بالآخر أنسا ، حتى ليقصد أحدنا إلى الآخر فى كل صغيرة أو كبيرة من أحداث حياته ، يطلعه على خفايا نفسه وأزماتها ، وعلى مشكلاته التى تنشأ فى علاقاته مع سائر أفراد أسرته ، أو مع أحد من بقية الأصدقاء .

كنت أحس دائمًا – إذا ما تحدثت إلى فريد – كأننى أحدث نفسى ، لا أكتم سرًّا ولا أدّعى غير الحق : فلا أتظاهر بثراء لا وجود له ، ولا بفقر أبشع من الفقر الذى كنت فيه ، وذلك كله على الرغم من أن بين شخصيتينا خلافا جوهريًّا : فهو يعلى العمل على الفكرة ، وأنا أعلى الفكرة على العمل ، وهو يضحك من قلبه وأنا أضحك من وراء قلبى ، وهو يحب الناس لأشخاصهم لا لآرائهم ، وأنا أحب الناس لآرائهم لا لأشخاصهم ، ولذلك فهو محدود فى صداقاته بالناس الحقيقيين الذين يملأون عليه حياته ، وأما أنا فصداقاتى قد امتدت إلى المؤلفين وإلى الشخصيات الوهمية التى تحيا على صفحات القصص والمسرحيات ، هو يريد من صديقه أن يبادله النكات وهما يشربان أقداح الشاى التى كان يصنعها بنفسه ، لا يركن فى صنعها إلى أحد سواه ، وأنا أريد من صديق أن يجادلنى فى فكرة أو فى مذهب نظرى ؟ هو لا يميل إلى القراءة ويكره الكتابة كراهية شديدة – ولعله كان يستطيعها إذا أراد – وأنا أميل إليهما معا ، وفوق هذا وهذا وذاك من بذور التباين بين الشخصيتين ، أنه كان يبحث عن

شريكة حياته بعد تخرجنا بقليل . لأنه لم يتصور حياته بغير زوجة وأبناء ، وكان مدار بحثه عن الزوجة أن تكون من ذوات الثراء ، وأما أنا فقد كانت فكرة الزواج عندى أمرًا لا يردُ على التصور ، كما لا ترد فكرة الدائرة المربعة ، إذ لم يكن التضاد بين نفسى وبين هذه الفكرة أقل من التضاد بين التدوير والتربيع .

وكان صديقى فريد أثناء بحثه عن زوجة تناسبه ، لا يفوته أن يجعل من البحث موضوع فكاهة نضحك لها كلما اجتمعنا ، فقد كان أمس يزور أسرة ليرى فتاة مقترحة له ، فيجىء اليوم ليروى لنا مادار بينه وبين والديها ، أو مادار بينه وبينها من أحاديث ، فنجد فى روايته مواضع كثيرة تثير الضحك إذا ماكانت الأسرة المقصودة أعلى مما ينبغى أو أخفض مما ينبغى ، ففى كلتا الحالتين نضحك على مفارقات الموقف : فى الأولى يتظاهر بما ليس فيه ، وفى الثانية يتظاهرون هم بما ليس فيهم .

تخرجنا — أنا وفريد وسائر الأصدقاء — فى سنة جفت فيها الضروع ويبست موارد الرزق ، لا فى مصر وحدها بل فى أرجاء العالم أجمع ، غنيه وفقيره على السواء ، فنحن نعيش فى عالم إذا انهارت به سوق المال فى نيويورك ، تداعت لها الأسواق فى لندن والقاهرة وطوكيو ! قد يقع تجار المال هناك فى خطأ ، فينتج عن الخطأ ألا نجد نحن الشباب فى القاهرة وظيفة واحدة خالية ! هكذا كانت الحال حين تخرجنا : أزمة اقتصادية طحنت الدنيا طحنًا ، لكنها طحنتها بمعنى يختلف عن أفاعيل أزمة اليوم ، فاليوم تمتلئ أيدينا بالمال ولا نقوى على الشراء ، وأما يومها فقد تبخر المال كما يتبخر الماء فى حارة القيظ ، وأصبح معلم المدرسة الإلزامية فى قرى الريف ، بجنيهاته الأربعة التى كانت راتبه الشهرى يومئذ . أيسر حياة وأكثر بحبوحة من مالك الثلاثين فدانا من الأرض أو الأربعين ، ولذلك

كان من الحوادث المألوفة أن يبيع أصحاب الأرض أرضهم ، فيشتريها أصحاب الجنيهات الأربعة .

فى ذلك العام المقفر تخرجنا فكنا كالسلعة البائرة تشترى بالثمن القليل ، كان الفرض هو أن نخرج للتدريس فى مدارس الدولة ، فإذا الدولة تصدر أوامرها — علينا وعلى كل بائس تخرج فى ذلك العالم — بألا تفتح أبواب الحكومة لعامل واحد جديد ، فانتشرنا فى الأرض نسعى : المدارس غير الحكومية تشترى بعضنا بأبخس الأجور ، ومدارس الريف التى لم تكن تطمع فى رجل واحد يحمل إجازة عليا ، باتت تتلق حملة الإجازات العليا ساعين إليها والعرق يتصبب على جباههم فتنتق منهم مدارس الريف وتختار ، والأعمال التى ألفت أن تؤدى بأيدى كتبة صغار ، قصد إليها القاصدون من هؤلاء الكبار أو الذين ظنوا أنهم قد أصبحوا كبارا ، وفى هذه السوق الكاسدة وجدت أنا ركنا فى الريف ، ووجد صديق عملا صغيرًا فى دار الكتب بالقاهرة .

وكانت دار الكتب فى القاهرة مزارًا أتردد عليه مرارًا متلاحقة منذ أيام الدراسة ، فازدادت جاذبية بوجود صديق بين العاملين فيها ، ولقد كان ييسر لى ما كان عسيرًا ، فهنالك من الكتب مالايعار إما لنفاسته وإما لخساسته ، فكان يجيئ لى ما كنت أريده من الصنفين ! وقد تفهم ألا يعار الكتاب لنفاسته خوفًا عليه من الضياع ، ولكن ما هى تلك الكتب التى تخس فلا تعار ؟ أأقولها ؟ نعم قلها ، فهى « نفس » وأنت فى رواية لقصتها فما خفى من سرها قد يكون أهم مما ظهر من علنها ، فهنالك كتب من أفحش الكتب عن الجنس ، عرفها صديق وعرفنى بها وأعاننى على استعارتها خفية لأنقل مادتها كما أريد ، ولم يكن هنالك ما يمنع أن هذا الذى يستعير الفحش سرا ، هو نفسه الذى يستعير كتب أفلاطون

أو أرسطو علنًا ، ويأما أكثر ماتحويه النفس البشرية من عجائب ومتناقضات !

كنت أقول عن صديقي فريد إنه أخذ يبحث عن الزوجة الملائمة بعد تخرجنا بقليل ، وكانت روحه المرحة تجعل من بحثه ذاك موضوعا نتفكه به جميعا إذا ما التقينا ، ولكن هذا الهزل كله لم يلبث أن انتهى معه بجد الزواج نفسه . وكانت الزوجة هي عفاف ، ولقد كان الزوجان منذ تزوجا على بعد نفسي بعض الشيء أحدهما من الآخر : فهي تُدِلُّ عليه بفرق في الثراء بين أسرتها وأسرته ، وهو يتعاظم عليها بفرق كبير بين ثقافته وثقافتها ، فهي فتاة وقف تعليمها في مدرسة فرنسية عند مرحلة أولية ، ولكنها مع ذلك كانت من ذلك الصنف الذي يضع ألفاظا فرنسية في حديثه ، حتى مع من كانت تعلم أنهم لا يعرفون من الفرنسية كلمة واحدة ؟ وكان محالا عليها ألا تدع بعض الإشارات تتساقط في كلامها أو في سلوكها ، لتَدُلّ بها على أنها ليست كسائر النساء اللائي تلتقي بهن في زمرة أصدقاء زوجها وأقاربه .

أخذنا نتبادل الأخبار عن الأحداث التي لابد أن تكون قد حدثت خلال السنوات الطويلة التي باعدت بيني وبين فريد ، وفجأة سكت الكلام ، وأردت أن أملأ فجوة السكوت ، فقلت بلا مقدمات : إن مسألة غريبة تشغلني بسبب لا أدريه ، فلأمر ما شغلت برجل عجيب قابلته صدفة لكنه أثار اهتمامي الشديد بغرابة سلوكه وعمق لفتاته الفكرية ، وبشذوذه عن المألوف في أشياء كثيرة : ويستحيل عليك أن تخطئه إذا ما رأيته وسط زحام الناس في الطريق ، لأنه فريد ...

— فقاطعتني عفاف قائلة وهي تضحك في نشوة طبيعية : صدقت ، إنه شاذ وهو فريد (مشيرة إلى اسم زوجها) .

— فقلت : لا ، لست أقصد فريدنا هذا ، فصاحبنا الشاذ ذاك اسمه رياض عطا

— قال فريد فى اهتمام ظاهر عليه وعلى زوجته معا : رياض عطا المدرس ؟

— قلت : لا أعلم ماذا يعمل ، لم أجرؤ على سؤاله ، بل إن اسمه نفسه لم أعرفه إلا بمصادفة عابرة ، كل ما عرفته منه فيما يتصل بعمله هو أنه تخرج من مدرسة المعلمين العليا ، لأنه قصّ على طرفا من حياته فيها .

— قال فريد : أهو أحدب الظهر قليلا ؟

— قلت : إنه أحدب الظهر كثيرا لا قليلا .

— قال : لابد أن يكون هو رياض عطا الذى تعنيه .

— قلت : حدثنى عنه ما استطعت .

— قال ، وكان قوله التقاء أسماعنا . حتى لقد مالت رءوسنا الثلاثة فى وضع يجعل منها مجموعة تصلح لرسم لوحة يطلق عليها اسم « الرواية » — قال :

٣

روى لى صديق كان مدرسا بمدرسة أجا الابتدائية ،

قال : جاءنا مدرس جديد للغة الإنجليزية فلفت إليه الأنظار فور مجيئه ، ولم تكن الأنظار لتلتفت إليه بكل قوتها كما فعلت لو كانت كل غرابته محصورة فى تشويه ظهره بالقتب الذى يقوّسه بعض الشيء ، ولكن ماوجّه إليه انتباهنا وانتباه الناس جميعا ، هو مسلكه فى حياته الخاصة ، الذى جعل منه إنسانا متميزًا متفردًا ، فقد كان يلبس منظارًا ذا عدسة واحدة يضعها على عينه اليسرى ، بغير إطار يحيط بها ، وفى العدسة خيط أسود يمتد حتى يدور حول

عنقه، وهى طريقة لم يكن أحد منا قد ألفها فيا شاهد فوق أعين الناس من مناظير، وقد حسبنا أول الأمر أن عينه اليمنى قد تحررت من المنظار لقوة إبصارها، لكننا عرفنا فيا بعد أنها عين لا رجاء فيها لأنها لا تبصر، فآثر صاحبنا أن يقصر منظاره على العين الواحدة التى ترى، فلم يكن عجيبا أن أسماه بعضنا بأبى نظارة، على الرغم من أن كثيرين غيره كانوا ممن يستخدمون المناظير.

سكن دارًا وحده، وكانت العادة بيننا أن يشترك أكثر من واحد فى دار، ولبث أشهرًا طويلة لا نكاد نسمع صوته محدّثًا إلا وهو يلقى دروسه على التلاميذ، وهى دروس كان ينطق فيها كلمات اللغة الإنجليزية وجملها بلسان غير عربى يحاول به أن يقلد أصحاب اللغة التى يعلمها، فزاد هذا فى غرابته، كأنما غرابته هذه كانت تتبدى إذا أخطأ السلوك وإذا أصاب، لأنه فى كلتا الحالين كان ينحرف عن المألوف، وندخل حجرات الدراسة بعده لنرى ماذا كان يصنع لعلنا نقع على أشياء جديدة فيه نجعلها مدار التعليق، فنرى السبورة مزدانة بالطباشير الملون هنا وهناك، فكلمات يكتبها باللون الأحمر وأخرى يكتبها باللون الأزرق، فضلا عن اللون الأبيض، بل نراه يكتب الكلمة الواحدة بعدة ألوان فنضحك ونخرج لننشر الخبر بين سائر الزملاء.

يدخل المدرسة صامتا ويخرج منها صامتا، ولعل صمته لم يبلغ حده الأقصى مرة كما بلغه ذات مساء، حين سمعَ فى حجرة المدرسين نبأ تدور به الألسنة بأن مدرسا جديدا للغة العربية سيصل إلى المدينة فى المساء، فأين عساه ينزل يا ترى؟ ومن ذا سيقابله فى المحطة ليؤويه فى هذا البلد، سمع هذا فلم ينطق بكلمة، لكن – فيا علمنا بعدئذ – ذهب إلى المحطة فى المساء، خشية ألا يقابل المدرس القادم أحدًا فتأخذه الحيرة كما حدث للأحدب نفسه ليلة وصوله، فلما لم

يجد أحد هناك سواه ، صمم على أن يضطلع بهذا الواجب ، وأمعن النظر فيمن نزلوا من القطار ، حتى اهتدى بالسليقة إلى شاب نزل ومعه حقيبة وسلّتان ، وضعها أمامه وراح يتلفّت ، فاقترب منه الأحدب وسأله إن كان هو المدرس الجديد ؟ ولما علم من جوابه أنه هو ، سأله إن كان له مكان يبيت فيه ؟ وعلم أن لا مكان ، فدعاه إلى المبيت معه في منزله حتى يدبر أمره في الصباح ، وعاونه على حمل أمتعته ، وذهب كلاهما إلى الدار ، ولم يكن بها إلا سرير واحد ، فأنزل صاحبنا الأحدب اللحاف وفرشه على الأرض ورقد ، تاركا السرير للضيف .

كل هذا جميل ، ولكن القبيح في الأمر هو أنه منذ قبل الضيف دعوته وهما في المحطة ، ختم الأحدب على شفتيه بخاتم الصمت فلم ينطق بكلمة واحدة إلى ضيفه هذا الذى تبرع بمقابلته وبدعوته ، ففي صمت تام سارا ، وفي صمت تامّ دخلا الدار ، وفي صمت تامّ أعدّ الأحدب فراشه على الأرض ، وفي صمت تام قضى الليل ، وفي صمت تام استيقظ في الصباح وأعدّ لضيفه الفطور ، وارتدى ثيابه وخرج ، وترك وراءه الضيف الغريب لا يدرى ماذا يصنع بنفسه ، حتى شهدناه وهو يلتقى بالأحدب في بهو المدرسة ليسلمه مفتاح منزله شاكرا ، ولقد روى لنا المدرس الجديد قصته هذه وهو في عجب شديد من هذا المضيف الذى تطوع بالفضل ، ثم سلك هذا السلوك الشاذ كأنما قد أحسّ بالندم على الفضل الذى تطوع بأدائه مختارًا ، وقل ماشئت فيما أحدثته هذه القصة من دويّ في مجالسنا الخاصة ، لأنها جاءت آية جديدة تفسّر غوامض هذا الرجل الفريد ، فهو يؤدى الواجب أداء كاملا ، ثم ينسحب مختفيا عن الأنظار والأسماع .

الفردية هي طابع هذا الرجل ، فهو لا يطمئن نفسا إلا إذا تفرد واختلف عن غيره قليلا أو كثيرا ، فقد حدث لنا ونحن ما نزال ندرس في المدرسة الابتدائية بمدينة أجا ، أن زار البلد رئيس الوزراء ، واستعدت الحكومة المحلية في المدينة بألوان من الترحيب مما يطوف بالخيال وما لا يطوف ، ومن ذلك أن أعدّ سرادق فسيح ليحتشد فيه الناس حشدًا كي يخطب فيهم القادم الكبير ، وكان رئيس الوزراء عندئذ حاكما مستبدا ظفر بمنصبه كرها وغصبا ، وكان على الموظفين جميعا ، وعلى المدرسين بصفة خاصة ، أن يذهبوا ليُرصُّوا على المقاعد مع سائر من يُرصّ من أبناء الإقليم ، وذهبنا جماعة واحدة كما أمرنا أن نذهب ، كأنما نحن قطيع من الغنم يسوقه الراعي مجتمعا حتى لا تشرد منه غنمة فتضلّ الطريق — ذهبنا جماعة واحدة إلى السرادق ، ومعنا الأحدب بنظارته ذات العدسة الواحدة على عينه اليسرى ، وكان مقدرًا للمدرسين أن يجلسوا في صفوف خلفية ، وفعلوا كما أمروا إلا صاحبنا الأحدب فقد نفّر كالقط المفترس ، وفي خطوات فسيحة مندفعة قصد إلى الصف الأول في السرادق حيث اتخذ مجلسه ، فلما أن نبهه المنظمون أن ليس هذا موضعه رفض حتى أن يلتفت إليهم بنظره أو أن يجيب ، فحدثت حركة ملحوظة بين جماعة المنظمين ومعظمهم من ضباط الشرطة ، حتى جاءوا له برئيسهم ، فلم يعرف هذا إلا أن يخيره بين أمرين فإما أن يجلس حيث يجلس زملاؤه ، وإما أن يأمر رجاله فيقذفوا به في الطريق ، وهنا أخرج له الأحدب تذكرة الدعوة من جيبه ، وقال : إنه تلقى هذه الدعوة فجاء ملبيا ، ولم يكن بالدعوة مايدل على مكان معين للجلوس ، ولذلك فهو مصرٌّ على البقاء حيث هو ، وليفعل صاحب الشرطة ما يشاء ، فإن قذف به في الطريق كما توعده ، فقد خدمه بذلك خدمة سيشكره عليها ، لأنه

ترك مسرحية « حلم ليلة فى منتصف الصيف » مقروءة إلى نصفها ولأنْ يُتمَّها خيرٌ له من أن يسمع ماجىء به ليسمعه ، فاستشاط الضابط غضبًا وصمم أن يعلمه درسا ، بادئا بأن نفذ ماقد توعد به ، وأمر رجاله أن احملوه وارموا به خارج السرادق ، لكن رجاله لم يجدوا من يحملونه ، لأن صاحبنا الأحدب ترك مكانه وخرج ، ولا أدرى هل أصابه بعد ذلك سوء أو لم يصبه .

تفرد عجيب فى هذا الرجل كما وصفه لى صديق الذى أنقل عنه روايته

— هكذا استطرد فريد فى روايته ، ومضى يقول :

كان بين أخباره التى رواها لى صديق عن الأحدب . أن ناظر المدرسة قد استدعاه يوما ليحدثه فى أمر ابنه التلميذ ، وكان ذلك الناظر موضع استخفاف من المدرسين لتفاهته وجهله ، فلما أن ذهب إليه الأحدب شكا إليه الناظر ضعف ابنه فى اللغة الإنجليزية ضعفًا يلفت النظر ، لأنه عاجز عجزًا تاما عن أن يكتب كلمة واحدة صحيحة الحروف ، فهلا تولاه الأحدب بعناية خاصة ؟

— قال الأحدب : وماذا تريدنى أن أصنع لابنك هذا ؟

— قال الناظر : تُعوِّده على كتابة الإملاء ، وأنت الرجل « الفنى » القدير وأنت تعرف — هكذا وجه فريد الكلام إلىّ قاطعا بذلك مجرى روايته — أنت تعرف أن مدارس الريف لم تكن قبل ذلك قد شهدت المدرسين ذوى المؤهلات العليا ، إذ كان المعلمون فيها يؤخذون من كل صنف ، ويكفى فيهم أنهم يقرأون ويكتبون ويلمون بمبادئ الحساب ، قال فريد هذه الملاحظة العابرة ، ثم عاد إلى روايته ، وكانت قد وقفت عند الحوار الذى دار بين الأحدب وناظر المدرسة :

— قال الأحدب وكأنه يمزح : علاج ابنك هو أن يلعب البنج بونج

– فأجاب الناظر فى دهشة : يلعب البنج بونج ليصلح أخطاءه فى الإملاء ؟!

– قال الأحدب : نعم .

– قال الناظر ساخرًا : وكيف كان ذلك يامولانا ؟

– أجاب الأحدب فى شىء من التعالى وكأنه أراد أن يذكره بالفرق بينه وبينه : إن ابنك حين تطلب إليه هجاء كلمة ، تهجاها صحيحة ، فإذا كتب أخطأ ، وإذن فالضعف هو فى العلاقة بين المخ وحركة اليد ، وقد تنضبط هذه العلاقة بلعبة توثق الصلة بين مركز إصدار الأمر فى مراكز المخ وأداة التنفيذ الحركى فى الذراع واليد .

فبهت الرجل لهذا « الفن » التربوى العجيب : ودارت الرواية فى المدرسة كلها . وأصبحت من النوادر التى تروى .

ولقد أثار ذلك الأحدب ضجة حوله كادت تودى به فى أول اشتغاله بالتدريس ، وقصة ذلك أنه كان يكتب مقالات كثيرة فى مجلة أدبية كانت صدرت حديثا فى تلك الأيام ، ولم يكن زملاؤه يتتبعون مايكتبه إلا عن طريق الإشاعة ، حتى فوجئت المدرسة ذات يوم بخطاب من مدير التعليم فى الإقليم ، يطلب من ناظر المدرسة أن يحقق معه فى شكوى رُفعت إليه من شيخ أزهرى فى المدينة ، كان يعرف باسم « الدكتور غراب » وكان الشيخ قد أرفق بالشكوى عددا من المجلة فيه مقالة للأستاذ رياض عطا هذا ، وقد ورد فى المقال رأى عن أحد الفلاسفة بأن الله لم يكتمل وجوده بعد . ولكنه فى طريق التكوين ، وأنه ليس الصواب هو أن نقول إن الله قد كان ، بل الصواب هو أن نقول إنه سيكون ، لأن ذلك الفيلسوف المنقول عنه نصير لمذهب التطور على طريقته هو

الخاصة ، ولا يكون للتطور معنى إلا إذا كان الكمال هو الغاية وليس هو البداية ، وكلام كثير من هذا القبيل ، فطلب المدير فى خطابه أن يُسأل هذا المدرس إذا كان يقول كلاما كهذا للتلاميذ ؟.

وقد ارتعد ناظر المدرسة لهول الواقعة ، ففى مدرسته مدرس ملحد وهو لا يعلم ! وأما الأستاذ عطا فقد كان ثابت الجنان ولم يزد فى التحقيق على قوله : إن ناقل الكفر ليس بكافر ، وأنه من البديهى أنه لا يقول كلاما كهذا أمام تلاميذ مدرسة ابتدائية ، وأرسلت إجاباته إلى المدير ، الذى أحال الأمر كله بدوره إلى القاضى الشرعى فى مديرية الدقهلية ، فأفتى بأن ليس على هذا المدرس لوم مادام قد اعترف بأنه لا يأخذ بمثل هذا الرأى الذى ينقله ، وبأنه لا يتحدث فى موضوعات كهذه أمام التلاميذ .

لكن المسألة وإن تكن قد انتهى أمرها من حيث الإدارة والتحقيق ، إلا أن نبأها سرعان ما انتشر فى المدينة حتى على أفواه عامة الناس ، وأخذوا يروون إشاعات من خلق أوهامهم ، يصفون بها كيف أن الله يرسل لهذا الملحد نذره ليستقيم بعد ضلال ، من ذلك أنه كان يسير ذات يوم فى شارع السوق والهواء عاصف ، فسقطت كتلة ضخمة من الخشب على بعد قدم واحدة منه هاوية من سطح مرتفع ، فما هو إلا أن شاع فى الناس أن الله جلت قدرته قد أراد أن يتوعده هذه المرة ، فإن لم يرتدع أنزل عليه شديد العقاب .

واتجهت الأنظار إلى الشيخ الدكتور غراب ، لترى ماذا هو صانع بعد أن فسدت شكواه الأولى التى طلب فيها من مدير الإقليم أن يعزل المدرس لأنه خطر على أبنائهم ، فأخذ صاحبنا الشيخ يترقب فرصة أخرى ، وسرعان ماسنحت ، ذلك أن المدرسة قد أعدت للبلد برنامجا ثقافيا يلقى فيه مدرسو المدرسة محاضرات

عامة ، وكان أن اختار الأستاذ رياض عطا موضوع الأحلام وتفسيرها على الطريقة العلمية الجديدة ، قائلا للناس إنها لا شأن لها بالغيب ، وأنها تعكس الماضى ولا تصور المستقبل إلا باعتباره امتدادا للماضى ، مختتما محاضرته بقوله : « فإذا كنت قد هدمت لكم عقيدة راسخة من نبوءة الأحلام ، فليس الذنب ذنبي أنا ، ولكنه ذنب العلم الحديث » . وكان الدكتور غراب من الحاضرين ، فلم يلبث أن أقامها حربا عنيفة على هذا الذى جاء « ليهدم العقيدة الراسخة » على حد قوله ، وبدأت الحرب أن نهض فورا ليسأل المحاضر : وماذا تقول فى تأويل الأحلام على لسان سيدنا يوسف عليه السلام ؟ فأجابه المحاضر على البديهة : لوكان مثل هذا التأويل فى وسع الناس كافة ، لما عُدَّ معجزة لنبيّ من أنبياء الله ، لكن هذه الأمور فى مثل هذه الظروف لا تسير بالحجة ، بل تسير بصرخات الانفعال ، وهذا هو ماكان يومئذ ، مما أوقف رياض عطا بعد ذلك موقفا فيه الشهرة وفيه الخطورة فى آن معًا .

ولست أدرى ماذا كان شعوره الداخلى إزاء هذا كله ، لأنه لم يكن يخالطنا بما يكفينا لنعلم دخيلة نفسه ، ولم يمض بعدئذ أسبوع واحد ، حتى فاجأنا بغرابة جديدة .

فقد كان التلاميذ يجتمعون ساعة الغداء تحت سقيفة كبيرة فى فناء المدرسة ، وكان كل منهم يجىء ومعه غداؤه منذ الصباح ، ومعظم التلاميذ من القرى المحيطة بالمدينة ، فثيابهم — كما تعلم — عنوان الفقر كله والبؤس كله ، وكذلك طعامهم الذى كانوا يصرونه فى مناديلهم القذرة إلى أن تحل ساعة الغداء ، وإذا بصاحبنا يذهب إلى تلك السقيفة ذات يوم ، والأولاد مجتمعون على غدائهم ، فيقف أمامهم صامتا ، ينقّل فيهم عينيه ، ثم يبدأ لهم فى درس يعلمهم به كيف

يجعلون ثيابهم أقرب إلى الذوق الجميل ، وطعامهم أدنى إلى قواعد الصحة ، وقد خرجنا نحن المدرسين من حجرتنا « لنتفرج » على هذا « الإمام الواعظ » ماذا يقول لأطفال صغار ينوء أهلوهم تحت فقر فظيع وجهل أفظع ، فكانت أول عبارة سمعتُها قوله : « فلا تختر ملابسك من ذوات الألوان الفاقعة ، ولا تجعلها ظاهرة الخطوط » إلى آخر هذه القواعد التى تفترض أن الطفل السامع فى وسعه أن يختار بين ألوان وألوان ، وبين خطوط وخطوط ، كأنه لم يعلم أن سامعيه كانوا من فقر آبائهم بحيث لا يكون فى الأمر اختيار بين ثوب وثوب وبين طعام وطعام .

لكنه التعلق بالمثل العليا — والحق يقال عن هذا الرجل — هو الذى أظهره فى صورة الشاذ الحالم ، إنه يتمنى الأمنية ثم يحاول تحقيقها فيوفق حينا ويعجز أحيانا ، فيأخذه اليأس لعجزه أكثر مما يأخذه السرور لتوفيقه .

لم يكن كثير الذهاب إلى المقهى عندما جاءنا مدرسا ناشئا ، وكان فى البلد شبه ناد يرتاده الموظفون عادة ، فقصد إليه وحده ساعة العصر من يوم قارص البرودة ، وأراد أن يأوى من المكان إلى ركن دافئ ، ففتح بابا مغلقا ليجد نفسه فى غرفة خالية إلا من قطع الأثاث التى تبدو للرائى على الفور أنها أعدت لفئة ممتازة من المرتادين ، ولم يتعب نفسه بالتأويل والتفسير وبالسؤال والجواب ، فحسبه أن وجدها غرفة نظيفة تحقق له الهدوء والخلوة ، وما هو إلا أن جاءه المناول — وكان يونانيا — وشيء من الفزع على وجهه ، ففاجأه الأحدب بطلب فنجان من القهوة .

المناول : هل تسمح — من فضلك — بالذهاب الى الناحية الثانية ؟

الأحدب : أية ناحية ثانية ؟

المناول : هناك ، مع الناس ، هناك فى القهوة .

الأحدب : وما هذه الغرفة إن لم تكن جزءا من « القهوة » ؟

المناول : هذه غرفة الحكومة .

الأحدب : غرفة الحكومة ؟! ماذا تعنى ؟

المناول : أعنى البك المأمور والبك القاضى والبك وكيل النيابة والبك الدكتور .

الأحدب : ومارأيك فى البك المدرس إذا أراد الجلوس هنا ؟

المناول : ممنوع

الأحدب : اذهب وهات فنجانا من القهوة ، سكّره قليل .

المناول : من فضلك هذا ممنوع ، فى هذا ضرر يلحق بى .

الأحدب : اذهب وهات فنجانا من القهوة ، سكره قليل ، ولا تنطق بكلمة واحدة بعد هذا .

ذهب المناول وعاد ومعه القهوة ويصحبه رجل آخر لعله صاحب المقهى ، وحاول الإثنان حمل صاحبنا على العدول عن الجلوس فى تلك الغرفة الخاصة ، قائلين له إنه لا مانع من أن يشرب قهوته هناك ، أما بعد ذلك فالأفضل له أن يجلس حيث الناس كثيرون .

لم يلق لهما بالا ، وأخرج من جيب سترته كتابا صغيرا ، وراح يقرأ كأن لم يكن واقفا إلى جانبه أحد .

ولبث هنالك نحو ساعة ، والباب مغلق عليه وحده ، وإذا بالباب ينفتح فجأة وبعنف شديد ، بيد رجل ضخم دخل الغرفة وهو يضحك بأعلى صوت تستطيع أن تخرجه حنجرة بشرية ، ووراءه اثنان يضحكان معه فى صوت

خفيض كأنهما أرادا أن يكونا بمثابة البطاقة الضاحكة التى تحيط بضحك الزعيم لتبرزه ... لكن ذلك العجل البشرى الهادر المنقضّ على الهواء أمامه كأنه يريد أن يبتلعه كله فى جوفه الكبير ، ماكاد يخطو بإحدى قدميه داخل الغرفة حتى رأى صديقنا الأحدب يفرد منظاره على عينه اليسرى ، وقد جلس فى ركن الغرفة يقرأ ، لا يحرك ساقا ولا ذراعا ، ولا يخرج عينه من وراء صفحات الكتاب .

وقف الثلاثة لحظة ، راح العجل البرى خلالها يلفظ من فمه خوارًا غير مفهوم ، ثم صفق بكفيه تصفيقا مدويا ، جاء على إثره المناول اليونانى يهرول .

— ماهذا ؟ أيباح للجمهور استخدام غرفتنا ؟

المناول : ياسعادة البك المأمور ، أتعبنا أنفسنا معه فلم يخرج .

المأمور : إذا جاءت بقية الإخوان فقل لهم إننا مجتمعون فى منزل البك وكيل النيابة .

وخرج الثلاثة ولم يعودوا ، ومنذ تلك الليلة أصبحت الغرفة الخاصة غرفة للمدرسين ، فقد سمعوا بالخبر وهم فى بهو المقهى ، وجاءوا فجلسوا مع الأحدب يشدون أزره ويؤيدونه ، أما الأحدب فلم يكن يعنيه ذلك لأن ارتياد المقهى لم يكن جزءًا من حياته ، وأما رجال « الحكومة » فلم يعد أحد يراهم هناك ، وقيل إنهم اتفقوا على أن يجعلوا من بيت وكيل النيابة الأعزب مقرًّا جديدًا لهم .

٣

سمعت هذه الرواية عن الأحدب أيام شبابه ، فكنت كمن يصحو من حلم ، يختلط عليه الأمر بين ما يراه ويسمعه فى دنيا الواقع من قول ، وبين أشياء

مرت به فى الحلم ! وذلك أنى كنت وأنا أنصت فى القطار لما يقص علىّ صديق فريد . أحس إحساسا غامضا بأن تلك الأحداث كلها وتلك الأحاديث كلها ، إنما حدث لى مثلها وتحدثت بما يشبهها ، وإن فى ذلك لسرًّا غامضًا لم أتبين حقيقته إلى يومى هذا .

نعم إن بينى وبين الأحدب من أوجه الشبه شيئًا كثيرًا . لكن أوجه الشبه بين رجلين لا تجعلهما رجلا واحدًا ، أو هكذا ظننت عندئذ ، فحسب هذا التشابه بيننا أن يفسر لى هذا التجاذب الشديد الذى صادق بيننا إلى الحد الذى يجعل كلاًّ منا يفرح بلقاء الآخر ويسعى إليه ، أما أن يشتد إلى درجة الهوية بين شخصينا فذلك هو موضع العجب ، ومع ذلك فهو تشابه يجاذبه اختلاف بعيد يفرق بين مزاجه ومزاجى .

كلانا بدأ حياته مدرسا ، وكلانا سلخ أعوام شبابه عزبا ، ولكلينا ولع خاص بالثقافة من إحدى زواياها ، فهو مثلى يتتبع المذاهب الفكرية العامة فى الفلسفة والنقد ، وفى الفن وفى السياسة وفى الاجتماع ، تتبعا يجنح نحو التجريد فى الفكرة والبعد بها عن التطبيق ، ولذلك فنحن كلانا نبرع فى الجدل النظرى . بقدر ما نعجز عن التماس طريقنا فى الحياة العملية ، وإن يكن الأحدب بعد هذا التشابه بينى وبينه يعود فيختلف عنى فى درجة الولوغ والإيغال فى عالم الثقافة هذا ، ويتسع هذا الاختلاف بيننا حتى يشمل طريقة النظر إلى الحياة ، فهو سوداوى المزاج قلق متشائم ثائر على الأوضاع كلها كيفما وجدها ، فلا يرضيه أن يكون الأبيض أبيض ولا الأسود أسود ، وقد انعكست هذه النظرة على طريقة معاملته للناس ، وهأنذا قد وجدته فى عزلته لا يكاد يعرف أحدًا أو يعرفه أحد ، وفوق هذا كله فهو يدس فى خفايا نفسه شعورًا بالنقص مايفتأ يستفحل

أمره معه فيؤثر على سلوكه تأثيرًا صريحا واضحًا ، على حين أنى – برغم مابينى وبينه من تماثل فى كثير من الوجوه – قد لا أكون راضيا عن بعض الأمور فأكتم السخط لأظهر الرضى ، وأجمد الغيظ لأبدو هادئا ، وأقيم الثورة فى جوانحى لأستسلم للأمر الواقع ، فلئن كان الأحدب يترك زمامه لدفعات الهوى ، فإنى كثيرًا ماألجم الأهواء بشكيمة العقل .

بلغ بنا القطار غايتنا وغايته – مدينة الإسكندرية – وتفرقت بينى وبين صديقى فريد وزوجته سبل الطريق ، وكنا لم نزل فى أول الضحى فأخذت طريقى إلى شاطئ البحر لأمضى سويعات انتظار لموعدى هنالك ، فجاءت جلستى أمام البحر فى الكازينو الذى كاد ساعتها أن يخلو من زبائنه ، أقول إن جلستى تلك قد جاءت فرصة مناسبة أتأمل فيها هذا اللغز النفسى العجيب . وهو أن أسمع روايات تروى أمامى عن الأحدب فى بدء حياته العملية ، فإذا هى روايات تحدث فى نفسى شيئا كرجع الصدى ، وكأنما هى ذكريات من شبابى لا قصص تروى عن شخص آخر .

لكن الله قد أراد لذلك اللغز أن يزداد إلغازًا بدل أن يجد شعاع الضوء الذى يفك طلاسمه ، وذلك أن صوتا جاء ينادينى من الخلف ، هو بذاته صوت الأحدب كما عهدته . فالتفتّ ورائى دهشا ، لأرى صديقا لم أتوقع قط أن أراه ، لأنى كنت ظننته قد غادر البلاد فى بعثة دراسية ، فما إن جلس وألقيت عليه السؤال . حتى أفهمنى حقيقة موقفه ، وهى أنه إنما تعذر عليه السفر كما تعذر على سواه فى تلك الأيام السود ، فصمم على أن يعوض مافاته بدراسة يؤديها هنا بنفسه ولنفسه ، حتى إذا مازالت عن العالم غمته ، وسنحت فرصة السفر إلى أوربا مرة أخرى ، كان قد قطع شوطًا على الطريق يدنيه من غايته .

كنت أعرف فى صديق هذا — واسمه إبراهيم — منذ أيام الدراسة تعدد المواهب والقدرة على خلق المبتكر . حتى ولو كان ذلك المبتكر الذى يخلقه شيئا لا نفع فيه : وكان يتميز دون سائر الزملاء بجمال الخط ودقة الرسم ونظافته ، ولذلك كان يبحث عن العمل الذى يتطلب الكتابة والرسم . ليتمكن من عرض خطه الجميل ورسمه الدقيق النظيف ، حتى لو كان هذا العمل لسواه لا لنفسه : لقد كان هذا الصديق قوى الخيال فى غير منهجية واضحة تنظم ذلك الخيال ليجيء خيالا منتجا بناء فهو خيال أقرب إلى خيال الأطفال حين يصور لهم الوهم أن العصا بين أرجلهم حصان أو قطار .

لكن ذلك الخيال القوى عند صديق قد كان من خصائصه النافعة — من جهة أخرى — أن يصور له الغايات قبل وقوعها تصويرًا ناصعًا ، حتى ليظن هو أن تلك الغايات المأمولة قد باتت واقعا محسوسًا ، ومثل هذا التصور الناصع للغايات ، من شأنه أن يحفز صاحبه على العمل ، لأنه يخرج الأمل من دنيا الأحلام ليدخله فى دنيا الحقائق .

وبهذا التصور القوى للغايات المرجوة البعيدة ، رسم صديق إبراهيم لنفسه خطة دراسته التى يستعد بها انتظارًا للفرصة إذا سنحت للسفر ، ولما قابلته كان بالفعل قد قطع شوطا لا بأس به من الطريق ، ظفر فيه بشهادتين من جامعة لندن : الشهادة الأولى ، والشهادة الوسطى ، ولم يكن قد بقى له إلا شهادة الختام ، وأخذ يشرح لى بشيء من التفصيل ماذا قرأ وفى أى اتجاه يسير ، وأين اجتاز الامتحان ، وعلمت مما رواه لى أن سيره يتجه به فى طريق الدراسة الفلسفية ، وأن امتحانه للشهادة الأولى كان فى مدينة القدس قبل محنة القدس بعشرات السنين ، لأن جامعة لندن لم تكن بعد قد جعلت القاهرة مركزًا

لنشاطها الخارجي ، وأما امتحان الشهادة الوسطى فقد كان فى القاهرة .

– سألته قائلا : لكن لماذا تبدأ الشوط من أوله ، ودرجة الليسانس التى بين يديك تعفيك من بعض المراحل ؟

– فأجابنى : أردت أن أجعل طريق السير متجانسا ومتكاملا ، وفيم العجلة ؟ إننى أستهدف الدراسة نفسها بقدر ما أستهدف الشهادات ، وقل إن المسألة كلها فيها من التسلية العلمية مقدار ما فيها من جدية الأهداف .

لم يدهشنى اختياره للدراسة الفلسفية . لأننى كنت أعلم أن له فيها ماضيا مليئا بالجهود المزدوجة بالحب الشديد ، وهل أنسى أننا حتى ونحن فى أيام الدراسة كنا قد لحظنا فيه هذا الميل بوضوح ، فأطلقنا عليه اسم « سقراط » وأذكر أنى سألته ذات يوم منذ زمن بعيد : ما الذى مال بك نحو الفلسفة بكل هذا الحب ؟ فأجابنى بأنها المصادفة البحتة هى التى أوقعته على كتاب إنجليزى صغير عن الفلاسفة الثلاثة الكبار : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فلما قرأه كان كمن كشف عن نفسه الغطاء ، إذ أحس أن مثل هذه المادة العقلية هو ما خلق من أجله ؟ فإذا كان « شن » – فى المثل العربى القديم – قد وافق « طبقة » فكذلك قد وافقت الفلسفة طبيعتى : ولعله منذ تلك اللحظة لم يحد عن الطريق .

٤

أقول إن لغز العلاقة بينى وبين الأحدب قد ازداد إلغازًا حين قابلت إبراهيم على شاطئ البحر ، فمنذ سمعت صوته ينادينى بنبرة هى نفسها نبرة الصوت عند الأحدب ، ثم حين جلس معى يوجز لى جهوده الدراسية التى اضطلع بها من

تلقاء نفسه بعد التخرج ، وجدت هذا الشعور العجيب يملؤنى ، فمحال ألا تكون هنالك علاقة لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب ، بينى وبين الأحدب ، ثم بيننا وبين إبراهيم ، فلقد أحسست كأننا ثلاثة أعضاء من كيان عضوى واحد : أسمع عن الأحدب أخباره فأحس أنى أسترجع أخبار الماضى الذى عشته ، ثم يتحدث إلى إبراهيم عن جهوده فيخيل إلىّ أنه إنما يذكرنى بنفسى ، فمن أين جاء هذا الخلط العجيب بين أشخاصنا الثلاثة ؟

تركنى إبراهيم لأرسل بصرى إلى الأفق البعيد ، مسترجعًا لنفسى شريط الأحداث كما وقعت لى بعد التخرج من مدرسة المعلمين العليا فإذا المشهد أمامى ينشق إلى ثلاثة فروع تنبثق كلها من أروقة واحدة ؟ ولا فرق عندى بين أن يكون هذا هو الماضى كما وقعت بالفعل . وبين أن يكون من خلق أوهامى ، وحسبى أنها صورة صحيحة فى أساسها وفروعها .

فلقد توهمت حين أرسلت البصر إلى الأفق البعيد . أن أمامى ثلاثة رجال ، سار كل منهم فى طريق ، لكن الطرق الثلاثة كانت تلتقى عند رأس واحد ، فهنا رجل إلى اليسار قد أخذ فى مشية متعثرة خفيفة الخطى . تقوس ظهره وكأنه الأحدب الذى عرفته ، يتلفت يمنة ويسرة كأنه العصفور المذعور يخشى هجمة العقاب المفترس ، وهناك رجل آخر إلى اليمين قد سبق بخياله مواقع قدميه ، ونظر إلى بعيد فربت الدنيا تحت أنفه وهو لا يراها لأنه انشغل بغده عن يومه ، تبين الرجلين ثالث قيده الأمر الواقع بقيوده ، فسار وكأن لم يكن أمامه أفق بعيد يرسل إليه البصر ، وكأن لم يكن بعد يومه غد يرتجيه .

وكان لكل من الرجال الثلاثة نشاطه الخاص ، الأول مدفوع بغرائز الفطرة ، وكانت فيه بذور الأديب والفنان ؟ والثانى طموح ، وجد نفسه يسكن

الطابق الأرضى الذى لم يكن فوقه طابق يعلوه ، فأراد أن يقيم بيديه الطوابق العليا واحدا فوق الآخر ليصعد إلى هواء نقى نظيف ؟ وأما الثالث فهو يعمل كسبا للقوت ، راضيا بما قسمه له خالقه من دنياه ، أو لعله ركن إلى جناحيه الأيسر والأيمن ليكملا له جوانب النقص ، فالأيسر منهما يطير به فى دنيا العاطفة حتى ولو كانت هوجاء عمياء ، والأيمن منهما يفى بالعقل الصرف صريحا هو فى حاجة إلى بنائه لتعلو به مدارج الإدراك وإن لم يتبع ذلك علو فى مدارج الحياة – فقل إنهم ثلاثة رجال ، أو قل إنهم رجل واحد فى ثلاثة شخوص ، فالقولان سيان .

ولقد جاءت هذه الخواطر بصورة الأحدب إلى صفحة ذهنى : فوجدتنى مشوقا إلى لقائه . ولم أضيع دقيقة من وقتى بعد أن فرغت من مهمتى التى من أجلها ذهبت إلى الإسكندرية ، وعدت مسرعًا ، وقصدت إلى مسكنه فور وصولى إلى القاهرة ، كنت أصعد سلّم داره ، لافتا وجهى إلى أعلى إبان الصعود ، وقبل أن أبلغ من « السلالم » نصفها ، سمعت وقع قدميه هابطا ، ولمحت أطراف سراويله فوقفت حيث كنت : قَدَمٌ أعلى ، وقدم أدنى ، ويد ممسكة بالحاجز الخشبى .

رآنى فأسرع المبوط حتى كاد ينكفئ على وجهه ، ولقينى والبشر يملؤه على نحو لا عهد لى به :

– قال : أهلا ، أين كنت ؟ لقد طال غيابك عنى ، مع أن لدىّ من المفاجآت ما أردت أن أحدثك عنه .

– قلت : مفاجآت فى حياتك أنت ؟

– قال : فى حياة من تريد ؟ لقد وجدتها بعد كل هذه الأعوام الطوال

— قلت : وجدت من ؟

— قال : وجدت من فَتَحَتْ لى بابتسامتها المنادية مصاريع العالم المسحور

— قلت : ... وبعينيها التى تدعو ؟

- كنت ما أزال أقف على السلّم بقدم على درجة أعلى ، والأخرى على درجة أسفل ، ويد ممسكة بالحاجز الخشبى ، ولم أكد أنطق بهذه الجملة الأخيرة التى استعرتها من مذكراته التى كان أعطانى إياها لأقرأها عن حياته إبان المراهقة ، أقول إنى لم أكد أنطق بهذه الجملة حتى سبح بنظرته قليلا ، فى مزيج من الدهشة ومحاولة التذكر ، لكن سرعان ماعاد إلىّ بوعيه ، قائلا إن القصة طويلة ، والموعد قد دنا ، فهيا معى ، وسأحدثك عن الأمر فى الطريق.

وأخذنا ننزل الدرج معا ، وسألته ونحن نازلان :

— موعد مع من ؟

— قال : مع سميرة وزوجها .. لكنك لا تعرف بعد من سميرة هذه ...

وهنا كنا قد خرجنا من الباب إلى الطريق ، ومال بنا نحو اليمين ، وهو اتجاه يضاد الاتجاه المؤدى إلى مكان اعتزاله الذى يأوى إليه بعد الغروب من كل مساء ، وإذن فقد حدث ماغيّره من نقيض إلى نقيض : فماذاك ياترى ؟ أتكون سميرة هذه هى الشيطانة التى ألهبت جوانحه ذات يوم من شهر الصيام . وهو لم يزل بعد على عتبة الشباب ؟

على أننا ماكدنا نستوى على الطريق — وكان مزدحما بالمارة ازدحاما شديدًا ، حتى لقد كنت أنا والأحدب كثيرًا ماينفصل أحدنا عن الآخر فى الزحام ثم نعود فنلتقى — ماكدنا نستوى على الطريق حتى أخذ يقص علىّ فى نشوة الطفل المرح المغتبط بقصة يرويها لأبيه عن مَرَدة الجنّ ، كيف ذهب ذات

مساء - أثناء غيبتى بالإسكندرية - إلى كازينو الشاطئ ، ولم يكن يعلم أنه غاص بمرتاديه إلى ذلك الحد الذى رآه ، وبحكم عادته فى إيثار العزلة ، اختار منضدة على الطرف الأقصى حيث يقل المرتادون : وبينما هو يتهيأ للجلوس ، إذا بالرجل والمرأة الجالسين على المنضدة المجاورة يتلفتان إليه تلفُّت من يحاول التذكر ، وأما هو فإزاء هذا التطلع منهما فقد جلس ونصف ظهره إليهما ، حتى يحرمهما من رؤية وجهه رؤية واضحة وفى الوقت نفسه لا يُحْرَم هو إرسال بصره تجاه النيل ، لكنه سرعان ماتذكر أنه بهذا الوضع إنما يعرض عليهما تشويه ظهره ، فاستدار ليجلس مستقيما ، وجهه إلى النيل ، وصفحة وجهه اليمنى إلى الجالسين بجواره .

لم يكن التطلع مقصورًا على ذينك الجارين ، لكنه مالبث أن امتد إليه ، برغم ادعائه لنفسه أنه حبيس نفسه ، مكتف بذاته ، يحيط نفسه بأسوار من وهمه حتى لا ينفذ أحد إلى حصنه ، يقول لى الأحدب وهو يروى قصته - ونحن مانزال نشق طريقنا فى الزحام ، وكثيرًا ما قطع الزحام حديثه عند كلمة فى سياق الرواية ، فيعود لاهثا ليكمل الحديث حيث انقطع ، وكان الأحدب أقصر منى بمقدار ما احدودب ظهره ، ولذا فقد كان يضطر أن يشرئب بعنقه نحو مسمعى - يقول لى الأحدب وهو يروى قصته ، إنه - بدوره - قد أخذ يتطلع خلسة فكان كلما وجّه النظر إليهما ، وجدهما ناظريْن إليه بأعين غامضة فيعود منسحبا بنظرته كأنما يريد أن يخفى عنهما أنه هو كذلك ينظر .

ثم ما هو إلا أن هتف فى دخيلة نفسه هاتف ارتج له قلبه بنبضة قوية كأنها جاءت نبضة زائدة على مجرى النبض المعتاد ، ذلك أنه تذكر مؤخرًا - كالصدى يجيء بعد النطق - أنه بنظرته الأخيرة إليهما قد لمح فى المرأة سنّة أمامية

لها بروز خفيف وتفصلها عن السّنة المجاورة فجوة صغيرة ، ولم يكن قد تنبه إلى شيء إذ هو ينظر إليها نظرته الخاطفة ، فما إن اعتدل فى جلسته حتى جاءه الهاتف يهتف بل يصيح :

– أتكون هى ؟

واستطرد الأحدب يقول لى كيف أنه أعاد النظر بلفتة حادة سريعة جاءت رغم أنفه ، فإذا هما يقطعان باليقين ماكان عندهما موضع شك ، ونادت المرأة بصوت أبحّ :

– رياض !

فاندفع الأحدب إليها كالمجنون :

– سميرة ! هذا مستحيل . هذا مستحيل ، ومختار !

وكان بين الثلاثة ما يكون بين الأحباء ضربت الأيام بينهم حينا طويلا . ثم لاقت بينهم على غير انتظار منهم ، ولو انتظروا لما تحقق لهم مثل هذا اللقاء ، لكنها الأيام وحبها للمباغتة تفاجئ بها الناس . ليعلموا أن وراء تدبيرهم الضيق تدبيرًا أوسع وأعم .

كانت سميرة ومختار متقاربين فى العمر مع الأحدب ، أما هى فأعوامها لم تزدها – فى عين الأحدب – إلا نضجا أنثويا ، فالشفتان المليئتان بعض الشىء مازالتا – فى عينه – تناديان ، والعينان العميقتان المتلألئتان الضاحكتان مازالتا تدعوان ، والبشرة مازالت على صفائها القديم ، والصوت الأبحّ قليلا مازال يثيره ، وكأن شعراتها البيض لم تفعل سوى أن زادتها إشراقا على إشراق ، وملاحة على ملاحة ، فإذا وُصِفَت سميرة بجملة واحدة ، قيل إنها ذات الوجه الصبوح ، فلاعها لا تعرف الجهامة ، ووجها لا يعرف العبوس ، وذكاؤها

اللاَّمح متوقد فى عينيها ، إنها لم تكن قد زادت فى دراستها على سنوات قليلة فى مدرسة أولية ، فهى تكاد تخلو من كل تحصيل درس ، لكن من ذا يبحث وهو معها عن تحصيل ؟ فهاهنا تكون فطرة الأنثى على أتمها وأكملها ، بحيث يشعر الرجل وهو بين يديها أنه فى حضرة الجنس كله وقد تجمَّع فى واحدة من بناته ، بل إنها كلما استخدمت فى حديثها كلمة أو عبارة مما اعتاد نساؤنا وهنَّ على الفطرة أن يستخدمنها ، ومما يحرص من تعلمن منهن أن يجتنبنها ، جاءت تلك الكلمة أو العبارة على أعماق نفسه كالموقظ للطبيعة النائمة .

إنه فى الحق لأمر عجيب يستحق النظرة الفاحصة : يتعلم أبناؤنا وبناتنا ، فيتطور المتعلم الفتى فى كل شىء إلا فى مثيراته الجنسية ، فهذه تظل كما كانت لتكون لو لم يتعلم شيئا ، على حين لا تكاد تتطور المتعلمة الفتاة فى شىء إلا فى مثيراتها الجنسية . فلا يبقى فيها شىء مما يكون عند أختها المتروكة على الفطرة . مع كون الأختين من ثقافة اجتماعية واحدة .

وسميرة امرأة من اللائى نشأن على فطرة التقليد الثقافى للمرأة ، واحتفظن بما نشأن عليه ، ولا اعتبار لأن يكون الأحدب قد قطع ماقطعه من أشواط فى التحصيل الثقافى اتساعا وعمقا وارتفاعا ، فهو مازال عند التقائه بها بعد ذلك الفراق الطويل ، يلتقى بقلبه معها فى مستوى فطرى واحد : هى تنادى وهو يجيب ، وهى تدعو بفطرتها وفطرته تستجيب .

وأما مختار زوجها ، فرجل طويل القامة معتدل الجسم كثيف العنق طويله ، على صدغيه وفى رسغه وشم قديم . حاول أن يمحوه ، لكن بقيت منه آثار : فيقال إنه ريفى التحق بالجندية وقضى فيها مدته — ثم خرج منها موظفا مدنيًّا فى الجيش . لأنه كان على شىء من التعلم المتوسط . فكأنه بدل ثيابه العسكرية ،

ولكنه لم يستطع أن يبدلّ من حركات جسده وطريقة حديثه ، فهو لم يزل مزيجا من سذاجة الفكرة التى تلحظها فى الريف . وصلابة الحركة التى تراها فى الجندى ، وهو طيب القلب إلى أقصى الحدود . لا تفارق الابتسامة شفتيه ، لكنها ابتسامة المرتبك أكثر منها ابتسامة المطمئن الراضى .

إن الأحدب ليتحدث معه الآن حديثا منقطعا فيا يدّعى له أنها ذكريات حلوة ، عن الأسابيع الأولى بعد زواجه من سميرة ، وكيف زارها فى دارهما بدعوة منه ، ذلك أن الأحدب عندئذ لم يجد فى نفسه الشجاعة أن يزور الزوجين ، فلقد كان يومئذ — برغم ما التهب به حبه شغفا بفتاته تلك — غارقا إلى أذنيه فى العبادة ممعنا فى التهجد ، حتى أوشك أن يقع فى غيبوبة الدراويش ؟ فكان له ذلك رادعا عن ارتكاب الإثم ، كما كان رادعا عن السير فى طريق قد يؤدى به إلى إثم ، لكن ذلك كله لم ينقص من نبضات قلبه نبضة ، ومرت بعد زواجها أسابيع قليلة ، ثم جاءته دعوة من الزوج يدعوه بها إلى زيارة على عشاء ؟ فأدرك أن الدعوةهى فى الحقيقة من سميرة متخفية وراء زوجها ، فذهب وقلبه يسبقه إليها ، وجلس ليلته هناك جلسة محفورة فى ذاكرته إلى اليوم ، برغم عشرات السنين التى انقضت ما بين مراهق الأمس وشيخ اليوم .

علمت كل ذلك من الأحدب ونحن سائران فى الطريق ، فسألته :

— وإلى أين نحن ذاهبان الآن ؟

— قال : إلى كازينو الشاطئ ، فأنا معها على موعد .

— قلت : وهل ترى وجودى مناسبا ؟

— قال : ليس شىء فى الدنيا أنسب لى من وجودك ، لأنك ستسد لى

ثغرة الزوج ، لكى أعيش أنا الساعة أو الساعتين مع سميرة ، إنه رجل طيب

ووصلنا حيث وجدنا سميرة وزوجها مختارا قد سبقانا إلى هناك .

ولم يكن حتى تلك اللحظة يعرف اسمى . فأسعفته به قائلا :

فوزى الراوى ، وحيينا وجلسنا ، وقدمنى الأحدب لهما ، ولبثت الوجوه الأربعة مبتسمة فى توتر ، والعيون ناظرة إلى فراغ ، لأنها شاردة كأنها تتجنب اللقاء وتبادل النظرات الكاشفة عن دخائل النفوس .

وكنت أنا بينهم وحيدًا فى بعدى عن المشكلات العاطفية القديمة ، فمن لمحة واحدة عرفت أن سميرة والأحدب ما يزالان ينظران بأعين مترعة بالعشق المحروم الظمآن ، وأن مختارا يساوره القلق الخفيف مما يراه بينهما من خيوط تخفى عن العين ولكنها ظاهرة ظهورا واضحا أمام بصيرته ، ولعلها كانت ظهرت منذ الزيارة الأولى التى قام بها رياض عطا للعروسين بعد زواجهما بقليل ، ومضت أعوام كانت كفيلة أن تحيل الديار العامرة طلولاً خربة ، لكنها لم تمح ما بين هذين القلبين ، وكدت أقول بين هذين الجسدين ، لأننى أحسست جسديهما يتجاذبان ، ففى كل جسد منهما ميل خفيف نحو الآخر ، وإذن فقد كنت وحدى بينهم قادرا على فتح الحديث بأعصاب هادئة ، وقلت :

— أنبأنى الأستاذ رياض ونحن فى الطريق إليكم أنكم قد التقيتم بعد غياب طويل .

— فقالت سميرة ناظرة إلى الأحدب (والعجيب هنا هو أن الحدب كاد عندئذ يختفى إلى حيث لا أدرى ، فقد خيل إلىّ أننى أنظر إلى ظهر مستقيم كسائر الظهور) قالت : نعم ، كان آخر عهدنا به ونحن عروسان .

ثم انتقل الحديث بيننا جميعا إلى أمور عابرة توحى بها الأحداث الدائرة

حولنا . وجاءت لحظة صمت . فهمنا بالانصراف ؟ ولما أن انفردنا أنا والأحدب على طريق العودة . وقلت له :

– لقد كان هذا اللقاء صفحة من ماضيك ، لكنها صفحة وضعت فى يدى مفتاحا هاما .

– قال الأحدب فى ضيق : أى مفتاح ؟

– أجبته : لقد رسمت لك سميرة فى مراهقتك صورة المرأة ، وتغيرت ثقافتك ولم تتغير الصورة ، فنتج ما نتج عندك من صراع بين ما تقتضيه ثقافة الرجل العصرى فى بناء أسرته ، وما اقتضته الصورة التى رسخت فى نفسك منذ أول الشباب ، فأنت إلى يومك هذا لا تدرى أى الثقافتين تطيع وأيهما تعصى ؟

الفصل السادس

الكاتب الظل

١

لم أعد أستطيع التخلص من هذه الفكرة العجيبة التي سيطرت عليّ وهي أنني أنا والأحدب ، ومعنا صديق إبراهيم الذى لقيته فى الإسكندرية لابد أن يكون بيننا رباط وثيق ، يجعل منا ثلاثة جسوم لنفس واحدة ، نعم ، قد يكون هذا شطحًا منى فى التصور ، ولكن ما أكثر ما تقرأ عن شخوص تتعدد مع روح واحد ، حتى لتجد من المذاهب والعقائد ما يجعل الإنسانية كلها ،.. بجميع ماضيها وحاضرها وسائر ما سوف يولد من أفرادها.إلى أبد الآبدين ، شعابًا لنفس واحدة ، لكننى لا أريد أن أغلو فى القول إلى ذلك الحد البعيد ، ويكفينى ثلاثة أشخاص : إبراهيم والأحدب وأنا ، لأزعم لهم نفسا واحدة تشعبت فى اتجاهات ثلاثة

أقول إنى لم أعد أستطيع التخلص من هذه الفكرة ، وحتى لو كانت فكرة باطلة من حيث الواقع الحسى ، فهى ماتزال صالحة لتصورات الخيال لأن ثلاثتنا — إذا جمع بعضنا إلى بعض — صنعوا إنسانا متكامل الجوانب ، وماذا يراد لمثل هذا الإنسان المتكامل من عناصر؟ أليس الذى يراد له هو :

أولا : عمل يرتزق منه ، ويجرى فيه على تجانس مع أبناء المجتمع الذى يعيش فيه .

وثانيا : خيال يجمح به آنا بعد آن ليفر من قيود المكان والزمان كلما ضاق بهذه القيود ،

وثالثا : طيران بالعقل إلى أهداف بعيدة تريد التحليق فى دنيا الواقع ولو بعد حين ، فلا هو يخضع للأمر الذى تفرضه عليه ضرورات العيش ، ولا هو يطير بأجنحة العاطفة التى تشبع نفسها ولكنها لا تغير من الواقع شيئا ؟

فإذا كانت هذه هى العناصر الأساسية المطلوبة ليتكامل الإنسان ، فهى هى نفسها العناصر التى تتجسد فرادى فى شخصى ، وفى شخص رياض عطا (الأحدب) وفى شخص صديق إبراهيم ، فأنا الذى حملت على كتفىّ أعباء الأمر الواقع ومايقتضيه ، ورياض هو الذى ترك قياده لعاطفته ، وإبراهيم هو الذى أخذ يخطط بالعقل الصرف لمستقبل علمى يرفعه عن درب ضربته الأقدام .

فها نحن أولاء نقف جنبا إلى جنب على عتبة الحياة العملية . وكان ذلك سنة ١٩٣٠ ، لكن سرعان ما تفرقت بنا السبل ، ولقد كان بيننا من الأصول المشتركة ما يجعل فى أشخاصنا شيئا من التداخل ، بمعنى أننى وإن كتب علىّ أن أسير على الدرب الذى ضربته لى أقدام السائرين الآخرين من عباد الله ، فلم يكن ذلك ليحرمنى من ساعات لشطح العاطفة ، وساعات أخرى للأمل فى أهداف بعيدة وجديدة ، وكذلك الأحدب ، فإن يكن قدرُه أن تشتعل به العواطف وتحتدم الغرائز . فهو بالطبع لم يخل من لحظات يستسلم فيها للأمر الواقع ، أو لحظات يخطط فيها لنفسه بالعقل كيف يخطو إلى أمام ثم نقول القول نفسه عن زميلنا الثالث إبراهيم ، فهو إذا كان قد غلب عليه المستقبل بطموحه حتى غض النظر عن الحياة كما تمر بموكبها أمام عينيه ، فلم يكن هذا الانصراف

إلى بناء المستقبل ليلهيه أحيانا عن الاستماع الى صوت اللحظة الراهنة ، أو الميل أحيانا إلى جموح العاطفة أو نداء الغريزة .

ثلاثتنا جميعا كان لهم نصيب موفور فى حياة الفكر والتعبير ، أما نصيبى أنا فقد كان شبيها بما يفعله عارض الأزياء فى نوافذ الدكاكين ، ليراه المارة فى الطريق واقفا وراء الزجاج بالثياب المعروضة ، وإذن فلم يكن له من فضل أكثر من فضل المعلن عن شىء موجود ، فتكون قيمته مرهونة بعدد الزبائن الذين يغريهم عرضه فيقبلون على الشراء ، فإذا لم يجتذب للثياب من يتذوقها ويشتريها ، كان وجوده وعدم وجوده على حد سواء

ظهرت مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات فى يناير من سنة ١٩٣٣ ، وكنت - كصاحبى الأحدب - مدرسا فى ريف الدقهلية ، كانت قريتى تنتمى إليه قبل أن تتحول فيما بعد إلى محافظة دمياط ، فما إن صدر العدد الأول من « الرسالة » حتى انفتح أمامى الميدان الذى أنظم فيه نشاطى الفكرى الذى يفيض لى بعد شواغل مهنتى ، فأخذت أرسل المقالات تباعا ، والرسالة تفسح لى صدرًا رحبًا ، ولكن فيم كانت تلك المقالات بصفة أساسية ؟ كانت فصولا فى الفلسفة الغربية . يغلب أن تختص كل مقالة منها بفيلسوف ، فهذا هو برجسون ، وذلك هو نيتشة أو شوبنهاور أو غيرهما ، وهكذا لم يكن نصيبى عندئذ من الفكر أكثر من نصيب السمسار الذى يتوسط بين صاحب السلعة من جهة ، وشاريها من جهة أخرى .

ولذلك لم أدهش بعد أن مرت بى السنون وأوقفتنى المصادفة على صاحبى الأحدب ، وعرفت كيف سايرت حياته حياتى فى خطين متوازيين ، مع هذا

الفرق الذى أشرت إليه ، وهو أنى كنت أسير على الدرب المدقوق بالأقدام ، على حين أنه كان يربأ بنفسه عن مثل هذا السير الرتيب ، أقول إنى لم أدهش حين علمت فيما بعد بما كان يضطرم به صدر الأحدب فى تلك الفترة نفسها من ضيق بالمعروف المألوف ، وتشوف إلى ماهو ذاتى أصيل ، فرأيت له مقالة وكأنه كتبها ليعارضنى ، يقول فيها شيئا كهذا :

لقد قرأت فى صدر شبابى كل ماأنت به اليوم معجب مفتون ، واجتزت عهدًا أراك تجتاز مثله الآن ، عانيت فيه ما عانيت من كرب وضيق ، وكم قرأت وقرأت ، فكنت أتلون بما أقرأ كأنى حشرة حقيرة تدب على ظهر الأرض وتسعى ، فتصفرّ إن كانت تحبو فوق الرمال ، وتخضرّ إن كانت ترحف فوق الحقول .

كنت أقرأ للشكاك فأشك ، ثم أقرأ للمؤمنين فأومن ، هذا كتاب متشائم أطالعه فإذا أنا الساخط الناقم على حياتى ودنياى ، وذلك كتاب متفائل أطالعه فإذا أنا الهاشّ الباشّ المرح الطروب ، لكن أراد الله بى الخير فأفقت إلى نفسى فوجدتها مضطربة هائمة تعصف بها الريح هنا وهناك ، وهى فى كل ذلك تعانى من القلق والهم ما تعانى .

وضرب الأحدب فى مقالته تلك الأمثلة : ضرب مثلا بالإمام الغزالى الذى قرأ ما قاله الحكماء والفلاسفة ، فلم يكن له منها سوى أن ارتجّت نفسه ارتجاجا عنيفا ، وأخذه الشك من كل جوانبه ، حتى نالت منه العلل بما نالت ، لم يشفه منها إلا أن يستمع إلى وحى نفسه ، وضرب مثلا بتولستوى الذى غاص فى أغوار الفكر ما غاص . وانتهى به الأمر إلى اضطراب وحيرة ، فما كان منه إلا أن يفرغ مكتبته من كل مافيها على أنه أباطيل ، لقد قرأ تولستوى للفلاسفة

الأعلام جميعا : قرأ لأفلاطون وكانت وشوبنهور وباسكال لكنه تبين أن آراء هؤلاء الحكماء إنما تكون واضحة ودقيقة حينما تبعد عن مشاكل الحياة المباشرة ، ولكنها فى ميدان هذه الحياة لا تهدى الحائر سواء السبيل .

كنت إذن أنقل الفكر من غيرى ، وكان الأحدب يتمرد على الفكر الذى ينقل عن آخرين ، ولا يريد من الشراب إلا ما ينضح به إناؤه هو لا ماينسكب من آنية الغرباء ، فماذا كان صديقنا إبراهيم يصنع فى تلك الفترة نفسها ؟ إنه تناسى واقعه وغض عنه النظر ، وجعل من نفسه « تلميذا » مرة أخرى ، فلقد صمم على هدف يتحقق فى موعد قريب أو فى موعد بعيد . فذلك لا يهم ، وإنما المهم هو الهدف والسعى إلى بلوغه ، وما هدفه ذاك إلا أن يظفر بالدراسة الجامعية للفلسفة ، ودراسة تنتهى به إلى « شهادة » يغير بها مجرى حياته ، ولتكن تلك الدراسة العلمية فى انجلترا ، أولا لأنه كان يؤمن بصلابة الثقافة الإنجليزية إذا قيست إلى ميوعة الثقافة فى سواها ، وثانيا لأنه كان بحكم دراسته فى مدارس انجليزية فى المراحل الابتدائية والثانوية ، وحتى المرحلة العليا لم تخل من اهتمام واضح باللغة الإنجليزية وأدبها ، أقول إنه كان بحكم هذه النشأة ملمًّا بتلك اللغة إلى درجة الإتقان ، ولم يكن له إذ ذاك من سبيل إلى جامعة إنجليزية ، لا مبعوثا من الدولة بسبب الضائقة الاقتصادية التى ألمت بالعالم فى أول الثلاثينيات ، ولا على حسابه الخاص لخواء جيبه وجيوب ذويه من المال الذى يكفى لذلك ؟ وحتى لا يضيع الوقت فى أوهام ، أخذ يعدّ نفسه لامتحانات تجريها جامعة لندن فى الخارج لمن يريد الانتساب إليها ، فقسم إبراهيم حياته قسمين : أما نهاره فللعمل من أجل العيش ، وأما ليله فللتحصيل كما هو الشأن مع أى « تلميذ » صغير أوكبير .

٢

جئت إلى القاهرة منقولا من مدارس الريف ، ويبدو أن ضباب الأزمة الاقتصادية العامة كان قد أخذ ينقشع بعض الشيء ، فبدأ التعيين فى وظائف الحكومة بعد أن كان بابها مغلقا على الجميع ، وكنت أنا وشقيق الذى وصفته فى الصفحات السابقة بأنه توأم روحى ، ومعنا نفر قليل من أصدقاء الدراسة ، أقول إننا كنا أوائل الدفعة عند التخرج ، ولم يكن تفوقنا ذاك بذى معنى لأن الضائقة قد شملت الأوائل والأواخر جميعا ، فلما انفرجت الأزمة بادرت مدارس الأوقاف الملكية التى كانت تتبع الملك ، والتى كانت تجمع خيرة المدرسين حيثما كانوا لتضمن أن تكون لها الصدارة بين المدارس ، بادرت باستدعاء من كانت الأزمة الاقتصادية شتتهم فى أرجاء البلاد ، وكنا نحن أول من وقع عليه الاختيار ، وما إن عدنا إلى القاهرة بعد غيبة قصيرة ، حتى تلقانا مدير التعليم المشرف على مدارس الخاصة الملكية ، بنوع عجيب من التهديد المخيف ، فنحن الآن – كما قال – فى أشرف ساحة من ساحات التعليم لأنها ساحة فى كنف صاحب الجلالة ، وإن ذلك وحده ليلقى على عواتقنا تبعة أن نصون لتلك المدارس الممتازة امتيازها ، ثم نحن الآن – كما قال أيضا – كمن ألقى به فى اليم وفى يده طوق النجاة ، فإما عرف كيف يطفو بذلك الطوق فتكون له حياة ، وإما خاب فغرق واندثر ، على أن مقامنا فى تلك المدارس التى بعثت فى نفوسنا كثيرا من الرعب ، لم يطل ، لأن تلك المدارس المخيفة المحطمة لنفوس العاملين فيها ، سرعان ما ذابت فى مدارس الدولة ولم يعد لها وجودها المتميز الذى كان .

ومع ذلك فحياتى العاملة لم تكن عندى إلا زائدة بغيضة حصرتها بين

قوسين – حتى لا تعرقل سيرى فى الجانب الذى كنت أوثر العيش فيه ، وهو جانب القراءة والكتابة ، لكن الكتابة عندى – كما أسلفت القول – لم تكن إلا القراءة نفسها بعد أن يتحول المعنى المقروء إلى معنى مكتوب ، وذلك هو الذى جعلنى فى تلك الأعوام أقرب إلى عارض الأزياء .

لم أكد أبلغ القاهرة حتى قصدت إلى رئيس تحرير مجلة الرسالة بعد أن كنت أرسلت إليها من بعيد بضع عشرة مقالة ، ربما كان لها وقع حسن عند القراء ، وكانت إدارة المجلة فى غرفة لجنة التأليف والترجمة والنشر (وكان رئيس التحرير عضوا فيها) فقدمنى لمن كان موجودًا ليلتئذ من أعضاء اللجنة ، ومنهم رئيس اللجنة الأستاذ أحمد أمين ، فرحبوا بى ترحيبا أكثر مما كنت أرانى جديرا به من علماء أجلاء ومن أدباء ذائعى الشهرة والصيت ، ولم تمض دقائق حتى عرض علىّ أستاذ كبير أن أشاركه فى إخراج كتب يكون أساسها عرضا لكتب انجليزية مختارها ، مما هو مؤلف فى الموضوع الذى نحب الكتابة فيه ، عرضا لا يتقيد بالترجمة كما هى مفهومة ، لنفسح المجال للشرح .

فرحت بالعرض فرحة شديدة ، ولم تمض بضعة أشهر حتى كنت قد أكملت الكتاب الأول ، وأعطيت شريكى الكبير أصول الكتاب ، وبعد أيام لقيت الأستاذ فى مقر لجنة التأليف والترجمة والنشر – وكنت خلال تلك الأيام قد التحقت باللجنة عضوا – فأعطانى مقدمة أعدها للكتاب ، وطلب منى قراءتها : فلما أخذت أقرأ ، وقعت فى السياق على صيغة تدل على أن المقدمة موجهة إلى القارئ منه وحده ، لا من الشريكين معا ، فقلبت الصفحات الباقية مسرعا لأقفز إلى الإمضاء ، وإذا الإمضاء – كما توقعت – له وحده . . . ولابد أن يكون وجهى قد امتقع ، فقال لى : ماذا ترى ؟ كن صريحًا ألا توافق

على أن تكون المقدمة منى ؟ إذا كان الأمر كذلك عدَّلت فى العبارة وجعلتها مقدمة منا معا ... فقلت خجِلا : لا ، لا ، هذا هو الوضع الصواب : وقد كان .

وكانت هذه بداية وضعت مبدأ لما سوف نشترك فيه معا من كتب بعد ذلك — وهى كثيرة ثم ماذا ؟ إننى إذا قلت ما أقول الآن ، فإنما أقوله لأنه كان — والله شهيد — من العوامل التى اعتملت فى نفسى بضروب من الصراع بينى وبين نفسى نادرة المثال ، ولست ألقى الذنب على أحد فى كل تلك المحنة النفسية التى طالت معى أعواما ليست بالقليلة ، لست ألقى الذنب إلاّ على التركيب المضطرب المتناقض الذى رُكِّبت عليه نفسى ، فبينما أواصل الليل بالنهار جهدا وجهادا فى سبيل أن أميز نفسى بما كانت تستحق أن تتميز به ، ترانى أجفل من اتخاذ الخطوة المناسبة أو العبارة الملائمة فى المواقف التى تستدعى تلك الخطوة أو هذه العبارة فيضيع منى مارجوت كسبه من تقدم .

فلأننى جبنت دون القول الصريح عما كنت أريده حقا ، وهو أن تظهر الكتب بين القراء على حقيقتها التى هى أنها مشاركة ، سارت الأمور معى بخطوات سريعة نحو أن أكون أمام الناس فى منزلة التابع لا الشريك ، ولم يسع شريكى الكبير إلا أن يعاملنى هذه المعاملة مادمت قد رضيتها لنفسى : أكلمه بالتليفون ذات مرة بضرورة قصوى ، فيختلط عليه الاسم باسم شبيه لأحد أصدقائه ، فيهش فى طريقة الحديث ، حتى إذا ما أدرك أنه أخطأ الظن ، عَبسَ فى رنة الحديث ليمحو ما كان قد هش به حتى لايفلت الزمام ، ويكتب إلى خطابا ذات مرة لضرورة قصوى لذلك ، فيجعل الخطاب أربع كلمات ،

منها كلمتان أوليان تقولان : « السلام عليك » – لأن « عليكم » فيها ميم زائدة على المطلوب ..

التواضع صفة جميلة إذا وقف عند حد معقول ، وإلا فسرعان ما ينقلب على صاحبه ضعة وقلة قدر وتفاهة قيمة ، وهكذا كان أمرى ، فقد خرجت من الشركة الأدبية « صغيرا » ، حتى لقد اضطررت فيما بعد إلى مضاعفة جهودى أضعافا مضاعفة لكى أنفق بعضها فى محو التصغير الذى لحقنى ، وأكسب ببعضها الآخر خطوة إلى الأمام ، فكلما سار غيرى خطوة واحدة تكون كلها كسبًا له فى ميدان الفكر والأدب ، كان لزاما علىّ أن أخطو عشر خطوات ، تذهب تسعٌ منها فى محو ما قد رسخ فى الأذهان من أننى تابع تصدر إلىّ الأوامر فأطيع ، فلو كنت منذ البداية وضعت الأمور فى نصابها ، فإما تعادلٌ وإما انفضاض ، لحدث أحد الأمرين بغير إجحاف ، فمن الإنصاف أن يكون الكبير كبيرا لأنه كبير ، وأن يكون الصغير صغيرًا لأنه صغير ، وأما أن يزداد الصغير صغرا ليزداد الكبير كبرًا ، فذلك ما أسميه إجحافا .

٣

والحق أنى سرعان ما وجدت أن هذا التباعد بين الكبير والصغير ، هو دستور التعامل بين أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فقد كان من هؤلاء الأعضاء فئة من قادة الفكر وأعلام الأدب ، كما كان منهم مثلى من البادئين عند أول الطريق ، ولقد كنت توهمت عند انضمامى لتلك اللجنة أن الطريق قد أصبح مفتوحا أمامى لأندمج فى هؤلاء القادة والأعلام ، لكننى لم ألبث أن وجدت الزمالة عسيرة الأسباب ، إن آلهة الأولمب لا يهبطون من قمتهم الشاهقة ، بما ظننت من سهولة ويسر ، نعم إن أعضاء اللجنة هم من الوجهة النظرية

أعضاء أسرة واحدة ، لكنهم كجزر الأرخبيل . تقوم كل جزيرة وحدها ويحيط بها الماء من كل أقطارها ، فلم أبادل الأرباب حديثا ولم يبادلوا ، وجلست معهم لا كما يجلس الزميل ، إذ تبينت أن الأرباب أشد من سواد الناس حرصا على أن يظل الأمر بينهم درجات ، فلا يصغر الكبير من أجل الصغير ، ولا يكبر الصغير ليستوى مع الكبير ، وأوشك كل أن يضرب حول نفسه نطاقًا من حراس وحُجّاب حتى لا يظن ظان أن الملتقى سهل يسير.

وأقف هنا مع القارئ وقفة قصيرة ، أنقل له فيها نموذجا مما كتبته عندئذ لأعبر عما اضطرب بين جوانحى من مشاعر ، وهى مشاعر إن تكن فى هذه الحالة خاصة بفرد واحد ، إلا أنها فى حقيقتها تعكس ضربا من التفاوت بين الأفراد فى حياتنا ، أكاد ألا أجد له مثيلا فى شعب آخر ، حتى بين الشعوب التى يصفونها آنًا بالتخلف ، وآنًا بالتنامى ، وهو تفاوت يصبح محالا معه أن يعرف الناس معنى للمساواة ، مهما ترددت هذه الكلمة على ألسنة المتكلمين وأقلام الكاتبين ، فقد كتبت تحت عنوان « ذات المليمين » (وهى قطعة من النقود كانت فى تلك الأيام متداولة بين الناس) كتبت مايلى :

« لست أدرى متى وكيف تسللت هذه القطعة ذات المليمين إلى نقودى ، ولكن الذى أدريه فى يقين هو أنها بقيت هنالك شهرا كاملا تنتقل معى حيث أنتقل ، وتسير حيث أسير ، تحاول جاهدة أن تجد سبيلها إلى الإنفاق ، وأنا أغالب طبيعة البشر فأعاونها على ذلك فلا أجد لها السبيل ، ولعلك تدرى شيئا من هذا الصراع الدائم . القائم بين المال وصاحبه ، هذا يشد المال إلى جيوبه شدا لا يريد له أن يشهد النور ، والمال يبتغى لنفسه أن يتنفس الهواء الحر الطليق ، فيجرى دافقا سيالا بين أصابع المتعاملين ، تارة تمسه أيد ناعمة ،

لكنها تستخف به وتزدريه ، وطورًا تظفر به أيد خشنة . لكنها تتقبله قبولا حسنا وتكرم له المثوى ، وإن ذلك لمن عجب الحياة الذى لا ينقضى ، فإن طاب لك المأوى ألفيت به الشوك والحسك معا . يستذل النفوس ، ويؤجج الصدور ، وإن التمست لنفسك العزة . ألفيت مأواك خشنًا غليظا ... ومهما يكن من أمر . فقد ألحفت هذه القطعة تنشد لنفسها الفكاك ، وغالبت نفسى وعاونتها على الإنفاق ، ولكن كان لها القدر بالمرصاد .

فهأنذا عند دار السينما أضرب بمنكبى مع الضاربين ، لعلى أجد السبيل إلى شباك التذاكر ، وقد ضربت حوله زحمة الناس نطاقا يخنق الأنفاس ، وأين من هؤلاء القوم من يواتيه حظه السعيد فيبلغ عتبة الشباك ؟ إن عيون المتزاحمين لتكاد تفتك به من حسدها له على توفيقه فتكا ،... وحان الحين وكنت أنا المرموق بهاتيك العيون الفواتك ، ووقفت أمام الشباك أملأ عارضته بمرفق ، ولكننى أسرعت الحركة والكلام لتطمئن نفس المنتظرين الناظرين فلا يحقدوا ؟ وضربت يدى فى جيبى وأخرجتها ، فقذفت بما أخرجت لبائعة التذاكر فإذا بها ذات المليمين تتحرك على رخامة الشباك فى رعونة الأيفاع .

وجلست فى مقهى مع طائفة من الأصدقاء ممن لا تزال بينى وبينهم حواجز الكلفة قائمة ، يحاول كل منا أن يستر من نفسه الفقر والجهل والضعة ، ليظهر الثراء والعلم ورفعة المكانة بين الناس ، وجاء الخادم ليتقاضانا مما شربنا ، فتسابقت الأيدى مخلصة إلى الجيوب ،– ياليتها تدرك أصحاب المسغبة بعشر معشار هذا الوفاء لأصحاب اليسار !– فهذا موقف من المواقف النادرة التى ينعم فيها من يثبت للآخرين غناه ، وأخرجت كل يد مافيها على المنضدة فى سرعة متلهفة ؟ فقذف واحد بريال قوى العضلات صداح الرنين ، ونشر آخر جنيها

من الورق بين إصبعيه ؟ وقذفت على المنضدة بما حملت يدى مع القاذفين ، فإذا بنصف ريال يأخذ مكانة لا بأس بها بين القذائف ، ولكن دارت إلى جانبه ذات المليمين ، فحطت من قدره وقيمته . وشاء الحظ العاثر أن تتعثر هذه القطعة المنكودة فى دورانها حتى هوت إلى الأرض فى رنين ضئيل . فانحنى أحد الأصدقاء إليها وردها إلى ، فأخذتها والجبين يتندى من الخجل . فليس يشرف المرء فى مثل هذه المواقف أن يضم جيبه شيئا من ذوات الملاليم .

وكنت أجالس فئة من رفاق ، وأرادت المصادفة أن يدور بيننا حديث أخذ يشتد فيه الجدل ويشتد حتى اضطرم واشتعل فجاء زميل يجمع منا قدرا من المال نحسن به على خادم طاحت يد المنون بزوجه ، وعجزت دراهمه أن تقلقل الجثة من سريرها إلى القبر ، فجاءنا يطلب الإحسان – والموت يقسو على الفقير كما تقسو عليه الحياة ، فلا هو إن عاش حي بين الأحياء ، ولا هو إن مات واجد سبيلا ميسورة إلى مراقد الموتى – ودار الزميل الكريم يلقف من الأصابع ما امتدت به ، ومددت أصابعى ذاهلا مشتغلا بما أنا فيه من الجدل ، وقد كدت أنتصر ، وإذا بالزميل يبتسم لى قائلا : لا بأس ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ،وضحك الحاضرون جميعا ، ونظرت فإذا بذات المليمين بين إصبعيه . فجذبتها فى حركة عصبية سريعة ، وفمى يتمتم ألفاظ الأسف ، وأخرجت ضعف ما أحسن به الآخرون لأعوض هذه السقطة . فمن أمثال هذه السقطات ترتسم شخصية الرجل فى أذهان الناس .

حقًّا إن العرق دساس ومن تجرى فى عروقه دماء النذالة والضعة ، هيهات يخفى عن الناس طويته ، فالنفس لابد يوما مفضوحة بسلوكها . ولو حاولت أن تسدل على مكنونها ألف ستار وستار . فهذه القطعة ذات المليمين – فيما يظهر –

قد استغلت شبيها بذات القرشين استغلالا دنيئا خسيسا ، وأشهد الله أنى من إجرامها برىء ، فقد عن لى يوما أن أسلك نفسى فى زمرة الوجهاء ولست منهم – فى عير ولا نفير – فركبت الترام فى الدرجة الأولى ، وجاء الكمسارى يجبى من الراكبين الأجور ، وكنت منه فى أقصى المقصورة . فمددت له يدى بذات قرشين وأراد أحد الراكبين أن يعيننى على ما قصرت عنه ذراعى . فأخذ منى قطعة النقد ليعطيها للعامل . ورأيته ينظر إلى القطعة فى يده ثم إلى ، ولكن أدبه قد شاء له ألا يتدخل فى أمر لا يعنيه . وناولها إلى بائع التذاكر ، فنظر إليها الرجل وقال : ما هذا ؟ فقلت : خذ قرشا وهات قرشا . فقال : عشنا ورأينا ذات المليمين تلد من جوفها القروش ! فأدخلت يدى إلى جيوبى فى رعشة الخجل . وأصلحت الخطأ ، وقدمت إلى الرجل المعذرة بالابتسام وبالكلام وأردت أن أثبت للجالسين براءتى – ووجاهتى – فأحسنت بذات المليمين إلى فقير قفز إلى سلم العربة يطلب الإحسان ، وانتهى بذلك تاريخ مؤلم طويل لكن الله الذى يضمر الخير فى الشر ، قد أراد لهذه القطعة الخبيثة ألا يذهب عنى بلاؤها بغير درس مفيد ، يبصرنى بناحية من طبائع الناس ، مؤسفة مضحكة معًا .

فقد جلست بين جماعة ذات مساء ، وكان فى الحاضرين أديب شاب لم يتجاوز العشرين ، هو الذى حشر نفسه فى زمرة الأدباء حشرا ، بغير دعوة منهم ولا قبول ، ولست أعلم من ماضيه الأدبى إلا مقالة نشرتها مجلة أسبوعية ، ولو اكتفى بهذا الحد من الأحلام لكان جميلا ، لأن الأحلام الحلوة التى تنفع صاحبها ولا تؤذى الآخرين ، ليس بها بأس ولا ضرر ، ولكن الغرور أخذ من هذا السخيف مأخذا شديدا ، فإذا به لا يكتفى أن يكون أديبا من الأدباء ،

ولكنه – لو أنصف الزمان وعرف للناس أقدارهم – (هذا وسوس له الغرور) لكان فى الطليعة منهم . غير أن شيوخ الأدب (هكذا توهم) يقفون له بالمرصاد ، فلا يخلون بينه وبين النشر ، لأنهم ينفسون عليه ماوهبه الله من عبقرية ونبوغ !... فقلت لنفسى : أليس هذا بين الناس قطعة من ذوات المليمين ، تستغل شبهها بذات القرشين ، فتدس نفسها بين الريالات وأنصافها دسا دنيئا قد يخدع الغافلين ؟

وحدثنى صديق أراد لنفسه الصدارة فالتحق بجمعية ، أعضاؤها طائفة ممتازة من علية القوم ، فخالطهم ، ولكنهم لم يخالطوه ، وهش لهم وابتسم ، ولكنهم تولوا عنه وعبسوا ، فجاءنى شاكيا باكيا من لؤم الطباع الذى يؤلم ويشق ، فقلت له ، وقد تلقيت العبرة من ذات المليمين : اعلم أن فى النقود ريالات ومليمات ، فإن وجدت واحدة من ذوات المليمين نفسها بين الريالات ، فظنت نفسها « عضوا » فى هذه « الجماعة » فأصابها ما أساء إليها وأشقاها ، فليس الذنب ذنب الريالات المتكبرة ، لكنه ذنب ذات المليمين ، لأنها أرادت أن تكلف الأشياء ضد طباعها ، إذ أرادت – خطأ – أن تكون ريالا .

وإنى لأطلب المغفرة من القارئ أن أعدت أمامه المقالة كاملة ، وهى المقالة التى كتبتها فى أواخر الثلاثينيات لأعبر بها عما يحسه صغير وجد نفسه فجأة بين الكبار ، ولقد أردت بإعادة المقالة كلها ، لأجعلها أمام القارئ نموذجا للمقالة « الأدبية » كما كتبتها – وما أزال ألجأ إلى كتابتها أحيانا إلى يومنا هذا – كلما وجدت الموقف يتطلب صورة أدبية معبرة ، ولا يكفيه العرض التحليلى العلمى المجرد .

أخذت هذا التفاوت مأخذ الأمر الواقع ، ومضيت فيا بدأت المضى فيه ، وهو الشركة الأدبية بيني وبين الأستاذ الكبير.

وهكذا كان شأنى عندئذ : أعرض الأفكار نيابة عن أصحابها ، وأتلقى ما أتلقاه من إحسان أو إساءة ، فاذا كان الشأن عند جناحى الأيسر ، وأعنى « الأحدب » فلم يعد خافيا أمامنا أننى أنا والأحدب وزميلنا إبراهيم أضلاع لمثلث واحد ، أدركنا ذلك أو لم ندركه بالوضوح الكافى .

حز فى نفس الأحدب أن يكافح ما يكافح ، حتى لقد كان يعمل من ساعات اليوم الواحد مالا يقل عن خمس عشرة ساعة ، ثم يلقى هذا التصغير بلا مبرر معقول ، لو كان صغيرا فى حقيقته . فلماذا رضى الكبار أن يزاملوه ويشاركوه ؟ فلم يجد أمامه إلا أن ينكمش وينطوى وأن يمسك القلم ليبثه آلام نفسه التى انكمش عليها وانطوى ، فكتب مقالات رامزة ، يفهمها من يعرف طبيعته ، وأما من لا يعرف تلك الطبيعة فيجد فيها ما يجده القارئ لقطعة روعى فيها شروط الإنتاج الأدبى فى فن المقالة .

وكان من تلك المقالات التى لفتت الأنظار ، مقالة عنوانها « البرتقالة الرخيصة » بدأها بأن راح يتغزل فى صفات البرتقالة الجميلة ليأخذه العجب كيف تباع — برغم ذلك — فى الأسواق بأرخص الأثمان ، ولا تلقى من الفاكهانى أقل العناية ، بينما التفاح معطوب وقد يسرى فى جوفه الدود ، ومع ذلك فهو يُلفّ فى الأوراق ويرص فى الصناديق ، ويباع بالثمن المرتفع : « إن البرتقالة لتشبع الحواس جميعًا ، فهى بهجة للعين بلونها ، وهى متعة للأنف بأريجها ، ولذة للذوق بطعمها ، ثم هى بعد ذلك راحة للأيدى حين تديرها وتدحرجها ، ولقد لبست البرتقالة معطفا من جلد جميل ، فإذا ما انتهت إلى

آكلها ، نضت عن نفسها ذلك العطاف الذى لامسته الأيدى ، لتبدو لصاحبها بكرا لم تفسدها جراثيم السوء والمرض ، وهى فوق ذلك كله لم تنس أن تحنو بفضلها على الفلاح المسكين ، لأنها قررت منذ زمن بعيد أن تمنحه جلدها يملِّحه فيأكله طعامًا شهيا ، وليس بالقليل أن يظفر زارع البرتقال بقشوره مادام السادة قد نعموا باللباب ... » — هكذا كتب صاحبى الأحدب وقتئذ ، ليتألم وليسخر نيابة عن صنوه الذى هو أنا .

لا ، لم أكن شبيها بصنوى الأحدب ، ولا كان الأحدب شبيها بى ، برغم هذه العلاقة الغريبة الوثيقة التى كشفت لنا عن نفسها فأظهرتنا وكأننا إخوة من رحم واحد ، وحتى فى المجال الواحد — مجال الفكر والأدب — لم نكن شبيهين ، فأنا أتوارى خلف غيرى من المؤلفين ، وأما هو فيثور داخل نفسه على مثل هذا الطغيان ، ولقد حدث أن انضم إلى اللجنة الأدبية نفسها صديقنا الشاعر فخرى أبو السعود — الذى مات منتحرًا فيما بعد — وكانت طبيعته الثائرة قريبة جدًا من طبيعة الأحدب ، بقدر ما هى بعيدة عن طبيعتى ، فلما رأى تلك العلاقة الاستبدادية العجيبة التى كانت تنظم التعامل بين كبار الأعضاء وصغارهم ، كأنهم الموظفون فى ديوان الحكومة ، منهم الرئيس الشامخ بجبروته ومنهم المرءوس الصاغر المطيع ، أقول إن صديقنا الشاعر حين رأى تلك العلاقة العجيبة قائمة بين أعضاء لجنة أدبية ، حاول — وكأنه أحدب آخر — أن ينفخ فى صدرى روح التمرد . قائلا : إننى لم أعد أطيق أن يتركونى مربوطا أمام المذود انتظارًا لما يجودون به علىّ من صدقات ، وكان فى الحق صادق التعبير كل الصدق بهذه الجملة التى قالها ، لأن الكبار فى تلك اللجنة الأدبية كانوا يعطون الصغار فرصة الكتابة والنشر كما يعطى صاحب المال صدقة لمتسول جلس إلى

جانب الطريق وفتح كفه يستجدى .

— قلت لصديق : وماذا تريدنا أن نفعل ؟

— قال : ننفصل وحدنا وننشئ لجنة أدبية أخرى .

— قلت : يفتح الله عليك وعليّ ، فأنا أعرف الناس بقدر نفسى ، ومادمت على طريق الثقافة أحبو ، فلأدع للأوصياء أن يهدونى سواء السبيل .

قلت ذلك عن إرادة ضعيفة ، لا عن اعتقاد بصدق ما أقول ؟ فكأنما كان صنوى الأحدب ساعتئذ قد كمن بين جوانحى ، وأخذ يصيح لى من داخل نفسى صيحة غاضبة ، بأنى إنما أعبد الأصنام ، وبأن هؤلاء الكبار إنما صار معظمهم كبارا بقلة الحياء لا بكثرة العمل وجودة الإنتاج .

كان واضحاً طوال هذه المرحلة — أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات — أن الفواصل لم تكن حادة بينى وبين صنوى الأيمن إبراهيم : فلئن كان مجاله الخاص الذى يستوعب نشاطه هو العمل العلمى الصرف ، ولذلك فقد كان همه الأكبر فى تلك الأعوام أن يجتاز امتحانات ويظفر بشهادات ، فقد كنت أنا فى الوقت نفسه أقف إلى جواره على حافة النشاط العلمى ، حتى لقد اضطررت أن أتحدث باسمه عندما سنحت له فرصة البعثة إلى انجلترا ، وأوشكت أن تضيع منه بعد أن سنحت ، ثم اضطررت أن أتحدث باسمه ، وأن أضرع بين يدى الكبار نيابة عنه ، لأنه كان فى تحصيله العلمى مشغولا عما يجرى حوله ، وهل كان يتصور بأن هؤلاء الكبار لم يكن فى ضمائرهم ما يمنع من وضع اسم مكان اسم فى غفلة من صاحب الحق ؟

ومع ذلك فهذه أمور لم تكن تثير سخطى ولا سخط ، إبراهيم إلى الحد الذى يشل فاعليتى ويجمد فاعليته ، أما صاحبنا الثالث رياض — أحدب الظهر — فكان كلما لحظ شيئا كهذا تفجر من الغيظ ، وإما أن يصب غيظه هذا

على الورق ، وإما أن ييأس من قلمه وورقه ويلوذ بمخبأ من داره على نحو مافعل أخيل عندما أفرغ غضبه بأن انسحب من حومة القتال إلى ضيعته .

وكان التعبير عن الغيظ بالكتابة طريقته هذه المرة – وإن يكن هذا التعبير قد ظل مختزنا فى نفسه فترة من الزمن قبل أن يسيل مدادا على سن القلم – فكتب بعنوان « أصنام تحطمت » – وإنك لتعرف أسلوب الأحدب حتى من العنوان – يقول : صادفتنى أيام الشباب طائفة قليلة من رجال ، نزلوا من نفسى عندئذ منزلة إكبار لا ينتهى وإجلال ليس بعده مزيد ، ثلاثة منهم أو أربعة كانوا دوما أمام عينى مثلا أتمثل به حين أطلب لنفسى ، أو حين أسوق للناس مثلا ، للرجل كيف يصلب عوده وتتعدد جوانبه وتتنوع نواحيه ، كنت أنظر إليهم نظرة الطفل إلى أبيه ، يراه عملاقا قادرًا على كل شىء : فهو إن شاء أمسك بالقمر ، وهو إن أراد أنزل المطر ، وأرانى بالقياس إليهم قطرة من محيط أو ذرة من جبل ، آه لو كان لى قلم فلان وشهرته ... أو لو كانت لى هذه الحيوية الدفاقة التى لفلان وهذا الأفق الواسع والعلم الغزير ! إن شخصه يملأ الفضاء حتى ليكاد يتعثر به السمع والبصر أنّى مضيت ، وأنظر إلى فلان كيف كسب القلوب بترفعه عن الصغائر وازدرائه لما ينغمس فيه الناس إلى أذقانهم من توافه ، وأين لك مكانة فلان فى هدوئه واعتداده بنفسه حتى لتتوجه إليه الأنظار أينما حل ... ومضت الأعوام وازددت خبرة بالناس وطبائعهم ، ورواقبت عن كثب وفى شىء من الدقة والتفصيل ، بعد أن كنت أنظر من بعيد وعلى وجه التعميم والإجمال ، فأخذ نفر من هؤلاء العمالقة يصغرون ويضؤلون حتى لأراهم اليوم أقرب إلى الأقزام ، كنت أحسبهم أقوياء بنفوسهم فرأيت كيف يضعفون أمام أيسر الدوافع وأصغر ضروب الغواية ... إنها أصنام عبدناها وتحطمت .

الفصل السابع

موت في أسرة الأحدب

١

ازدادت الصلة بيني وبين الأحدب وثوقاً وقربا ، حتى لم يعد أحدنا يستغنى عن أخيه لحظة واحدة ، وقد اطردت معنا الحياة على وتيرة واحدة ، ففترة الصباح للعمل ، وفترة ما بعد الظهر حتى ساعة متأخرة من الليل فى أحاديث ينصرف شطر كبير منها فى أن يقصّ علىّ وأقصّ عليه تفصيلات زياراتنا إلى مواضع حبنا ، حتى لكأنى أزور معه ولكأنه يزور معى ، وتبدل الوضع بيننا ، فلم يعد هو وضع المرشد للمسترشد ، بل أصبح تعاونا بين متساويين فى حياة واحدة ، فما هو إلا أن أوحى الموقف بالمشاركة فى مسكن واحد ، لأنه توقع أن يُزار وكذلك توقعتُ ، وإذن فالخير فى أن نسكن فى منزل أرحب وأليق باستقبال الزائرين .

لبثنا شهورًا — سافر خلالها ابراهيم إلى انجلترا — وتيار الحياة ينساب مطمئنا هادئا ، وكنا عندئذ كمن تحالف مع الزمن ، فلا نحن نشكو ولا هو يفاجئ ، وأوشك الأحدب أن يعتدل ظهره وتستقيم مشيته ، وحدثنى أن مقالاته الأدبية تغيرت نغمتها ، والعجيب أنه وجد أن الكتابة أصبحت أعسر عليه ، فما كان أيسر عليه قبل ذلك أن يكتب ثائرا محطما ضاربا بهراوته حيثما وقعت ، وأما الآن فكلما هم بنقد ثائر لم يجد فى نفسه مددًا ، ولذلك فقد كان يضطر إلى البحث

عن موضوعات لا شأن لنفسه بها ، فيكتب عن مذهب فى الفلسفة أو نظرية فى السياسة أو وجهة من وجهات النقد الأدبى ، متناولا هذا وذاك من خارج لا من باطن نفسه وانطباعات خبرته ، وكثيرا ما أوحت إليه بموضوعات الكتابة رسائل كانت تجيئه من إبراهيم يذكر له فيها أشياء كثيرة مما تصادفه فى حياته الدراسية الجديدة فى انجلترا ، وفى مدى التغير الذى يتحول به عقله من نظر إلى نظر .

كان حبه يختلف عن حبى ، فحبه لسميرة هو الحب بين الأنداد ، بما فى ذلك من بسطة فى الحديث وسهولة فى اللقاء والزيارة ، حتى لأوشكا أن تزول بين نفسيهما الحواجز كما تزول بين الزوجين فيما يختص بوسائل التعبير ، وأما حبى ففيه الحذر والخوف والحرج والتردد ، لأنه برغم راحة النفس وخفقة القلب ، كانت هنالك الحوائل النفسية الكثيرة التى تعرقل خطوتى إليها ، وأكثر منها الحوائل النفسية التى تعرقل خطوتها إلىّ ، لذلك كانت صلاتى وزياراتى أقل حدوثا من صلات الأحدب وزياراته ، ومن هنا كانت أحاديثنا تمسه أكثر مما تمسنى .

وفجأة وقعت للأحدب وقائع اضطربت لها حياة كلينا معا : فإلى ذلك الحين لم يطرأ لى أن أسأل الأحدب عن أسرته لأن أمثال الأحدب من الناس يوهمونك أنهم من أنفسهم فى عزلة تامة عن الكون والكائنات فلا يعنّ لك أن تسأل : من ذا يكون أبوه ، وهل له إخوة وأخوات وأبناء عم وخال ؟ لا يعن لك أن تسأل هذا ، لأنه فرد قائم بذاته تبدأ حقيقته بشخصه وتنتهى بشخصه ، ولا أثر فيه لما بينه وبين غيره من روابط وصلات .

وفجأة جاءنى ذات ليل فى ساعة متأخرة ينهنه بالبكاء ، ويمسح عينيه بمنديله

ويكفّ لحظة وعيناه محمرتان ، ثم يعود فينهنه بالبكاء ، وأنا منه فى حيرة ، لا أدرى ماذا دهاه ، وأسأله فلا يجيب ، فشفتاه — حتى وهو منقطع عن بكائه لحظة — راجفتان ، يحاول بمجهود ظاهر أن يوقف فيهما الرجفة فينهمر فى البكاء ، وهكذا حتى مضت نصف الساعة ، وأخيرا قال وهو يبكى :

— عمى مات ... وهذا ثانى عم لى يموت ، مات أولهما غرقا عند أسوان حين كنت ما أزال طفلا ، أبكى لبكاء الآخرين لا عن حرقة فى نفسى ، وهذا هو الثانى أبكيه من سويداء القلب .

قلت : هل كان مريضا ؟

قال : كان مريضًا بالسكر ، وتعفنت له إصبع فى قدمه اليمنى ، وأخذ الداء يسرى ، فلم يكن بد من بتر ساقه إلى نصف الفخذ ، كنت كل يوم أختطف نفسى من العمل خطفا لأزوره وأرعاه ، وكانت آخر كلمة قالها لى من قلب يحبنى كما أحبه : قالها وهو ينظر إلى ساعة حملوه إلى غرفة العمليات ، وعيناه شاخصتان إلىّ وحدى برغم وجود أخيه وأبنائه بجواره ، إذ قال : أدعو لك يارياض براحة السر وسعادة العيش ، ربنا يسعدك يارياض ياابنى ... وعاد رياض إلى البكاء .

ولبث أسابيع لا يبادلنى حديثه المعتاد ، ولا أجرؤ أن أبادله ، فهو يغيب عنى ، ثم يحضر ليأكل وينام .

وأول ما حدثنى عنه عندما عادت إليه القدرة على مبادلة الحديث هو ملاحظة أبداها عما شهده من جدته ليلة أن نقلت جثة ابنها إلى القرية ليدفن هناك ، قال الأحدب :

سئل سوفوكليز — وكانت السنّ قد تقدمت به : « ماذا ترى الآن فى الحب

ياسوفوكليز ؟ ألا تزال قادرًا عليه ؟ فأجاب : « صه ! نشدتك الله ألا توقظه فى قلبى من جديد ، فكم يسعدنى أن أرانى قد فررت من حبائله ، فأحسّ كأنما فررت من مستبد متوحش مجنون ! » .. ولست أريد فى الحقيقة أن أتكلم الآن عن الحب بل أريد على ضوء هذا الذى قاله سوفوكليز أن ألاحظ لك عما يصيب العواطف كلها من برودة الانفعال مع مرّ السنين ... لقد مات لى عمان ، جاء موت الثانى بعد موت الأول بفترة طويلة ، وشهدت موقف جدتى فى الحالتين — وإن أكن قد شهدت الحالة الأولى وأنا صغير — فكأنما شهدت امرأتين مختلفتين أشد ما يكون الاختلاف بين الناس ، شهدت فى المرة الأولى أمًّا جزعت على موت ابنها جزعا لم أشهد له مثيلا فى كل من رأيت من الأمهات اللائى ثكلن أبناءهن ، شهدت عندئذ أمًّا لا يكاد ينقطع لها بكاء ، تهيم على وجهها أحيانا فى شوارع القرية صارخة نادبة ، وتصوم عن الطعام أياما ، فإن أكلت تعمدت ألا يكون طعامها من أطيب الطعام ، وكثيرا ما كانت تذهب إلى قبر ابنها حيث تقضى اليوم كله والليل كله ، وتأبى أن تفترش غير الحصير الغليظ الخشن ، على أن تكون السماء غطاءها مهما كان البرد قارسًا ، وألدُّ أعدائها هم أولئك الذين يتقدمون إليها بالنصح أو بالتعزية والمواساة ، لأنهم إن فعلوا كان معنى ذلك عندها قصورهم عن إدراك المصاب بكل هوله وفداحته ... ثم شهدت جدتى هذه لما مات ابنها الثانى ، وكانت تقدمت بها السن إلى ما يقرب من السبعين ، وذلك حين نقلنا جثمان عمى هذا الذى مات منذ قريب ، إلى القرية حيث تقيم جدتى ، وحملنا النعش من السيارة إلى بهو الدار ، فرأيت جدتى واقفة فى سوادها — وكان الليل قد انتصف والسكون ضاربا ليشمل القرية كلها فى صمته العميق — وكانت الأضواء خافتة فى الدار ، حتى كاد الأشخاص أمام عينى

يتحولون أشباحا ... وقفت جدتى لحظة شاخصة ببصرها إلى النعش بعد أن وضعه حاملوه على أريكه خشبية فى بهو الدار ، وقفت لحظة صامتة لا تتحرك ولا تنطق ، فلم يسعنا إلا الوقوف معها فى صمت خاشعين ثم صرخت صرختين ، تنطق فيهما بلفظ « يا ولدى » . فكان ذلك كل ماأبدته جدتى من علامات الجزع ، وبعدها جلست هادئة فى المأتم ، لا تصرخ ولا تبكى ولا تندب ولا تلطم صدرا ولا تمزق ثوبا ... لقد تخلصت مع الأيام من حدة الانفعال ، فكانت بمثابة من تخلص من « مستبد متوحش مجنون » على حدّ ما قال سوفوكليز عن حبّه الذى بردت مع الشيخوخة جذوته .

قلت للأحدب : وهل بَردَ حبك اليوم بالنسبة لما كان عليه بالأمس ؟

قال : لقد تغير نوعه ، كان هيجانا على السطح ، فأصبح تغلغلاً فى الأعماق ، كان كالشلال يقفز ماؤه فوق الصخور قفزًا أرعن لا يبالى أى الأحجار يفتت وأيها يزحزح ، فأصبح كماء المحيط العميق عندما يتبدى للعين ساكن الموج وفى جوفه تيارات جوارف .

قلت : أصبت ، ولعل هذه هى مميزات ما يسمونه بغرام الشيوخ ، فهدوء فى حركة الجوارح الظاهرة فلا اندفاع ولا جرأة ولا مغامرة ، ولكن تآكل فى الجوف وانهيار فى الروح .

وصمت الأحدب قليلا كأنه يفكر فيا يقوله ، ثم قال والقتب على ظهره يشتد فى عينى بروزا ، والعبوس على شفتيه والجهامة فوق جبهته :

— الحياة ثلاث لحظات : لحظة الميلاد ، ولحظة الزواج ، ويعنون به النسل الذى يحفظ البقاء ، ثم لحظة الموت .. أما الأولى فكما قلتُ لك ذات مرة ... ... لا ، لا أظننى قلتها من قبل ..

— فقاطعته قائلا : كتبتها فى مذكراتك .

فقال — أى مذكرات تعنى ؟

قلت — أعنى مذكراتك التى كتبتها عن نشأتك وأنت مدرس شاب

قال — ومن ذا أدراك بها ؟ وأين رأيتها ؟ لقد مزقتها منذ زمن طويل

قلت — عثرت على حطامها ، وجمعت منه ما أمكن جمعه ، فعشت معك أكثر مما تظن ، وفى هذه المذكرات تقول إن لحظة ميلادك أدخل فى حياة الآخرين منها فى حياتك لأنك لاتعيها ، والعبرة عندك بالخبرة الواعية .

قال — هذا ما أردت أن أقوله ، وأما اللحظة الثالثة ، وأعنى لحظة الموت فلن يكون لى بها علم ، لأنها تجىء بذهابى ، فلا التقاء بينى وبينها ، وبقيت اللحظة الوسطى ، لحظة الزواج والنسل ، فهى لحظة لم أعشها حتى الآن ، وإذن فماذا بقى لى من حياتى ، وبأى معنى أقول إنى أحيا ؟ أبالأنفاس التى أرددها .

قلت : فى مستطاعى أن أقول هذا الذى تقوله ، ومع ذلك فأنا أشعر فى أصلابى بدفعة الحياة وتيارها ، « فداؤك منك » — كما يقول المعرى — « وما تشعر » بشعورنا نحيا وبشعورنا نموت .

— فردّد الأحدب قولى : « بشعورنا نحيا وبشعورنا نموت » .. ثم استطرد يقول : هذا صحيح ، نخلق دنيانا بنوع شعورنا ، تكون كبيرة فتصغر فى شعور المزدرى لها ، وتكون صغيرة فتكبر فى تهاويل الشعور ... ثم ابتسم الأحدب ابتسامة ساخرة .

٢

توالى الموت فى أسرة الأحدب ، فكلما مضت بضعة أشهر جاءنى بنبأ

جديد ، وكانت النظرة السوداء قد عاودته لتقيم معه هذه المرة أمدًا طويلا ، فلم يكن موت أحبائه ليزيد من حزنه النفسى شيئا كبيرا ، فزوجة عمه تموت بعد زوجها فيكون موتها امتدادا لموت زوجها ، ماتت يوم أحد ، وأسرع الأحدب إلى الأسواق ليشترى رباط رقبة أسود قبل أن يحين حين الجنازة ، لكن الدكاكين كانت حينئذ تغلق فى أيام الآحاد ، فقال لنفسه : وهل يكون الرباط الأسود أشد سوادًا من نفسى ، فالأحزن من الداخل ، وإلى الجحيم مايقوله الأقربون والأبعدون ، لكنه كان يغالط نفسه ، لأنه مازال قلق إلى اليوم خشية ماقد يكون هؤلاء الأقربون والأبعدون قد ظنوه فى عقوقه لمن عاشت له كالأم طيلة حياتها .

ومات أبوه .. صحبه إلى المستشفى ولم يطف بباله قط أنه خروج من الدار إلى غير عودة ، وكأنما جاءت لحظة موته بمثابة النطق بحكمين فى آن واحد ، حكم ببراءة الراحل وحكم باتهام ابنه ، لم تتكشف للأحدب براءة أبيه فيما كان ظنه اعتداء وقسوة ، إلا لحظة أن كشف عن جثمانه الغطاء الأبيض فى غرفة المستشفى ليقبله قبل الرحيل ، فيرى وجهه الميت وكأنه وجهه الحى الذى يعرفه ... كم ألف ألف مرة يتذكر الأحدب ما قد كان أحسه إزاء أبيه من سوء ظن ، فيعض أصابعه عضا من الندم على سوء فهمه ، لطالما يقول الأبناء إن آباءهم لا يفهمونهم وينسون أن الآباء كذلك من حقهم أن يقولوا إن الأبناء لا يفهمونهم

كانت لحظة موت أبيه بداية لضمير الأحدب أن يكيل لنفسه اللائمات لائمة فوق لائمة .. «من ذا يعيده إلى الحياة ولو شهرًا واحدًا لأؤدى له واجب الولاء أكثر مما أديت» — هكذا لبث يقول بعد موت أبيه ، ويسمعه أصغر الإخوة

فيطمئنه بأنه كان يؤدى أكثر مما يؤديه الأبناء لآبائهم ، لكن الأحدب قد وجد لنفسه ذريعة كبرى يتهم نفسه على أساسها ، لأنه يحب اتهام نفسه فيزداد التواء وتعقيدًا على تعقيد .

وإنه ليذكر جنازة أبيه فى هيبتها وقد تقدمتها كوكبة من الفرسان جاء بها ابن عمه الضابط الشاب المتوقد حيوية ونشاطا ، وسار الأحدب فى مقدمة المشيعين مطرقا رأسه نحو الأرض لا يرى إلا قدميه ويضع أقدام أخرى على يمين ويسار ، وقلما كان يرفع رأسه فيبصر بالنعش محمولا على أعناق حامليه فى طمأنينة وهدوء ، ثم يعود فيطرق رأسه نحو الأرض مرة أخرى ، وكان فى إطراقه ذاك كثيرًا مايتنبه لنفسه تنبه المستيقظ من نعاس عميق . ليجد نفسه سارحا فى ذكريات عجيبة يستخرجها من ركام السنين ، فيخجل أشد الخجل إذ يرى نفسه سابحًا فى أعماق ماضيه وجثمان أبيه على بعد خطوة واحدة منه ، لكن لحظة الخجل لا تلبث أن تتملكه حتى تزول ليغوص فى أغوار الماضى مرة أخرى .

فمن سبحاته تلك أنه تذكر كيف أخذته الرغبة وهو غلام فى أن يجمع من الأقفال أكبر عدد يستطيع جمعه ، وأن تكون وسيلته إلى ذلك هى السرقة لا الشراء ، فلجأ إلى طريقة غريبة ولكنها سهلة التنفيذ ، وهى أن يشترى قفلا بادئ ذى بدء ، ثم يدور على كل مكان تقع عينه فيه على قفل من الصنف نفسه ، فيدبّر له خطة أن ينفرد وحده بالقفل لحظة ويفتحه بمفتاح القفل الشبيه ، ويأخذه ويمضى ، ومن ذلك أن خزانة الأوراق التى لم يكن يعلم ما كنهها ، خزانة الأوراق أمام مكتب الإدارة فى مدرسته الابتدائية وهو تلميذ صغير ، كانت مقفلة بقفل أراده لنفسه ، فبحث حتى وقع على شبيهه فى السوق

واشتراه ولكن متى ينفرد بتلك الخزانة والمدرسة مليئة بالتلاميذ والخدم والموظفين؟ إن ذلك لا يكون إلا فى ساعة مبكرة من الصباح قبل أن يتنبه أحد . وتسلل إلى الردهة حيث وضعت الخزانة التى ضُمّ مصراعاها بالقفل المنشود ، وفى خطفة أسرع من البرق فتح القفل ، وانتزعه ، وأسرع الهبوط على السلم المجاور ، فسمع المصراعين ينفتحان ويخبطان على الحائط خبطة مفرقعة ، فقد كانت الخزانة تميل على قفاها إلى الخلف ، إذ رفعت قائمتاها الأماميتان على مربعين صغيرين من الخشب ، دون قائمتيها الخلفيتين ، مما أدى إلى انفراج مصراعيها بهذه السرعة وانقذافهما إلى الخلف وخبطتهما المدوية على الحائط ، وكان للص الصغير شعور النصر شجعه على التماس نصر آخر فى اليوم نفسه على قفل لمحه بين أقفال التلاميذ شبيه بما عنده ، وعاد إلى داره وفى جيبه قفلان أضافهما إلى ما عنده ، فأصبحت ثلاثة أقفال من أسرة واحدة ، لم يدر ماذا يصنع بها ، سوى أن يوزعها على جيرانه الصغار ، وعليهم هم أن يجدوا لها المفاتيح .

فلما أشبع فى نفسه هواية الأقفال ، اشتهى منافيخ الدراجات ، فللدراجة منفاخ يركّب محاذيا للقائمة المعدنية التى عليها يستند المقعد ، وماأيسر أن تنتزعه يد السارق من مكانه لو واتته الخلوة التى تنجيه من أعين الناظرين ، ودراجات التلاميذ تصطف صفوفا فى مكان لها معين يحاذى سور المدرسة من الداخل ، فاذا وجد السارق الصغير فرصة يخلو فيها إلى بغيته فأين يخفيها بقية اليوم الدراسى؟ وتفتق ذهنه عن حيلة بسيطة تنجح أحيانا وتخفق أحيانا ، وهى أن يقصد إلى مكان الدراجات فى اللحظة المناسبة ، وينتزع أقرب منفاخ إلى يديه ، ثم يقذف به خارج سور المدرسة فى الطريق — وهو طريق بعيد عن حركة المدينة

فيقل فيه المارة من الناس ، حتى إذا ماخرج آخر اليوم الدراسي ، بحث عن الفريسة ، ويغلب أن يجدها ملقاة على الجانب الرملي من الشارع ، فيدسها في حقيبة كتبه ويمضي .. وماذا يصنع بهذه المنافيخ التي تجمعت لديه ؟ إنه يوزعها على من شاء من الأصدقاء الصغار ، ولم يكن له ولا لأحد من هؤلاء الأصدقاء الصغار دراجة حتى يحتاج لها إلى منفاخ .

كانت تلك هي السن نفسها التي يقرأ فيها مع لداته أو يسمع القصص عن « طاقية الإخفاء » ، ولكم سرح بخياله بعد أن ألبس نفسه طاقية الإخفاء بوهمه ، فيدخل على الناس في بيوتهم ليستمع إلى أسرارهم وهم لا يشعرون ، ويستوى على موائدهم فيأكل وهم لا يعلمون ... أي شهوة اشتهاها ذلك السارق المتسلل ولم يحققها بطاقية الإخفاء إذا تعذر تحقيقها في الواقع المحسوس ؟ لقد بلغ الحلم واشتعلت شهوته ، فماذا يكون السبيل أمامه إلا أن يلبس لهن طاقية الإخفاء ويتسلل إلى مخادعهن ولو كنّ في حصون محصنة ... وكبر وقصد ذات يوم إلى متحف الفنون ، فإذا هو يقف أمام صورة لفنان معاصر نسي اسمه ، لكنها صورة تصور مدخل بيت وجانبا صغيرا من الدّرج الخشبي المؤدى من المدخل إلى الطابق الأعلى ، على غرار ما نراه في بيوت أوربا ، وعلى بضع الدرجات الخشبية التي ظهرت في الصورة امتدّ بحذاء الحائط ثعبان ثنى جسده مع زوايا الدرجات ، حتى تدرج معها ممتدًّا من المدخل إلى الدرجة الرابعة أو الخامسة ، والصورة رائعة رائعة رائعة بألوانها وبالضوء والظل فيها ، هي من الفن الواقعي برغم كونها لفنان حديث ، فوقف أمامها صاحبنا طويلا ، وفجأة وثبت إلى ذهنه الأقفال والمنافيخ وأحلام طاقية الإخفاء أيام أن كان غلاما صغيرا فشابا مراهقا ، وابتسم للذكريات ، وقال : أتكون هناك طرق أخرى للتسلل

إلى بيوت الناس وأسرارهم يسلكها المتسللون ؟

وصحا من غفوته الطويلة ليدير البصر فيا أمامه وما حوله فى جنازة أبيه .

وماتت أمه الحبيبة التى تعلّم منها كيف يكون الحب خالصا لوجه الحبيب ، والتى عنها أخذ صفاته الخلقية كلها ، ماتت من كانت تزيل عنه هموم نفسه ، فإذا راكمت له الدنيا من صدماتها ما ينقض ظهره ، أزاحت عن ظهره ما استطاعت من أحمال .

وجفت فى عينه الحياة فلا رىٌ ولا نضارة ، يرى نفسه فى الحلم أنه يعبر نهر النيل ، ويستعد لخوض الماء ، لكن واعجباه إنه لا ماء ، والقاع جاف ، عليه علامات تدل على أن كانت هنا مياه تجرى ، ويمشى على القاع الجاف مشية وئيدة ، يمشى خطوة خطوة ، ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شىء ضاع ، فلا يرى إلا الحصى وآثار جريان الماء ، وفجأة يجد شيئا معدنيا يلمع ، إنه مبراة غُرزت فى التراب إلى نصفها ، وبرز نصفها ، إنها مبراة أبيه ، فيلتقطها ويضعها فى جيبه ثم يمشى مشية وئيدة ، يمشى خطوة خطوة ، ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شىء ضاع ، حتى يصل إلى الشاطئ الآخر ، فيصعد ما يشبه المرتقى الوعر ، يصعد حانيًا جسده إلى أمام حتى لا يهوى من خلف ، يصعد ليرى أنه فى مدينة الموتى ، جفاف فى جفاف ، وهناك يرى عربة ، ولكن أى عربة ! عربة كلها حجر فى حجر ، هى أشبه بالصندوق الكبير ، انكشف غطاؤه الأعلى ، والصندوق من حجر خشن ، والعجلات من حجر مصمت ، والحصان المشدود إلى العربة من حجر غليظ ، ثم ماذا ؟ ثم ينظر فى الصندوق الحجرى فيرى جثمان أمه وقد غطى على نحو ما ألف المومياء عند المصريين القدماء ، وبينا هو عالق بحافة الصندوق ينظر ، إذا بالعربة الحجرية تسرع

جارية بين منازل الموتى ، تدور إلى اليمين فى هذا المنعطف وإلى اليسار فى ذلك المنعطف ، فتثير من الغبار وحبّات الرمل ما يكتنف العربة كلها ، ويملأ خياشيمه وفمه ، ويدير وجهه إلى الخلف فلا يرى إلا سحابة كثيفة من الغبار وحبّات الرمل ، ويشدّ أنفه فلا يتنفس ، فيتنفس من فمه ، فيشهق هواء مليئا بالغبار وحبّات الرمل ، كل هذا وهو عالق بذراعيْه على حافة الصندوق ، وجسمه مُدَلّى يتأرجح مع سير العربة السريع ، فيخبط العجلات الغليظة وهى تدور.

ويصحو من هذا الحلم الفظيع ، قائلا : اللهم اجعله خيرًا ، ولكن أى خير ياترى يرجى من هذا الجفاف واليباب والموت ؟

يقصّ علىّ الأحدب هذا الحلم ، ثم يقول : لقد حاولت عندئذ أن أفسره على النظرية الفرويدية فى تأويل الأحلام ، فقلت إن مبراة أبى التى وجدتها إلى نصفها مغروزة فى قاع النهر الذى جف ماؤه ، هى رمز الذكورة التى أورثنيها ، والتى ربما كانت فى حياته مكبوته وهمّت الآن بالظهور ، لكن مجرى الحياة قد جف ماؤه ، وبهذا الجفاف وقفت سلسلة التوالد ثم ماذا وجدت حين عبرت إلى الضفة الأخرى ، الضفة الغربية التى كانت هى المستقر الأبدى عند أجدادى القدماء ، وجدت مواتا فى موات ، لم يكن هناك كائن حى واحد ، ولكن لماذا أرادت أمى فى كفنها أن تشدنى معها إلى عالم الموتى وبهذه الطريقة البشعة المخيفة ؟ لقد كانت عودتنى طول حياتها أن ترعانى من الأذى ، حتى وأنا رجل مكتمل النمو ، ترعانى كأننى مازلت فى عينها الطفل الضعيف الذى تهدده العوادى ، أتكون قد أسرعت بعربتها وتابوتها لأنها فى عالم الغيب قد لمحت بروحها الخالدة خطرًا داهما يحيق بى فجاءت لتنقذنى منه قبل وقوعه ... لست أدرى ، لكنى على كل حال قمت لساعتى ، وبحثت عن مبرأة أبى فى مخلفاته ،

فوجدتها صدئة بعض الشيء ، فنظفتها ، أرهفت نصلها ، وخبأتها فى خزانتى ، ومازلت حتى اليوم أحملها معى كلما ارتحلت هنا أو هناك ، لكنى ما مستها مرة إلا وتذكرت ذلك الحلم المخيف وأخذتنى الرجفة ، وما وقعت عينى عليها مرة فى أدراج مكتبى إلا ونحيت عنها وجهى بحركة آلية سريعة ، لكننى سرعان ما أضحك من ضعفى أمام الخرافة ، إنما كانت أضغاث أحلام ومضت مع الريح .

لكنها أضغاث أحلام جاءت متكاثرة بعد أن فقد الأحدب رءوس أسرته ، واندسّ فى ضميره أنه هو وأقرانه من الطبقة الثانية فى الأسرة قد أزيل السقف من فوق رءوسهم ، وأصبحوا أمام الخلاء اللامتناهى المجهول وجهًا لوجه .

لكن أقدار الحياة والموت لا تجرى بالضرورة مع حساب الأعمار ، فقد ظن الأحدب أنه هو وأقرانه فى السن من أفراد الأسرة قد جاء دورهم للقاء ربهم بعد أن ذهب عنهم معظم من كانوا يكبرونهم من الآباء والأمهات ، لأنه لم يكن يدرى أن مشيئة الله قد سبقت بأن يموت شباب الأسرة قبل كهولها .

وبدأ السير فى هذا الاتجاه العكسى بابن عم الأحدب ، الضابط الشاب الذى أوشك أن يكون بين شباب الأسرة صفوة وخلاصة ، نعم ، لقد كان ذلك الضابط الشاب مع الأحدب على طرفى نقيض فى الاتجاه والميل ، فبينما الأحدب فيه شيء من طبيعة الشاعر والفنان ، كان ابن عمه الشاب لا تربطه بدنيا الشعر والفن إلا أنها موضوع للهزء والسخرية . وكان الأحدب مكبا معظم وقته على الكتب والدفاتر ، وأما الضابط الشاب فبينه وبين الكتب والدفاتر ما يكون بين الأعداء ، وإن الأحدب ليذكر يوما أضحكه فيه ابن عمه ضحكات من القلب ـــ وهو حدث نادر فى حياة الأحدب ـــ حين جاءه ابن

عمه خلال السنة الدراسية التى قضاها الشاب فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب ، قبل التحاقه بكلية الشرطة ، جاءه ليقصّ عليه ساخرًا بعض ما كان يتلقاه فى محاضرات الأدب الإنجليزى ، وكان المحاضر أستاذا انجليزيا مشهودا له بالكفاءة الممتازة – لأنه هو نفسه شاعر بالإضافة إلى كونه أستاذا للأدب لكن الشاب لم يكن يفهم عنه كلمة واحدة ، وكانت الأسماء والمصطلحات تتحول فى سمعه لتصبح أمساخا شائهة ، فلما أخذ يقص على الأحدب بعض ماحصله عن « العصر الأليسا » راح الأحدب يسترجعه محاولا أن يدرك المقصود بهذه الأسماء التى لم يسمعها من قبل ، ويظل يلح عليه فى السؤال حتى يتبين له أن « الأليسا » هذه هى مابقى فى سمع الشاب من « الزابث » ، وأن كنير ، هو الملك لير ، وأن « كبيس » هو ماكبث ، وهكذا كان الأمر فى عشرات الأسماء كما وردت فى مذكرات الضابط الشاب عندما كان طالبا للأدب الانجليزى خلال بضعة أشهر .

لا ، لم يكن ذلك الشاب مخلوقا لعلم أو أدب ، وإنما أراد له خالقه أن يبرع براعة تلفت الأنظار جميعا فى أدائه لواجبات الضابط الشرطى ولذلك لم يكن عجيبا أن أخذ يقفز فى المناصب والدرجات قفزا سريعا ، وهو بعد لم يبلغ الثلاثين .

وسافر الأحدب . ليغيب فترة من الزمن ، وكان مقدرا لقطاره أن يغادر محطة القاهرة قبيل طلوع الشمس ، ولذلك اكتفى دور قرباه وأصدقاؤه بتوديعه فى الليلة السابقة ، حتى لا يكلفوا أنفسهم مشقة اليقظة المبكرة يوم سفره ، لكن كم كانت دهشته وفرحته عندما فوجئ بابن عمه الشاب يذهب إلى المحطة لتوديعه فى تلك الساعة الباكرة ، وكان هو الواحد الوحيد الذى وقف لتوديعه

حتى يتحرك القطار ... فواعجباه للأقدار وما تدبر ! مضى من الزمن مامضى ثم ذهبت الأنباء الحزينة إلى الأحدب حيث كان تحمل له الخبر بأن ابن عمه الضابط الشاب قد اختاره الله الى جواره ، وصعق الأحدب للمفاجأة ، وأخذته نوبة حادة من البكاء ، ورأته سيدة مصرية فى غمرة بكائه ، وسألته فقصّ عليها ، فعجبت السيدة أن يكون هذا البكاء كله لوفاة ابن عم ؟ لكن المسألة ياسيدتى ليست مرهونة بدرجة القربى كما هى الحال فى توزيع التركات ، لأن للقلوب وروابطها ترتيب آخر ودرجات أخرى ، ثم أخذ الأحدب يسأل نفسه فى حيرته : أكان ذلك إذن هو السر الإلهى فى أن الضابط الشاب دون سواه من الأقربين والأصدقاء هو الذى ذهب إلى المحطة فى تلك الساعة الباكرة لتوديعه . فهل كان ياترى يحس بقلبه أنه وداع أخير.

وماكاد الأحدب يعود إلى مصر . حتى سأل عن قبر ابن عمه ليزوره — فقد كانت مقبرة الأسرة حتى ذلك التاريخ فى قريتها بالريف ، فلما عاجلت المنية زينة شبابها ، التمسوا له مثوى عند من استضاف الجثمان فى مدفن أسرته ، وحز فى نفس الأحدب ماسمعه من تفصيلات . وكأنما الذى رحل عنا شريد مقطوع من شجرة كما يقال ، فما كان من صاحبنا الأحدب إلا أن يعمل على أن تكون للأسرة مقبرتها بالقاهرة ، مادام الانتقال إلى القرية قد تعذرت أسبابه ، ونقل جثمان الفقيد الشاب من مكانه ليكون أول من يرقد من أبناء الأسرة فى مدفنها الخاص .

وجاءت الضربة الثانية لتكون أفدح ، فقد أصابت المنايا بخبطها العشوائى أصغر أشقاء الأحدب ، بعد أن كان هذا الأحدب يتوهم أن مقادير الحياة والموت تجرى مع حساب الأعمار ، كان بينه وبين شقيقه الأصغر ما يقرب من

عشرين عاما ، وإنه ليذكر جيدا ذلك المساء الذى كان فيه يجلس مع أبيه ترقبا لنبأ الوليد الجديد ، وجاءت البشرى بأن ولد لنا ولد ، وفى هدوء عجيب التفت الوالد إلى ابنه الأحدب يسأله : ماذا تسميه ؟ فأجابه الأحدب : نسميه أحمد ، وقد كان .. لم تكن حياة أحمد بالنسبة للأحدب ماتكون الحياة بين شقيقين وكفى ، بل اختلط فيها عنصران واندمجا معا فى موقف شعورى واحد ، هما عنصر الأبوة وعنصر الأخوة ممتزجين ، ولا يستطيع الأحدب أن يقص شيئا عن حياته فى الفترة التى تلازما خلالها ، إلا ويجد نفسه فى حياة واحدة مع شقيقه الأصغر ، فذلك الشقيق هو موضع جده وموضع مزاحه فى وقت واحد ، هو موضع جده لأنه جعل نفسه مسئولا عن تربيته على نحو يميل به إلى حب العلم والأدب ، وهو موضع مزاحه لأنه عامله كما يعامل اللاعب لعبته .

كان أحمد فى مرحلة الدراسة الابتدائية عندما وضع له الأحدب خطة التزود بالأدب ، ورأى أن يبدأ معه بأدب المنفلوطى ، ولم يترك الغلام ليقرأ وحده مايقرؤه ، بل لازمه وتابعه لفظًا لفظًا شارحًا له المعنى مرة ، موضحًا له مواضع الجمال الأدبى مرة ، ولعل الأحدب فى ذلك كله قد أحسن النية ولكنه أساء الاختيار والتصرف ، إذ ماهو إلا أن أخذت الغلام رجفة وانفجر معها باكيا فى توتر عصبى غريب ، ولم يدر الأحدب ماذا يصنع ليرد الغلام إلى هدوئه وسكينته ، فلما أن هدأ الغلام وسكن وغاب فى نعاس لبضع ساعات ، صمم الأحدب ألا يكون له شأن بأخيه بعد ذلك فيما يقرؤه وما لا يقرؤه

لكن الغلام كان بطبعه متفوقًا ومتميزًا فى كل ناحية من نواحى حياته ، فهو فى دراسته ممتاز ، وهو فى رياضيته ممتاز — كان هو بطل التنس فى مدرسته الثانوية — وهو فى علاقاته الاجتماعية ممتاز ، ففضلاً عن كونه مركز اهتمام الأسرة

بجميع أفرادها ، كان ذا نشاط ملحوظ فى « الكشافة » وفى « الجوالة » وله زمرة طيبة من الأصدقاء يحبهم ويحبونه .

غير أن الطبيعة البشرية تستعصى على التنبؤ فيما يبدو ، فآخر ما كان يتوقعه الأحدب فى أخيه أن يراه — وكان فى نحو السابعة عشرة من عمره — قد تغير من النقيض إلى النقيض فى كثير من جوانب حياته ، فبين عشية وضحاها انقلب الشاب المرح شابا غارقا فيما يشبه الحزن العميق ، الذى تسكن فيه الجوارح وتهدأ الحركة ويقل الاهتمام بأى شيء ، بين عشية وضحاها تبدلت الضحكات البريئة المرحة عبوسًا وزمًّا للشفتين وهموما تطفئ بريق العينين ، ما الذى أصاب فتانا ومصدر بشرنا وموضع رجائنا ؟ الله وحده أعلم ، فالأحدب إلى هذه الساعة لا يعلم ، لكن ذلك التحول المفاجىء العجيب كان كذلك نقطة تحول فى علاقة الأحدب بأخيه ، فلم يعد يستطيع بعدها أن يجعل منه لعبته كما كان يفعل قبل ذلك ، ولم يعد يجرؤ على التعامل معه على أساس أنه مايزال طفلا يجوز التحدث إليه بما يتحدث به الراشدون مع الصغار ، وبقى من العلاقة بينهما ذلك الحب الأخوى الصادق العميق ، وذهب منها جانب الوصاية والوقاية

وكرت الأعوام ، وأصبح الشقيق الأصغر طبيبا ، تشيع عنه حينما حل قصص تروى عن طيبة قلبه وشدة عطفه على مرضاه ، والحق أن ذلك الشقيق الأصغر قد اجتمعت فى طباعه تلك الخصائص الأساسية التى تميز أفراد أسرته جميعا ، لكنها اجتمعت فيه مكثفة فى حسناتها مبرأة من سيئاتها ، فهو متدين ، متسامح ، عطوف ، هادئ على شيء من الانطواء ، لا يعتدى ولا يخدع ، تعامله فتعامل إنسانا من البلور ، لا يخفى شائبة ولا يستر عتامة ، فهو — كما يقول الناس — جنيه من الذهب — تعرفه فتعرف قيمته .

كان أصغر الأشقاء بهذه الحسنات وأكثر منها ، وكان لأخيه الأحدب حبة قلب وقرة عين وموضع زهو ومنبع حب ، لكن هل تغفو عنه عين القدر لينعم بحياته صحيحة سليمة ؟ كلا ، بل أصابه بالعلة التى أخذت تستفحل وتستعصى ، حتى انتقلت به إلى رحاب الله .

وهكذا خاب ظن الأحدب فى تصاريف القدر – عندما توقع – بعد موت الكبار – أنه هو وأقرانه فى العمر قد حل دورهم ، فقد كتب له – أو كتب عليه – أن يذهب من الأسرة شبابها قبل كهولها ... هكذا بالحرف الواحد سمعت الأحدب يقول فى جمع من الناس بصوت مسموع ، يوم رأيته فى مأتم ابن عم له سقط – رغم شبابه – فى مكان وقوفه ميتا .

كنت أعلم أن الأحدب يواصل الكتابة فى المجلات الأدبية . وتابعت قراءة ما يكتبه مرة كل أسبوع ، وكنت أزداد حزنًا كلما ازداد تعبيرًا عن طوية نفسه وما يحز فيها من ألم ، لقد كنت حسبتنى وقعت على سره الذى يفسر لى شذوذه وانعزاله ، لكنى تبينت أننى لم أعرف عنه بعد إلا القليل الذى لا يفسر لى هذه السياط التى راح يلهب بها جلده لغير سبب ظاهر ، نعم إن الموت قد دب فى أسرته حتى أطاح برءوسها فذهبت عنه الدرع الواقية وتعرى صدره للفحات الهواء ، ولكن هل هذا وحده يفسر أن يكتب فيقول :

« لقد عصفت العواصف بنفسى ، وتجهم الأفق أمام عينى ، ورأيت خريف عمرى يتساقط أمامى على الأرض أوراقا صفراء يابسة ، كنت أسمع لها خشخشة كأنها حشرجة المحتضر.. ونظرت فإذا بقيتى – بعد جهاد طويل – حطبة جافة من ساق وفروع ، تعرّتْ عن الورق والزهر والثمر ، تعوى فى ثناياها الريح عواء الأمعاء الجائعة ، وليس على مرمى البصر فيها إلا اليباب ...

فخلخلت التراب حول الفروع والساق ، وحملتها تجاه الغرب إلى طرف ناء من الصحراء ، حتى إذا ما أغمضت الشمس جفنيها من غروب ، أشعلت النار فى بقيق – وبقيق حطبة يابسة – فتراءت من بُعد أمام عينىّ العشواءين كأنما هى الشمس قد عادت إلى الشروق ، لترسل من حر أنفاسها شعاعا جديدًا ، قبل أن تعود إلى مهدها فى ظلام الغيب ... »

. فهاهنا أيضا – كما كانت حاله عندما عرض جانب اللص من نفسه – أردف بنهاية فيها بصيص من أمل ، هناك رأى صورة الثعبان المتسلل فوق الدرج ، فتعزّى بأن هناك صورا أبشع مما عهده فى نفسه من تسلل إلى بطون الناس فى الخفاء ، وهنا يحرق حطام نفسه اليابسة ، فيتوهم ، فى آخر لحظة – أن ضوء الحريق هو ضوء شمس آذنت له بشروق جديد ... وظللت أسأل نفسى : ماذا دهاه عندئذ حتى عادت إليه علته بعد اقترابه من العافية ، ثم ماذا يصادفه فى غضون بلواه فيراه بصيصا خافتا من أمل ؟

قرأت له ذات يوم مقالا كتبه بمناسبة يوم ميلاده يقول فيه :

« لقد سألت نفسى : لو أرخت لحياتك ودونت مامر بها من حوادث ، فماذا أنت ذاكر ؟ إن من الرجال من يكتبون قصص حياتهم فإذا هى حافلة بأحداثها ، تقرؤها فكأنما تقرأ قصة من خلق الخيال البارع ، فأين من ذلك ما عشت من حياة فارغة جوفاء ؟ وهنا رأيت الشبه ماثلا بينى وبين ساعى البريد : أرأيت كيف ينفق هذا الرجل حياته ساعيا بين الناس ببريده ؟ إنه لا يمس « الظروف » إلا من ظاهرها دون أن ينفذ إلى قلوبها ولبابها ، إنه لا يعلم من الرسالة إلا عنوانها أو بعض عنوانها ، فأين ذلك من صاحب الخطاب ؟ إنه يفض غلافه ويمس شغافه ، ويقرأ السطور وما بين السطور ، إنه يستروح من

كلماته أنفاس الحبيب ، أو هو ينظر إلى الألفاظ فإذا هى ألحاظ الصديق ناظرة إليه تباسمه وتناجيه .. لكأنى من هذه الحياة إزاء مدينة حصينة سُورت بمنيع الجدر ولكأنى منها طواف يطوف حولها ويطوف ، ثم لا يجد إلى جوفها من سبيل ... صه ! أذلك همس ؟ إنهما حبيبان يتغازلان ، أتلك ضحكات طروب ؟ إنها جماعة مرحة نشوانة ، أذلك أنين ؟ إنه بكاء حزينة ثكلى ، ياويح نفسى ! أريد أن أهمس كما يهمس الهامسون ، أريد أن أضحك كما يضحك الضاحكون ، بل أريد أن يكون لى فى حياتى ما أبكيه وأرثيه ! أين — ياصديق — الجواز الذى يبيح لى الدخول فى هذه المدينة الصخّابة فأشتريه ؟..
رأيت الناس ذات صيف حرور يصطافون ، فأقسمت لأكونن كسائر عباد الله مصطافا ، ذهبت إلى الشاطئ مع الذاهبين ، فسرعان ما برزت من إهابى شخصية ساعى البريد ، أقف على الشاطئ ولا أغوص ، الناس يمرحون فى الماء ويلعبون ، والأطفال يتقلبون مع الموج ويضحكون ، والنساء كعرائس الماء غائصات طائفات صائحات ضاحكات ، وليس لى من كل ذلك شىء ، ونظرت حولى ، فإذا أنا واقف بين أكوام الملابس نضاها أصحابها ، ويشاء القدر الساخر أن يكون أقربها إلىّ حذاء مخلوع ، فأدركت عندئذ فى يقين أنى بين هذه الأحياء كالقوقعة الفارغة ، يرتسم على سطحها الحيوان ولا تحتويه ، ولم أستطع أن أواجه هذا الحق المخيف ، فقفلت إلى الدار راجعا ... » .

قرأت هذا فقلت : إن فى الأمر شيئا .

الفصل الثامن

التوائم الثلاثة

١

شئناها أو لم نشأها ، كنا على وعى بها أو لم نكن ، فهى على أية حال حقيقة واقعة لم يعد ثمة من سبيل إلى إنكارها ، نعم هى حقيقة تثير من الحيرة ما تثير ، وتحتاج إلى كثير من التحليل والتعليل لينكشف سرها ، لكن ذلك كله شيء ، وكونها قد أصبحت من أمور الواقع التى لابد من قبولها ، شيء آخر ، وإنما أعنى بها تلك العلاقة الوثيقة – الخافية آنا والبادية آنا – التى تربطنا الأحدب وأنا وإبراهيم فى ثالوث متصل الأطراف ، مهما تفرقت تلك الأطراف بمكانها وزمانها وأنواع نشاطها .

إن بين الشخوص الثلاثة من الفروق ما يبرر لكل منهم أن يستنكر فعل الآخر ، لكن بين الأفراد الثلاثة من التعاطف ما يجعل كلا منهم يسرع إلى مؤازرة الآخر ونجدته ، شأنهم فى ذلك شأن الإخوة فى أسرة واحدة : يختلفون ويتعاطفون على نحو متميز فريد ، هو الذى يطبع الأفراد بطابع الأسرة الواحدة . وإذا كنت لأصف أطراف هذا الثالوث بما يميز كلا منهم عن زميليه ، لقلت إن الأحدب سريع الانفعال مشتعل العاطفة ، إذا صادفه فى طريق حياته موقف مشكل ، فإما حله بحرارة وجدانه ، وإما استعصى عليه الحل فانسحب فى عزلة

يعتصم بها ، وعلى النقيض من أسلوب الأحدب ، ترى إبراهيم عقلا خالصا ، لا يكاد يعرف من حياته إلا ما يخضع للتحليل العلمى الموضوعى الذى لا مكان فيه للذات وأهوائها وميولها ، وبين هذين الضدين أقف أنا ، إذ يميزنى دونهما انخراطى فى قوالب الحياة الاجتماعية كما تحددها التقاليد والأعراف والأوضاع السائدة ، فلا الأمر - فى القبول والرفض - مرهون عندى بما تمليه العاطفة ، ولا هو مرهون بما يحدده منطق العقل ، بل هو مرهون - أولا وآخرا - بما يجد عند سواد الناس قبولا ورضى .

إن الأحدب وإبراهيم كليهما مشتغل بالكتابة ، ولكن شتان بين ما يكتبه هذا وما يكتبه ذاك ، حتى ولو كانا يكتبان فى موضوع واحد ، فبينما يتناول إبراهيم موضوعه بالعرض التحليلى المتسق الأجزاء ، كأنما هو أمام مسألة رياضية لا يحكمها إلا منطق الاستدلال بكل دقته وصراحته ، ترى الأحدب قد لجأ - فى الموضوع نفسه - إلى التصوير الأدبى الذى يجسد الأفكار فى أشكال يمكن إدراكها بالحواس ، ومن شأن هذه الطريقة أن تخاطب فى المتلقى وجدانه لاعقله ، فهو يطمئن لما يتلقاه أو لا يطمئن لكنه فى كلتا الحالتين لا يحتكم إلى « برهان » .

كنت على صلة بالأحدب من ناحية ، وعلى صلة بإبراهيم من ناحية أخرى ولم يطف بخاطرى قط أن الأحدب وإبراهيم على صلة أحدهما بالآخر ، حتى سافر إبراهيم للدراسة فى انجلترا بغية الحصول على إجازة الدكتوراه فى الفلسفة ، ومضى على غيابه من زمن طويل ، وشاءت لى المصادفة أن ألتقى بالأحدب ، فأدهشنى أعظم الدهشة أننى ما كدت أورد ذكر إبراهيم فى سياق حديثى ، حتى فأجانى بأنه صديق له حميم ، وبأنه على تراسل معه منذ سافر فى بعثته

الدراسية ، وأضاف تعليقا على بعض رسائل إبراهيم قائلا إنها أقرب إلى مذكرات يكتبها أديب ، ولذلك فهو حريص على الاحتفاظ بها .. ونهض فى حركة مفاجئة سريعة ، وأتانى بشيء منها لأقرأها ، والحق أننى أعجبت بما قرأته منها إعجابا تمنيت معه أن تطول تلك الرسائل ، وأن تتماسك حلقاتها فى تتابع يوحد بينها ، وهاهى ذى أمثلة منها :

لندن فى أكتوبر ١٩٤٤

... لم أكن ألفت هذا التواضع من العلماء ، وكنت أحسبه من قبيل الشائعات التى تشيع بغير سند من الواقع ، حتى التقيت بهذه الأستاذة الجامعية العجيبة ، وهى الدكتورة روث صو ، أرأيت لو جمع حنان الأمهات جميعا ، ووداعة القديسين جميعا ، ورقة القلوب الرقيقة كلها ، وصفاء النفوس النقية كلها . أرأيت لو جمع هذا بأسره فى امرأة واحدة ، كيف تكون ؟ إنها تكون هذه الأستاذة ، تحدثك عن كتاب « الأخلاق » للفيلسوف اسبينوزا فى غزارة البحر الغزير ، وكأنها تطلب منك الرأى ولم تجئ لتهديك بالرأى ! ... كانت محاضرتها قبيل الغروب ، وخرجنا معا ومعنا طالبتان تقدمتا فى السن بعض الشيء ، ووقفنا فى الردهة ، تناقشها الطالبتان المؤمنتان كيف لا يكون المسيح نموذجا كاملا للإنسان فى حياته الأرضية ، فتنظر إليهما بعين العاطفة الحانية وتقول فى صوت كأنه يستفسر : أيعيش الإنسان فى حياته الأرضية بغير زواج ؟.. وترتبك الطالبتان ، وتبتسم الأستاذة ، وتغير مجرى الحديث بأن تتذكر فجأة أنها لم تأكل تفاحتها ، فتفتح حقيبة يدها الكبيرة ، لتخرج تفاحة تأخذ فى قضمها ، وتقول : أحب التفاح غير مقشور ...

لندن فى مارس ١٩٤٥

... ... للإنجليز براعة فى الفكاهة ، أكاد لا أجد لها نظيرًا فى أمة أخرى ، فالفكاهة فى أدبهم ظاهرة حتى توشك أن تكون شرطا لا يتخلف فى قصة أو مسرحية أو مقالة ، وهى فكاهة خفيفة أقرب ما تكون إلى الابتسامة اللطيفة إذا كانت الفكاهة عند غيرهم تقاس بالقهقهة العالية ، وهم يمزجون فكاهتهم هذه فى جدهم ، فكثيرًا ما يعمد الخطيب السياسى إلى تخفيف جدّ الموضوع الذى يخطب فيه بملح ونكات ينثرها فى غضون حديثه هنا وهناك ، بل إن ميلهم هذا إلى الفكاهة لا يبرحهم حتى فى المحاضرات العلمية ، التى قد تميل بغيرهم إلى الجهامة والعبوس ،... كان الدكتور سيرل بيرت – أستاذ علم النفس – يحاضرنا فى النظرية الفرويدية ، فقال : إننى لا أحب لكم أن تبالغوا فى تطبيق هذه النظرية .. وابتسم الأستاذ ومضى يقول : حدث لى ذات حين أن لاحظت أنى أفقد أشياء كثيرة ، فأضع المفاتيح فى جيوبى ثم لا أجدها ، وأضع النقود الصغيرة فيها ثم تختفى ، فهممت أن ألتمس العلة فى سبب من هذه الأسباب التى يقولها الفرويديون فى أمثال هذه المناسبات ، وجعلت أسجل أحلامى وأحللها ، وأضع لنفسى الاختبارات وأنتزع النتائج ... ثم ما هو إلا أن كشفت فجأة عن خروق فى جيوبى ... فكففت عن المضى فى التحليل والتعليل ..

لندن فى يناير ١٩٤٦

... ... لقد جئت والفكرة عندى عن الفلسفة أنها عميقة بغموضها ، وأحسبنى سأعود وقد تغيرت هذه الفكرة عنها ، فتصبح الفلسفة عميقة

بوضوحها .. إن نظرتى إليها آخذة فى التحول ، وأولى مراحل هذا التحول أنى قد أصحيت على رأى بأن الفلسفة تحليل للتوضيح ، وليست هى بالتى تصدر الأحكام من عندها على الأشياء، فالفلسفة عندى الآن طريقة فى البحث بغير موضوع ، إنها لا تبحث فى « مسائل » لتصل فيها إلى « نتائج » لأنه ليست هناك « مسائل فلسفية » مما تختص به هى دون أن يكون خاضعا للبحث فى مجالات العلوم المختلفة من فيزياء وكيمياء وغيرهما ، لم أعد أرى من حق الفيلسوف أن يعالج موضوعات هى من شأن العلماء وحدهم ، فلو كان البحث فى الطبيعة وجب أن يترك لعلمائها ، أو كان البحث فى الإنسان من حيث هو كائن حى يتفاعل مع غيره فى جماعة ، وجب كذلك أن يترك لعلماء النفس أو الاجتماع أو الاقتصاد ... مهمة الفلسفة هى أن تحلل أقوال هؤلاء العلماء تحليلا يتعقبها إلى الجذور ، وبهذا تضع أصابعنا على المبادئ الخافية التى تحملها تلك الأقوال فى ثناياها دون أن تفصح عنها صراحة ، حتى إذا ماتبدّت تلك المبادئ أمام أعيننا ، تجلّت لنا أصول حياتنا الثقافية جلاء صريحا .. إننى لعلى يقين من أن نظرة كهذه إلى الفلسفة لن تجد عندنا إلا الصدود ، لا لشىء إلا لأنها تعوق الفلاسفة من الخوض فيما لا سبيل لديهم إلى العلم به ، وهم أميل إلى دسّ أنوفهم فيما لا يعلمون ، لأن إرسال الكلام أمر هين ، فإذا قيل لهم : فى هذا الكلام غموض ، أجابوا : هكذا شأن الفلسفة ... نعم إن نظرتى آخذة فى التحول الجرىء ، بعد أن رأيت كم أفنى الفلاسفة جهودهم فى بحث عقيم عن أشياء فى الغيب وقد حددتهم طبيعة كيانهم بحدود عالم الشهادة ، إنهم لكالباحث الأعمى يبحث فى غرفة مظلمة عن قطة سوداء ليس لها وجود ...

لندن فى يونيو ١٩٤٦

... ... أى شىء هو أدنى إلى الصواب من قولنا بأن شهادة الميلاد لا تكون إلا لمولود جديد ، وأنه إذا وجدت شهادة ميلاد بغير مولود فهى زائفة مزوَّرة ؟ وأى شىء هو أدنى إلى الصواب من القول بأن الرمز لا يتم معناه إلا بوجود المرموز إليه ، وأنه إذا وجد رمز بغير مرموز إليه فهو إذن وسيلة خداع وتضليل ؟ وأى شىء هو أدنى إلى الصواب من قولنا إن الاسم لايكون اسما إلا إذا وجد المسمَّى ؟ وإذا كان ذلك كله صوابا ، فمن الصواب كذلك أن كل كلمة فى اللغة لا تسمى شيئا ولا تشير إلى شىء ، هى كلمة زائفة مهما طال بين الناس دورانها ، فالفرق بين اللفظة التى ترمز إلى مسمى واللفظة التى لا ترمز هو الفرق بين اللفظة التى « تعنى » شيئا واللفظة التى « لا تعنى » ، وهو فرق شديد الشبه بما يفرق ورقة النقد التى تستند إلى رصيد فتكون ورقة ذات قيمة حقيقية ، من ورقة النقد التى لا تستند إلى مثل ذلك الرصيد فتكون ورقة باطلة ... لابد أن يوجد الشىء أولا ليجوز لنا بعد ذلك أن نطلق عليه اسما يسميه ويميزه مما عداه ؛ وهذا هو بعينه الأساس الذى نقيم عليه تعليمنا اللغة لأطفالنا ، فنشير إلى شىء قائم على مرأى من الطفل قائلين له : « شجرة » .. ولولا أن هناك الشجرة التى نشير إليها لذهبت لفظتنا عند الطفل عبثا ، لأنه فى سذاجته وبفطرته ينظر إلى طرفين : المسمَّى المشار إليه فى طرف والصوت الذى ننطق به فى طرف آخر ، وعندئذ يقرن الشىء المرئى بالصوت المسموع ، أو يقرن المسمَّى باسمه ، أو يقرن المرموز إليه بالرمز الذى يشير إليه ، أقول إنه يقرن هذا الطرف بذلك ، ثم يربط بينهما ، حتى إذا مانطق له بالصوت وحده بعد ذلك ، كان كافيا لاستثارة الصورة التى كان هذا الصوت قد ارتبط بها ، وبهذا وحده يجوز لنا أن نقول إن

كلمة « شجرة » قد أصبح لها عند الطفل « معنى » ...

ولقد تطورت نظرتى ياسيدى وتحددت ، بحيث أقبل الكلمات أو أرفضها على هذا الأساس نفسه ، يقول الفلاسفة : جوهر ، ونفس ، وخلود ، وجمال ، وأخلاق ، ودولة ، ومجتمع ، فأقول : أين هى المسميات فيما هو مرئى ومسموع ؟ فإن أجابوا قبلتها وإن راوغوا — كما هم يراوغون فى هذه الحالات — تركتهم وشأنهم وذهبت لشأنى .

لندن فى نوفمبر ١٩٤٦

... ... سألتنى ياسيدى عما أراه بناء على معيارى الفلسفى الجديد — فى كلمات مثل « حب » و « كره » و « غضب » و « خوف » قائلا إنك تخشى أن أكون قد طوحت بعالم الوجدان على أهميته فى حياة الإنسان ، فأقول فى هذا الصدد إنه لابد من التفرقة بين نوعين من الكلام : فكلام يراد به وصف عالم الأشياء ومايتحاوره من أحداث ، وآخر ينصرف به قائله إلى داخل نفسه لا إلى خارجها ، فإذا نطق ناطق بعبارة من الصنف الأول وقعت عليه تبعة الإثبات ، وأما إذا نطق بعبارة من النوع الثانى فلا إثبات هناك ولا نفى ، والعبارات العلمية التى تجوز فيها المناقشة بين الناس هى من النوع الأول ، وأما العبارات التى ترد فى التعبير الفنى والشعورى فمن النوع الثانى ، وهى لا يجوز فيها اختلاف بين الناس ولا نقاش .

هبنى وقفت مع زميلى إلى جوار شجرة ، فقلت عنها : إنها من أشجار التوت وعمرها ستون عاما ، وقال عنها زميلى : إن لونها يبعث البهجة فى نفسه كلما رآها ، فماذا يكون الفرق بين عبارتى وعبارته ؟ الفرق هو أننى أتصدى

لوصف الواقع الخارجي الذى لا دخل لمشاعرى فيه ، فلست أنا الذى جعلتها تثمر توتا ، ولا أنا الذى ألزمتها أن تكون بهذه الحداثة أو هذا القدم ، إننى أصف بعبارتى وقائع ليست جزءًا من نفسى ، فلو طالبنى زميلى بإثبات ماأقوله وجب أن تكون لدىّ الوسائل التى يستطيع هو أن يشاركنى فيها ، وأما عبارة زميلى التى قال فيها إن الشجرة تبعث البهجة فى نفسه كلما رآها ، فمن نوع آخر ، هى عبارة لا صواب فيها ولا خطأ ، ولا إثبات ولا نفى إنه « يعبّر » عن ذات نفسه ولا « يقرر » أمرا عن الشيء الخارجى ، وإذن فليس من حق أن أطالبه ببرهان ، وكيف يكون البرهان والأمر خاص به ؟ إنه إذا كانت الشجرة الواحدة نفسها تبعث البهجة فى نفسه هو والكآبة فى نفسى لما كان بينى وبينه تناقض ، لأن له شعوره ولى شعورى ، ولكن ماهكذا الأمر لو قلت عن الشجرة إنها تثمر التوت ، وقال هو : بل إنها تثمر الجميز ، فهاهنا يكون بين قولينا تناقض ، ويكون على أحدنا أن يثبت للآخر صدق دعواه ...

وتسألنى ياسيدى عن العبارات العاطفية مامصيرها ؟ وأجيبك بأنها تكون من قبيل الأدب الذى يقاس بمقاييس خاصة تختلف عن مقاييس العلوم ، فلنا أن نبقى عليها ، شريطة أن نكون على بينة تامة بأنها لا تدخل بمجال العقل والمنطق ، ومن ثم فلا يحق لأحد أن يجادل أحدًا فى صدقها أو بطلانها ، لأنه لا صدق فيها ولا بطلان ، وكل مافيها هو أن تكون محببة إلينا أو بغيضة ، وإنى ياسيدى لأعلم بعد المدى الذى ينال به مثل هذا الرأى فى أقوال الناس وعقائدهم ، لأنهم - فى الأعم الأغلب - ينطقون بما يرضى عواطفهم ، ثم يزعمون لأنفسهم أنهم إنما نطقوا بالحق الذى لا حق سواه .

لندن فى يناير ١٩٤٧

. . . . . . لست أقل منك حرصا على مشاعر الإنسان وآماله ومثله العليا ، هذه المشاعر والآمال والمثل التى زعمت لى فى خطابك الأخير أننى سائر بمذهبى نحو هدمها ؛ كل ما هنالك من أمر فى هذا الصدد هو أننى أفرق بين لغة العقل ولغة الشعور ؛ فمن لا يريد أن يتحدث عما يقع فى حسه – رؤية أو سمعا أو ما شئت من حواس – مما يتاح للآخرين أن يراجعوه فيه بحواسهم ، فهو لا يريد أن يتحدث بلغة العقل ، وليس فى ذلك رفع ولا خفض للغة المشاعر ؛ بل الأمر أمر تفرقة بين نوعين مختلفين من الكلام ؛ فإذا كان المجال مجال علم فلا يجوز للشعور أن يتسلل إلى سياق الحديث بألفاظه الدالة على وجدان ، أما إذا كان المجال مجال أدب وفن فليختر ما يشاء من لفظ ليثير فى سامعه المشاعر التى يقصد إلى إثارتها فيه . . فلو تحدث عن السماء حديث العالم الفلكى فلا ينبغى له عندئذ أن يذكر شيئا عن السمو والعظمة والمجد ؛ ولو تحدث عن الزهرة بلغة عالم النبات فليسكت عن أحاديث الروعة والجمال . . فلنعط ما للعقل للعقل وما للشعور للشعور ؛ وإنى لأزعم أن جزءا كبيرًا مما تركه لنا الفلاسفة على زعم منهم أنه نظرة عقلية خالصة ، هو فى الحقيقة تعبير عن أمزجتهم وميولهم ؛ نعم إنهم يسيرون بخطوات عقلية من نقطة الابتداء التى يفرضونها ، ولكن نقطة الابتداء نفسها تجىء من عندهم مزعوما لها أنها من إدراك البصيرة والحدس الفطرى ؛ ولو زعموا عندئذ أنهم إنما يقيمون نسقات عقلية على أساس افتراضىّ كما يصنع علماء الرياضة ، لقلنا نعم ونعام عين ، لأن النسقات الرياضية مغلقة على نفسها لا يدعى لها أصحابها أنها تصوير للواقع ، بدليل أنها قد تتعدد والواقع واحد ؛ ولكنهم يبنون على فرض من عندهم ، ثم يفوتهم ذلك

وينسونه ، ليقولوا آخر الأمر إنهم يقولون ما يطابق الوجود الخارجي مطابقة الصورة لأصلها .

لندن فى فبراير ١٩٤٧ .

. . . . ألقى برتراند رسل علينا سلسلة محاضرات عن المعرفة وتحليلها وردّها إلى أصولها وجذورها ، لم أكن أتخيل هذا الرجل بمثل هذه السرعة النشيطة فى حركات بدنه وفى لفتات عقله ، والعجيب أنه كان يلقى محاضراته فى مدرّج صغير ، مع أن مئات من غير الطلاب يجيئون ليستمعوا إليه ، لهذا كنت تراتى أبادر قبل البدء بمدة طويلة لأجد مكانا قريبا من المحاضر حتى لا تفوتنى كلمة منه — وسمعى كما تعلم قد أخذ يضعف قبل أوان الضعف — إلا مرة واحدة تأخرت قليلا ، فوجدت المدرّج قد امتلأ وأخذ الناس يصطفون خارجه ، فوقفت فى الصف ووقف معى زميل مصرىّ يدرس علم النفس ، وكان المطر ينزل فوق رءوسنا برغم محاولتنا وقاية الرءوس بلصق أجسادنا إلى الجدار ، وتسألنى : وماذا كنت تسمع من كلمات المحاضرِ؟ وأجيب : لا شيء ، وتعود فتسألنى : وفيم وقوفك فى المطر والبرد ؟ وأجيب : لا أدرى ، فقد أحسست أن تركى للصف أصعب على نفسى من الوقوف فيه بلا رؤية ولا سمع ؟ وقد قلت لزميلى المصرى ضاحكا : اشهد على ما ألاقيه فى سبيل العلم ، بل فى سبيل تقديس العلم ، من عناء ، فقال ضاحكا بدوره : وأنا أحق منك بمثل هذه الشهادة لأنك تقدس فرعا فى مجال تخصصك العلمى ، وأما أنا فقد وقفت فى المطر والبرد تقديسا لكلمة العلم فى ذاتها . . إنها الروح هنا تغريك بهذا وأكثر منه .

وفى هذا المدرّج الصغير نفسه حضرت محاضرة الأستاذ آير الذى عيِّن منذ قريب أستاذًا لكرسى الفلسفة فى كلية لندن الجامعية ، وقد كان شاغرًا مدى حين ؛ كانت هى محاضرة الافتتاح كما يسمونها ، يفتتح بها أستاذيته الجديدة ؛ وقد قدمه أحد رؤساء الجامعة بكلمة قال فيها : وقد وقع اختيارنا على هذا الأستاذ الشاب بعد بحث طويل عمن يحفظ لكرسى الفلسفة هنا مستواه الرفيع ؛ وقد قيل لنا تحذيرًا منه : إنه خطر على التقليد الفلسفى وإن يكن ذا أصالة فى الفكر ، فقلنا : هذا هو من نبحث عنه — والأستاذ آير فى عامه السابع والثلاثين .

لندن فى مارس ١٩٤٧

كان الدكتور كيلنج — صاحب الكتاب المعروف عن فلسفة ديكارت — هو أستاذنا فى الفلسفة الحديثة عندما كنت فى « الكلية الجامعة » قبل تحويلى إلى «كلية الملك » ؛ ولم أكن أرى فيه ما يملؤنى إعجابا به ، مع أنه كان أول أستاذ بريطانى ألاقيه فى هذه البلاد ؛ نعم إنه ذكى وملم بمادته إلمام القارئ الباحث الدارس ؛ أما نفاذ البصيرة ومسايرة الحركة الفكرية مسايرة تتفق مع منصبه الجامعى ، فلم أكن أرى فيه شيئا منه ؛ لقد درس فى السوربون بعد أن درس فى انجلترا ، وهو متزوج من سيدة فرنسية ، وله لحية صغيرة يصبغها بالحناء أو ما يشبه الحناء مما لست أعرفه ؛ وقد دعانى منذ قريب على عشاء فى منزله ، فوجدته منزلا مكدسا بالكتب ، والظاهر أنه لا ولد له ؛ وقد اعتذر لى عن تواضع مسكنه قائلا : إن بيتى الحق قائم فى باريس حيث أقضى أطول وقت مستطاع .

وكان من الأفكار التي تحمس لها أثناء حديثنا – وكان الحديث قد تطرق إلى الأدب المسرحي – أن شيكسبير لا يستحق هذه الضجة كلها التي يثيرونها حوله : فليس هو بشاعر من الطراز الأول ، أين هو في ميدان البناء الشعري من راسين أو كورني ؟ فقلت لنفسي عندئذ ، ترى إلى أي حد تجيء آراء الناس انعكاسا لجنسية الزوجة ؟ ! إن كيلنج رجل عليل ضعيف البنية ، ولقد كان يطمع في دعوة توجه إليه من جامعة القاهرة ليقضي في دفء مصر عاما أو عامين ، لعله ينعم بشيء من الصحة ، وحسبني قادرًا على أداء هذا الصنيع ، والحق أني تمنيت يومئذ لو أن بي شيئا مما ظن ، لكن العين كانت بصيرة ويدي كانت أقصر جدًّا مما ذهب إليه خيال الذين أجروا هذا المثل على ألسنة الناس

٣

لم يكن في وسع زميلنا إبراهيم – أثناء مقامه في بريطانيا – أن يرى ما يراه من الرعاية لكرامة الإنسان فردًا فردًا ، بغض النظر في كل فرد عن عمله وثرائه ، وأن يرى ما يراه من ولاء هؤلاء الأفراد لوطنهم ، حتى ليستجيبوا لنداءات أولي الأمر منهم في ساعات الخطر دون رقيب ولا حسيب ، أوقل إن إبراهيم عندئذ لم يكن في وسعه أن يرى ذلك الذي رآه هناك ، ثم لا ترد إلى ذهنه المقارنات ، فكانت تلك هي الفترة التي أخذ يرسل فيها من لندن إلى مجلة الثقافة التي كانت تصدرها في القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مجموعة من مقالات أدبية ثائرة ساخرة ، هي من أنق وأقوى وأصدق ما خطه قلمه :

كتب في أول مقالة أرسلها في هذا الصدد ، ساخرًا مما نتخبط فيه من خرافة ، فقال فيما قال . . . أنا في جنتي العالم العلامة ، والحبر الفهامة ، اقرأ الكف وأحسب النجوم ، فأنبئ بما كان وما يكون ، أفسر الأحلام فلا أخطئ

التفسير ، وأعبر عن الرؤيا فأحسن التعبير ؛ لكل رمز معنى أعلمه ، ولكل لفظ مغزى أفهمه ؛ استفسرني ذات يوم حالم فقال : رأيت – اللهم اجعل خيرا ما رأيت – رأيتني أنظر إلى كفّي فيغيظني من الأصبع الوسطى طولها فوق أخواتها ، ولا أحتمل الغيظ ، فآتي من مكتبتي بمبراة مرهفة ماضية ، وأجذّ من تلك الإصبع الطويلة ما طال ، وألقي بالجزء المبتور في النار ؛ وما هو إلا أن أرى شبحا مخيفا يخرج من بين ألسنة اللهب ، كله أصابع : أصابع في كتفيه ، وأصابع في جنبيه ، وأصابع في قدميه ، وأصابع من رأسه ومن بطنه ومن ظهره ، والأصابع كلها من ذوات الأظفار ، حتى لكأنها المخالب ، أخذت تنقبض وتتلوى ، وتنبسط وتتحوّى ، تريد أن تنال مني لتفتك بي ؛ فتملكني الفزع ، والرعب والجزع ، وكلما اقتربتْ مني تقهقرتُ حتى بلغت الجدار ، ولم يعد بعد ذلك مهرب ولا فرار ؛ ثم رأيت دمائي تسيل دفاقة من إصبعي الجريحة ، فصحت وصحوت فأطرقتُ قليلا ثم أجبته قائلا : لقد أضلك الشيطان الرجيم فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وكفارتك صيام عام وإطعام ألف مسكين . . . فأصابع كفك هي الناس من حولك تفاوتت أقدارهم وتباينت أرزاقهم بمشيئة ربك الذي يعطي من يشاء ويحرم من يشاء بغير حساب ؛ والمبراة التي أتيت بها من مكتبتك رمز بضلالك بما قرأت ، كأنك « فاوست » غاص في العلم فأضله العلم ضلالا بعيدا ، . . . فحدثتك النفس الأمارة بالسوء أن تعدل فيما خلق الله وتبدل ، فكان جزاؤك عذاب الدارين . . . وأما الجدار الذي سد عليك طريق الفرار فمعناه أن عذابك آت لا ريب فيه ، إلا أن تدعو ربك بالمغفرة لعل ربك أن يستجيب لك الدعاء . . .

هكذا جاءت السخرية من ثقافتنا فيما أخذ يكتبه إبراهيم يومئذ ، فهى ثقافة تأبى فى صميمها أن تسوى بين الناس ، ومن حاول هذه التسوية نزلت عليه النقمة ؛ ولعل سخرية إبراهيم من مناخنا الثقافى الذى كنا نعيش فيه ، لم تبلغ قمتها بمثل ما بلغته فى مقالة بعث بها وجعل عنوانها « بيضة الفيل » أراد بها أن يهزأ من ضروب التفكير الغبى الافتراضى فى عصر كانت القنبلة الذرية قد بدأت تتفجر وتهز العالم بدويها ، تبدأ تلك المقالة هكذا :

« قال الشيخ : الفيلة تلد ولا تبيض ، والمشكلة المراد حلها هى هذه : لو كانت الفيلة تبيض ، فماذا يكون لون بيضتها ؟ فى الجواب عن هذا السؤال اختلف العلماء ، يقول عمارة بن الحارث بن عمارة تكون بيضاء . . . » ومضى الكاتب فى مقالته يدير مناقشة وهمية فى مشكلة وهمية ، ومع ذلك فقد أخذت آراء « العلماء » (ألحظ هنا كلمة « علماء ») تختلف ! وراح المتناقشون يدعمون آراءهم بأسانيد يشتقونها من كتب الفقه وكتب اللغة وكتب التاريخ ؛ وأخيرًا حدثت المفاجأة فى آخر المقالة :

« وزلزلت الأرض زلزالها ، وقال الشيخ : مالها ؟ فقيل : هى يامولانا قنبلة ذرية ، فى لمحة تقضى على الأصل والذرية ؛ قيل : فعجب الشيخ أن كان فى الدنيا علم غير علمه » .

وأخذت المقالات تتوالى من إبراهيم وهو فى لندن ، على هذا النحو الثائر الساخر ؛ لأنه كان ينظر أمامه فإذا الدنيا قد انتقلت إلى حضارة أخرى غير حضارته ، فيها — فوق العلم — كرامة الإنسان ، ثم ينظر خلفه إلى حالة وطنه فإذا هو غارق إلى قمة رأسه فى خرافة ، تزيدها بشاعة ضروب من الأخلاق الاجتماعية تهدر للإنسان قيمته وكرامته

انتهت بإبراهيم دراسته بإجازة الدكتوراه فى الفلسفة عن رسالته فى « الجبر الذاتى » ، جاء يوم مناقشة الرسالة ، فلم يكن هناك إلا إعلان وضع أمام المبنى المركزى لجامعة لندن (وهو نفسه المبنى الذى يضم مكتبة الجامعة ، التى جعلها إبراهيم مكانه الرئيسى فى ساعات العمل) أقول إنه لم يكن هناك يوم الامتحان إلا إعلان وضع أمام ذلك المبنى جاء فيه إن لجنة امتحان ستعقد اليوم فى الغرفة رقم كذا ، لمناقشة الطالب الفلانى فى رسالته التى تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه فى الفلسفة من «كلية الملك » ، ولقد فوجئ إبراهيم بذلك الإعلان وهو يدخل المبنى ، فعرف منه رقم الغرفة التى يتوجه إليها فى الموعد المضروب . وذهب ليجد اللجنة الوقورة جالسة على منصتها ، وقوامها عضوان : الدكتور هاليت الذى أشرف على البحث ، والدكتور ماكمرى ممتحنا خارجيا جاء من جامعة سانت أندروز باسكتلندة ، وأغلق باب الغرفة على الأستاذين وأمامها الطالب ، فتلك هى طريقة مناقشة الرسائل فى بريطانيا ، فلا جمهور ولا خطابة ولا مظاهرة ولا تصفيق ؟ ودارت المناقشة فى ذلك الهدوء المهيب ، وخرج إبراهيم من الغرفة وهو الدكتور إبراهيم — واسمه الكامل هو إبراهيم الخولى .

عاد الدكتور إبراهيم بعد فوزه بما أراد أن يفوز به ؛ كان فى محطة القطار الذاهب به إلى دوفر ، ليبدأ المرحلة الأولى من طريق السفر إلى مصر ، حين جاءه من مكتب البعثات المصرية فى لندن من ينبئه على عجل بأن برقية من القاهرة قد جاءت لتطلب من إبراهيم أن يمر على باريس فى طريق عودته ، ليقضى هناك شهرًا ونصف شهر فى منظمة اليونسكو ؛ ووقع فى حيرة لم تطل إلا بضع دقائق ، قرر بعدها أن يرسل حقائبه مشحونة لتسبقه إلى الوطن ، لا يبقى منها إلا ما يعيش به فترة الإقامة فى باريس ؛ وعاد إلى مسكنه بلندن ليقضى يوما

أو يومين بعد فيها نفسه لهذا الموقف الجديد

ثم جاء يوم السفر ، وكانت غاية السفر هذه المرة هي باريس ليظل بها شهرًا ونصف شهر يستأنف الطريق بعدها عائدًا إلى القاهرة ؛ وركب إبراهيم قطار « السهم الذهبي » . . كثيرون هم أولئك الذين كتبوا عن الصداقة والأصدقاء فوفقوا وأجادوا — هكذا كتب إبراهيم في خطاب أرسله إليّ يومئذ من الطريق — لكنى لا أحسب أحدا من هؤلاء جميعا قد كتب شيئا في نوع من الصداقة عجيب ، يمر في حياة الإنسان مرور الأطياف والأحلام ، فلا يستغرق إلا ساعة أو ساعتين ، أو قل يوما أو يومين ، ومع ذلك تراه يترك في النفس أثرًا قد يبلغ من الشدة والعمق مالا تبلغه الصداقة الثابتة الدائمة . . فلقد قابلت في القطار فتاة ، ولم نكد نبدأ الحديث حتى خيل إلينا أننا أصدقاء منذ أمد بعيد ، جعلتُ أخبرها وجعلتْ تخبرني كأن حبل الحياة متصل بيننا ، ثم بلغ بنا القطار غايته ، ولعلى كنت أحس بهذه الخاتمة القريبة ، ولعلها كانت تحس ، فأخذت صداقتنا تتكثف وتتعزز لحظة بعد لحظة ، كأنما عزّ علينا أن يتبدد هذا اللقاء فتشبثنا ممسكين بقبضتين قويتين على هذا الود الوليد ، لعله يدوم ، لكن القطار بلغ بنا غايته ، وافترقنا إلى الأبد . . .

وفي باريس ، خلال فترة الشهر ونصف الشهر التي قضاها ملحقا باليونسكو ، أراد له الله أن يلتقى بسيدة مصرية جاءت موفدة من القاهرة لتشارك في المهمة نفسها التي طلب منه أن يضطلع بها ، فوجد فيها رمزًا يمثل أرفع القيم التي تتميز بها مصر ، فحمد الله أن قذفت المصادفة أمام عينيه بهذا الرمز النبيل ليخفف من غلوائه فيما كان التسرع في الأحكام قد شطح به إليه ؛ لأنه كان كلما رأى وجها من أوجه الكمال الحضارى وهو في انجلترا ، أسرعت

المقارنة بمصر إلى ذهنه إسراعا يميل به إلى طمس الجانب المشرق الجميل ليظهر الجانب المعتم القبيح ؛ فكان عزاؤه ذلك الحب القوى العميق الذى يكنه لوطنه ، والرغبة المسعورة الجامحة فى أن يرى ذلك الوطن الحبيب غير مسبوق على الطريق الحضارى الطويل

ولقد قصّ علينا إبراهيم عن نفسه ساعة كان فوق السفينة يعبر القنال الإنجليزى فى أول طريقه عائدا إلى مصر : فالبحر هائج مائج ، والسفينة تعلو وتهبط مقذوفا بها على رءوس الموج كأنها الكرة على أقدام اللاعبين المهرة الأشداء ، والراكبون يسقطون من دوار البحر صرعى ، وهو واقف ممسكا بحاجز السفينة ، مرتديا معطف المطر يتقى به الرذاذ العنيف الذى يغمره ويغمر عشرات الصرعى إلى جواره ، واقف ينظر ناحية الشاطئ الإنجليزى ، ويدس يديه فى جيوبه ، فإذا فى جيبه الأيمن ورقة ، يظل يسأل نفسه قبل أن يخرجها : ماذا ياترى تكون هذه الورقة وهو لا يذكر أنه قد وضع ورقا فى جيب هذا المعطف ، ثم يخرجها ، فإذا هى قصاصة منزوعة كما اتفق من كراسة قديمة ، ومكتوب عليها بخط ردىء ، خطته يد مسرعة مترددة ، « أحببتك ولم أصرح » والكاتبة هى صاحبة البيت الذى كان يستأجر غرفة فيه .

ولبث إبراهيم ينظر إلى الورقة فى يده ، والرذاذ العنيف يخبط وجهه وصدره ، فأسرعت إلى ذهنه صورة تلك السيدة نفسها ، حين كانت الحكومة أيام الأزمات قد أصدرت تعلياتها بأن تطفأ المدافئ فى كل مكان من الساعة الحادية عشرة إلى الساعة الثالثة عصرًا ، توفيرًا للفحم الذى قلّت مقاديره ، إما بفعل ثلوج الشتاء ، وإما تحت وطأة الحرب — لا أذكر الآن أيهما — فكنت أراها فى الأيام التى أقضى فيها النهار بالمنزل لأكتب فصلا من الرسالة تجمعت

مادته بين يدىّ ، كنت أراها وهى تنظر إلى ساعتها لحظة بعد لحظة ، حتى إذا ما حانت الساعة الحادية عشرة ، دارت على غرف المنزل تطفئ مدافئها ، بغير رقيب إلا من ضميرها الوطنى .

طفق إبراهيم وهو يعبر القنال الإنجليزى عائدًا إلى بلاده ، يلفّ فى رأسه شريط ثلاثة أعوام قضاها فى بريطانيا ، لفًّا سريعا تتداخل به الصور بعضها فى بعض ، لا يكاد يقف عند واحدة حتى تزول لتحل محلها واحدة ، ثم ازداد الأمر خلطا ومزجا حين راح يلف فى رأسه — فى الوقت نفسه — شريطا آخر لفا سريعًا كذلك ، تتلاحق فيه الصور واحدة فى إثر واحدة ، تضع أمام عينيه مشاهد ومواقف مما كان قد مرّ به فى مصر قبل أن يغترب عنها للدراسة ؛ فكأنما كان الشريطان عندئذ يتدافعان ويتسابقان ويتشابكان ، فصورة من هنا تستدعى صورة من هناك ، كل ذلك والسفينة تتخبط فوق الموج الصاخب ، وصرعى الدوار يزدادون عددًا ، والرذاذ الحاد يضرب وجهه وصدره كأنه قطع الزجاج .

هذه هى صورة الطالب الإنجليزى « فلتشر » يلقاه فى المحاضرات ويتصادقان ويتبادلان الرأى والنظر ، قد كان فى نحو عمره ، ويعلم عنه أنه قد أمضى وقتا ضائعا حتى تنبهت شركة كان يعمل بها عملا يدويا مما تصلح له سائر الأيدى ، ويدرك صاحب الشركة أو مديرها أن الفتى موهوب فى الفكر النظرى ، فيقرر إرساله إلى جامعة لندن على نفقته ، غير مقيِّد إياه بشرط العودة إلى شركته بعد إكمال الدرس ، فماذا ينفع دارس الفلسفة شركة تعبئ الزجاجات بما لست أذكر من ضروب السائل ، ولم تكد هذه الصورة تعود إلى الذاكرة يغشاها الضباب الأصفر الداكن الذى يكتنف لندن فى أوائل الشتاء ، حتى تندفع إلى

صفحة الذاكرة صورة من ماضى الحياة فى مصر : فحيث كان إبراهيم مدرسا ناشئًا جاءه غلام فى صحبة أبيه ومعها خطاب من صديق يوصيه بالغلام خيرًا لأنه موهوب ، ولكن أباه لا يملك من وجه الدنيا قرشا يدفعه أجرًا لتعليمه ؛ ويسألها عن ظروف الغلام فإذا هو فى الشهادة الثانوية من أوائل خمسة ، لكن المدرسة الثانوية التى يريد الالتحاق بها — كأى مدرسة ثانوية أخرى فى ذلك الحين — تطلب القسط الأول قبل الدخول ، برغم أنها على يقين من أن مجانية الطالب مكفولة له بحكم القانون ، فمن أين للوالد الفقير أن يدفع وهو خادم فى مسجد رزقه الله هذا الولد النابغة ؟ فلا يدرى إبراهيم ماذا فى وسعه أن يصنع سوى أن يدخل إلى ناظر المدرسة فى مكتبه ويقص عليه النبأ : « ماذا لو قبلناه بغير مصروفات وخطاب المجانية آت من الوزارة فى حينه ؟ » فيقول الناظر — وقد مسَّ الموقف قلبه الطيب — « ومن ذا يدفع عنى الاتهام إذا جاء من الوزارة مفتش فوجد طالبا لم يدفع أجر تعليمه قبل الدخول ؟ » . . . وخرج إبراهيم ليبلغ الوالد والولد ، فيبكى الوالد مرددا كلمة « ياخسارة ! ياخسارة » ويحتضنه الولد ويربت له على كتفيه . « لا عليك ياأبى ، لا عليك ، لا عليك يأبى ، لا عليك » وإبراهيم واقف على السلمة الأولى من مجموعة السلالم القليلة المؤدية إلى مكتب الناظر ، ينظر إلى الوالد والولد . . .

وهذه صور تتلاحق عن نعومة الصلات هناك بين كل إنسان وكل إنسان ، فهل شهد فى أكثر من ثلاث سنوات شخصين يعتركان ؟ أبدا أبدا لم تقع عينه هناك على عراك ، كأنما هم صور تتحرك صامتة على صفحة مرآة ، لا تصطدم منها صورة بصورة : فالزوج والزوجة والبائع والشارى والجار والجار والصديق والصديق وكل إنسان وكل إنسان يلتقيان فى همس ويفترقان فى صمت . . .

تأتيه هذه الصور حتى لكأنه يشهد سينما صامتة ، وفجأة يقتحم الشاشة الذهنية صورة من ماضيه فى مصر يسكن فى شقة من منزل متواضع ، يعلوها مسكن تنزل فيه زوجة وأبناء زوجها ، وأما الزوج فيشتغل فى الصعيد ولا يحضر إلا حينا بعد حين ؛ وتحتها — فى فناء البناء الأرضى عند المدخل — غرفة يسكنها صانع بليلة وزوجته ، يخرج الزوج بعربته وعليها إناء ضخم ملىء بالبليلة وتحته موقد النار والدخان المخلخل يتصاعد منه ، أقول إن الزوج يخرج بعربته تلك ليعود مع المساء ؛ وحدث ذات ليل بعد أن انتصف ، وهدأت الحركة فى البيت والشارع ، وسكتت الأصوات إلا من دبيب المارة على فترات متباعدة ، أن انفجرت معركتان فى آن واحد : إحداهما فى الشقة العليا والأخرى فى الغرفة السفلى ، فمن أعلى جاءت أصوات تشق هدأة الليل :

— الشاب ابن الزوج : لابد أن أقول لأبى متى تخرجين ومتى تعودين .

— الزوجة : امش ! اخرج من بيتى .

— الشابة ابنة الزوج مع أخيها فى نفس واحد : هذا بيت أبى ، اخرجى أنت إلى حيث كنت .

— الزوجة تنادى الخادمة : اخرجيها بالقوة يامبروكة .

— الشاب ابن الزوج : اخرسى وإلا قذفت بك من النافذة .

— الزوجة : إما أنا وإما أنتما فى هذا المنزل بعد الآن .

— الشاب ابن الزوج : أين تبددين النقود التى يتركها لنا أبى ؟

— الزوجة : اسم الله على أبيك ونقوده ياسعادة البك ! نقود أبيك لا تكفينى لشراء الملح . .

وفى هذه اللحظة نفسها انفجرت القنبلة الثانية من أسفل ، وكانت أفدح

خطرًا ، فقد عاد بائع البليلة فى هذه الساعة المتأخرة من الليل مخمورًا لا يعى شيئا ولا يستطيع النهوض بجسده ، فرافقه زميل له فى الخمر يتساندان ، حتى أوصله الزميل إلى منزله ، وخرجت إليهما الزوجة القلقة هابّة من غرفتها زاعقة فى الصديق قائلة كيف كان زوجها كالملائكة يذهب إلى عمله ويعود إلى بيته ، حتى عرف طائفة الأبالسة التى ترافقه هذه الأيام ، ثم راحت تدعو الله :

- الزوجة : إلهى وأنت جاهى وجاه « الولايا » يارب ، تنتقم منهم لقاء ما أفسدوا من زوجى .

- الصديق المخمور : هو ذا زوجك بين يديك ، دُقِّيه واصنعى منه « كفتة » ! هأ هأ هأ (وانصرف) .

- الزوج المخمور بعد فترة مليئة بأصوات حركة غير مفهومة للساكن فى أعلى : تشتمين أصحابى ، تشتمين أصحابى ؟

فتصرخ الزوجة مستغيثة لأن زوجها السكران يهاجمها بالسكين ليبقر بطنها جزاء ما اقترفته من شتم صديقه ، وأطلت الزوجة المعتركة مع أبناء زوجها ، أطلت من نافذة « المنور » لتقول للزوجة المنكوبة إنها آتية لنجدتها ، ويمضى الزوج السكران فى سؤاله الاستنكارى : تشتمين أصحابى ؟ تشتمين أصحابى . ؟ ! واستيقظ السكان جميعا فى عاصفة من أصوات فازعة ، وحركة أقدام على السلم مسرعة فى هبوطها لتنقذ الزوجة من براثن زوجها المخمور .

ويكرّ شريط الصور فى رأس إبراهيم وهو على سفينته ، من هنالك صورة ومن هنا صورة :

هذا هو الوزير الإنجليزى « نويل بيكر » يقف فى الصف وفى يده فنجانه

ينتظر دوره ليملأه بالشاى ، وأمامه رجل يرتدى رداء سعاة الدواوين ، فلا الوزير يفكر فى التقدم قبل دوره ، ولا الخدم من أمامه يفكرون فى التنازل عن مواضعهم ، فالساعة ساعة الراحة له ولهم بين جلسات جمعية الأمم فى أول انعقاد لها فى لندن — قبل رحيلها إلى نيويورك — وتذهب هذه الصورة لتحل محلها صورة الوزير المصرى الذى كان ينتظر منه ألا يكون كسائر الوزراء عنتا واستبدادا ، لأنه كان دونهم إماما بيننا من أئمة الأدب والفكر والحركة الحضارية بصفة عامة ، ومع ذلك فقد رأيته وهو على كرسى الوزارة كيف يتعنت وكيف يستبد ، كأنما أصحاب الحقوق الواقفون أمام بابه حفنة من الغنم ، بينها وبين الراعى الأكبر صفان طويلان من الذئاب ، على نحو ما كان المصريون الأقدمون يقيمون صفوف الأسد أو الكباش أمام المعابد لتحرسها من هجمات الشياطين .

ويعضّ إبراهيم على شفته بأسنانه عضة من اعتزم أمرًا ، وألقى بالورقة التى كانت فى يده إلى موج البحر الصاخب ، فما تزال السفينة تتقذف بين الموج الثائر من قمة إلى وهدة فإلى قمة من جديد ، والرذاذ يلطم وجهه وصدره كأنه الرصاص ، وصرعى الدوار من حوله صفر الوجوه كأنهم الموتى فى وباء كاسح ، لقد اعتزم الدكتور إبراهيم فى تلك اللحظة ألا ينزل لأحد بعد اليوم قيد شعرة عن كرامته ، لقد أحس بفرديته وقد انتفخت ، وصمم على أن يقف بها عند عودته كما يقف الجبل الأشم من رءوس الناطحين .

٣

عندما سافر إبراهيم الخولى إلى انجلترا دارسا ، كانت تعتمل فى نفسه قوتان متصارعتان : إحداهما إرادة مصممة على بلوغ الهدف مهما كلفه ذلك من

عناء ، والهدف المقصود الذى أخذ يسعى إليه منذ صدر شبابه ، هو أن يكون له دور ملحوظ فى الحياة العلمية والثقافية ؛ وأما الأخرى فهى حالة دفينة من اليأس أن يحقق نفسه مما أراد شيئا ؛ فهو عندما سافر كان بالفعل قد بذل جهودًا لم يعرف مداها إلا هو ، وأما أقرانه وأصحابه ومن كانوا يكبرونه ومن كانوا يصغرونه ، فلم يكن أى منهم على دراية بما بذله إبراهيم ؛ فكل من هؤلاء قد يعلم عنه شيئا وتفوته تسعة أشياء ، وحتى الذين عرفوا عن جهوده ذلك القليل ، فقد ندر منهم جدًّا من حمل له التقدير ، أو ربما حمل التقدير فى نفسه سرًّا مكتوما ولم يفصح عنه بالقول أو الكتابة .

كان إبراهيم يعلم ذلك جيدًا ، وكانت تغمره موجة القنوط آنا بعد آن ، لكنه بالقوة الأخرى فى نفسه ينهض من قنوطه ليعمل ، وليكن بعد ذلك ما يكون ؛ وفى إحدى لحظات اليأس — وهو فى لندن — خرج عصر يوم من أيام الآحاد لينشق الهواء فى هايد بارك ؛ وهايد بارك متنزه فسيح يقع فى قلب مدينة لندن ، له خصائص يتميز بها فى أذهان عارفيه ، منها هؤلاء الخطباء عند مدخله ، يرتقون المنابر ليخطبوا فى أى موضوع شاء الخطيب أن يتحدث فيه ، وليسمع من أراد من رواد المتنزه أن يسمع ، والأغلب أن يتحلق حول كل خطيب مجموعة من هؤلاء . الرواد — تقل أو تكثر تبعا لموضوع الحديث — وهم إنما يتحلقون حول الخطباء تفريجا عن أنفسهم ، وإزجاء لأوقات فراغهم ؛ ولكن إبراهيم إذ قصد إلى هايد بارك عصر ذلك اليوم ، فإنما أراد الهواء النقى ولم يرد أحاديث الخطباء ، غير أن شيئا لم يكن فى حسبانه غير وجهته . . . وأترك لإبراهيم نفسه رواية ما حدث :

« . . . استوقفنى من الخطباء منظر عجيب : خطيب من هؤلاء رأيته قائما

على منبره يخطب ولا من سميع ! لم يقف أمام الرجل إنسان واحد يستمع إليه ، ومع ذلك مضى المسكين فى خطابه ، يرفع صوته ويخفضه ، ويشير بيمناه تارة وبيسراه طورًا ، وينحنى ويستقيم ، ويضرب النضد الصغير الذى أمامه بيده ، مقبوضة مرة مبسوطة أخرى ، دنوت منه ، ووقفت إزاءه : أنظر إليه ؛ وما هو إلا أن طاف برأسى خاطر عجيب ، إذ خيل إلى أنى أنظر إلى نفسى فى مرآة ؛ وإنها لفرصة نادرة الوقوع أن تجد لنفسك مرآة تصورها لك فتهديك بعد ضلال ، فما أهون أن تنظر إلى وجهك فى مرآتك ، لتصلح ما اختلط من شعرات رأسك ، وتهذب ما هاش من شاربك ؛ لكن أنى لك مرآة تجلو أمام ناظريك ما خفى من شعاب نفسك ، لتصلح منها ما اعوج إن كانت بذات عوج ، أو لتزهى بها إن كانت قمينة بالإعجاب ؛ ولقد رأيت فى ذلك الخطيب مرآة لنفسى ؛ وأخذت دقة الصورة تزداد فى عينى جلاء ووضحا ، فابتسمت ؛ ثم ضحكت فى نبرة مسموعة .

قال الخطيب : ما يضحكك ياصاحبى ؟

قلت : يضحكنى أننا شبيهان .

قال : شبيهان ؟ !

قلت : نعم ، وليس الشبه فى هيئة الجسم . . . فكلانا يبعثر فى الهواء طاقته . . . كلانا يبذل الجهد ، فيذهب الجهد أدراج الرياح .

عجيب هذا الضوء الذى تلقيه تجارب الأيام على القول المكرور المعاد ! فقد تردد العبارة الواحدة ألف مرة ، وتحسب أنك قد فهمت معناها ، لأنك عرفت معانى ألفاظها كما تشرحها القواميس ، ماذا بك تنطق بها مرة أخرى فتلمس فيها حياة نابضة لم تعهدها من قبل ؛ فكأنما أشرق عليك منها معنى

جديد ، لأنها فى هذه المرة كانت قطعة من حياتك وقبسا من روحك ، ولم تكن ألفاظا مرصوصة يقولها الناس فيرن صداها بين شفتيك ؛ فكم رددت مع الناس قولهم « لا فى العير ولا فى النفير » ولم أكن أدرى أننى إنما أرددها ترديد الببغاوات عن غير فهم حى صحيح ، حتى قلتها منذ قريب فأحسست لها هزة تشيع فى وجودى ، وأدركت أنها لم تعد مثلا يقال ، بل أصبحت جزءا من صميم الحياة ؛ وحدث مثل ذلك حين قلت لصاحبى الخطيب إننا نبذل الجهد ، فيذهب الجهد أدراج الرياح .

. . . . . أرأيت ياخطيب الهواء سيارة أمسكها الوحل فأخذت عجلاتها تدور ، وهى فى مكانها لا تتحول ؟ لو كانت هذه السيارة تنطق لزعمت لك أنها طوت من الأرض فراسخ وأميالا ، لأنها تحس فى حر أنفاسها حرارة الجهاد ، وتحس عجلاتها تدور ، فهيهات أن يقع فى ظنها أنها تدور فى غير سير إلى أمام ، إيمانا منها بأن ذلك ضد طبائع الأشياء ، وما تدرى أن هذا الوحل الذى يأذن لعجلاتها أن تدور ثم يمسك جسمها عن السير هو أيضًا من طبائع الأشياء .

نحن أيها الخطيب شبيهان ، كلانا أدرك الهدف وأخطأ سواء السبيل ؛ أراد لنا نحس الطالع فى صبانا أن يخدعنا المعلمون — والمعلمون أحيانا ما يخدعون ، ويبشرون بما لا يؤمنون — فأوصونا بأن نجعل من النجم غايتنا ، فأبت علينا الأمانة البلهاء إلا أن نكد ونكدح لنبلغ النجم ، وفاتتنا الحيلة التى يدركها الألوف إدراك البداهة فى غير عسر ولا عناء ، وهى أن نلتمس النجم فى صورته على صفحة الماء ، وأولو الأمر لا يفرقون بين النجم وصورته . فكلاهما فى أعينهم لامع لألاء ؛ وبربك لا تقل إننا إذ نروم النجم فى سمائه تستقيم منا الظهور ، وتشرئب الأعناق ، وتشمخ الأنوف ، أما إذا أردنا الصورة فلا بد

من « الحناء » ، فتلك حكمة القدماء ، والحكمة إنما تساير وسائل النقل فى تطورها ، فلاينبغي أن تكون حكمة الطائرة مثل حكمة « الحمار » . . . »

كانت تلك الأسطر بعض ما كتب إبراهيم فى إحدى لحظات يأسه ، والحق أنى حين قرأتها ، تبينت فيها ما يشبه نبرات الأحدب فيما يكتبه ، وكثيرا ما يختلط على الأمر فلا أدرى من منهما الكاتب لما أقرؤه ، إذ تكون النغمة نغمة أحدبية ، وأما المضمون فيوحي بجوانب أعرفها من حياة إبراهيم .

٤

إن ثلاثتنا – الأحدب وأنا وإبراهيم – لم نجتمع قط حتى الآن فى مكان واحد وفى لحظة واحدة لنتفق معًا أو لنختلف على شىء بعينه ، فكل منا منصرف فى دنياه إلى ما خلقه الله له : الأحدب فى مجال اهتماماته الأدبية قراءة وكتابة ، وإبراهيم فى حياته العلمية دراسة وشهادات ومؤلفات ، وأنا فى سعيي إلى كسب العيش والتعامل مع الناس وفق ما تواضعوا عليه من نظم وقواعد ، لا ، لم يحدث لثلاثتنا قط حتى الآن أن تم لها لقاء يجمعها ، لكن كل واحد من الثلاثة قد أصبح على وعى بوجود الزميلين الآخرين ، وما يربطها به من خيوط

كانت تلك هى الصورة عندما عاد إبراهيم (هو الآن الدكتور إبراهيم الخولى) ، عاد إلى مصر واثقا من نفسه ، مؤمنا بدعوة إلى ثورة علمية فى حياتنا ، تتناول منهج النظر ، فتحوله من قراءة الكتب لاستخراج الأحكام من بطونها ، إلى قراءة المشكلات الحية على « الطبيعة » لالتماس حلولها من واقعها ؛ كان إبراهيم عندما سافر فى بعثته العلمية خلوًا من هذين العنصرين معًا ، فلا هو على ثقة من نفسه ، ولا هو ذو دعوة محددة المعالم والأهداف .

لكنه لم يكد يضع أصابع قدميه فى ميدان العمل ، حتى نزلت عليه

النكات واللطائف أشكالا وألوانا من هزء وسخرية وازدراء وتصغير ، وهاهنا ارتد إلى طبيعته التى لازمته منذ السنوات الأولى من عمره ، وهاهنا كذلك جمعته المصادفة المبصرة مع صنويه الأحدب وأنا لأول مرة ، ولم يطل بينهم إجراء التعرف بعضهم إلى بعض ، لأنهم أحسوا جميعا — وفى لمحة خاطفة — أنهم إن لم يكونوا إخوة توائم فهم كالأخوة التوائم ، يختلفون فيما بينهم اختلافا بعيدًا ، لكنهم جميعًا يتفقون على محاور رئيسية ، هى نفسها المحاور التى أشرت إليها الآن حين قلت عن إبراهيم إنه ارتد إلى « طبيعته » الأولى التى لازمته منذ السنوات الأولى من عمره ، والتى كان من أهم عناصرها أمران : أولهما اندفاع نحو المجهول بشجاعة ظاهرة ، والثانى فرار إلى انطواء فى جحره ليحتمى فى ظلمته وبين جدرانه ؛ فهذان العنصران اللذان يبدوان وكأنهما نقيضان ، وهما فى الحقيقة متكاملان ، وهما اللذان تجتمع عليهما طبائع الأشخاص الثلاثة ، ثم يختلفون بعد ذلك ما شاء لهم الاختلاف أن يتباعدوا .

عاد إبراهيم من إنجلترا واثقًا من نفسه ، مؤمنا بدعوته ، فاندفع فى دنيا العمل شجاعًا ، فتلقى ضربات من هوان ، فكان مسرعا بانطوائه فى عزلة أو ما يشبه العزلة ، وحاول — وهو فى تلك العزلة أو ما يشبهها — أن يحافظ على ثقته بنفسه وعلى نشر دعوته من وراء الجدران ؛ فلما حدث أن اجتمع بصنويه لأول مرة ، اجتمع الثلاثة جميعا على أن تكون لهم هذه الوقفة الواحدة — كل فى مجاله وفى حدود كيانه — وهى الوقفة التى تحتمى فى حصنها وتهاجم على الورق ، ومن هنا جاء التكامل بين التوائم الثلاثة : إذا كتب الأحدب بنبرته الحادة الساخرة ، وإذا كتب إبراهيم بتحليلاته الهادئة العلمية الموضوعية ، وإذا سلكت أنا فى مسالك الحياة العملية منخرطا فى قوالبها وتقاليدها ، فالصور الثلاث كلها

تنطوى على جوهر واحد ، قوامه العمل على التغيير بالثورة الصامتة أو هو المهاجمة من أبراج القلاع التى يلفها الضباب ، بما يشبه ما تصنعه القبرة التى أنشد لها الشاعر « شلى » فقال عن تغريدها الذى يسمع وكأنه آت من وراء الحجب ، إنه يسمع من مصدر مجهول لا تراه الأبصار ، أو قل إن الجوهر الذى نلتقى عنده ثلاثتنا ، هو كحقيقة البحر المحيط عندما يسكن ماؤه ولا يهتاج بموجة القوى المخيف ، فإن ليونة الماء وسيولتها – عندئذ – تغرى حتى الأطفال بالعبث بها واللعب على ظهرها وعند أطرافها ، فهم لا يرون ما وراء ذلك الضعف البادى ، من قوة يدأب بها البحر المحيط – حتى فى سكونه – على إذابة الحديد وتفتيت الجلاميد .

عاد الدكتور إبراهيم الخولى من انجلترا واثقًا بنفسه مؤمنا بالدور الذى يعتزم القيام به ، لكنه وجد نفسه محاطا بجماعة من أصحاب النفوس الفقيرة ، التى تعوض خواءها الداخلى بقتل من يصادفها فى الطريق ممتلئا بدفعة الحياة ، إنها نفوس عاجزة ويعزيها عن عجزها أن ترى العجز فى الآخرين ، إلا أن للفقر صورًا شتى : فمنها اليباب القفر الذى تلتهب رماله بوقدة الشمس ، ومنها الصخر الأجرد الذى صلد صدره وتصلبت أطرافه ، ومنها السماء لا تجود بالغيث ، ومنها الوردة تذبل وتذوى ، ومنها الجيوب تخلو من المال . . . لكن لا اليباب القفر ، ولا الصخر الأجرد ، ولا السماء اليابسة ، ولا الوردة الذابلة ، ولا الجدول غيض ماؤه ، ولا الجيوب الخالية من المال ، بمستطيعة أن تصور الفقر بأقوى مما تصوره النفوس الفقيرة ؛ ولقد وجد إبراهيم نفسه محوطًا بزمرة من تلك النفوس التى لا تملك الخصوبة لنماء الزرع فتفتك بكل زرع تراه ناميا ، وهى نفوس جماعة من الكبار الصغار : كبار الأجسام والأعمار صغار الهمة

صغار الأحلام ، أقصى قدراتهم أن يصنعوا صنيع التلاميذ فى استذكار دروسهم كما هى مكتوبة فى دفاتر ، فكذلك هؤلاء العاجزون : أقصى ما يطمحون إليه أن تعبث أفهامهم المحدودة بأسطر يقرأونها قراءة العاجزين ويدركون مراميها إدراك العاجزين وهؤلاء هم الذين أحاطوا بإبراهيم وضجوا حوله بالطنين ، ولما كان من طبيعة إبراهيم منذ أول نشأته تلك الحساسية الشديدة التى تدفعه أمام نذلاة النذل وجهالة الجاهل وعدوان المعتدى ، أن يسرع فينطوى ، على أن يضرب بسهامه من وراء الجدران ، كان ذلك هو الذى حدث له بعد عودته بقليل ، وربما استمر معه حتى يومه الراهن .

وكانت تلك السهام من إبراهيم إلى أعدائه ومنافسيه ، حجاجًا عقليًا يدور كله نحو ترسيخ النظرة العلمية فى كل ما ليس متصلا بالذات ووجدانها ، والهدف النهائى من معركته مع معارضيه هو الدعوة إلى بعث جديد فى الفكر العربى ، لا يتاح له أن يتحقق إلا باصطناع منطق جديد ومنهج جديد .

٥

أما هنا فلنوجه أنظارنا نحو الأحدب صاحب الوجدان الملتهب ، لنرى ماذا كان يكتب ، وكيف كان يحيا ، فى الوقت نفسه الذى كان صنوه إبراهيم يقاتل من يقاتله فى مجال الفكر العلمى .

الهدف البعيد للتوائم الثلاثة — كل فى ميدانه وبأسلوب حياته — هو الإسهام فيما يؤدى بمصر خاصة ، وبالوطن العربى كله عامة ، إلى بعث جديد نواكب به العصر وفكره وحضارته ؛ فإذا كان الدكتور إبراهيم الخولى بحكم دراسته قد تصدى لنصرة العقل ومنهجه ، فقد كان نصيب رياض عطا (الأحدب) بحكم عاطفته الحادة وحساسيته المرهفة ، هو التصدى لنصرة الضعيف المحروم ؛

وكان سلاحه في ذلك أن يعيش هو نفسه عيش الضعف والحرمان ، حتى ولو توافرت له أسباب القوة والمتاع ، لأن ذلك من شأنه تغذية القلم بمداده إذا كتب .

وكذلك مما يميز الأحدب من إبراهيم ، أن إبراهيم إذا جاءه النقد أو جاءته إهانة أو استهانة من آخرين ، فإن المرجح لشخصيته أن ينظر إلى الأمر بينه وبين نفسه بشيء من الإنصاف ، ليرى إذا كان الآخرون على حق فيما قالوه أو فعلوه أو كانوا على باطل ؛ وأما الأحدب فإذا أوذي كان الأرجح عنده أن يتوجه إلى نفسه باللوم والتقريع ، اعتبارًا منه بأن نفسه تلك لابد أن تكون معيبة على النحو الذي أوحى للآخرين بما أوحى من ضروب الإيذاء ، إنه نوع من الرغبة الدفينة في نفس الإنسان يريد أن ينزل على نفسه العذابَ والألم ، وهي رغبة تتفاوت عند الناس ضعفا وقوة ، ويبدو أن للأحدب منها نصيبًا موفورًا .

« . . . هذه هي نفسي أضعها أمامك عارية . . لن أستحي من مكنونها وخبيئها مهما يكن خبيثا ؛ فكل الناس هذا الخبيث – لكنه الرياء يستر ويخفي . . رأيت ظهر اليوم غلاما أمام الدار يلعب « بالنحلة » فيلف طرف الخيط حول نحلته الخشبية ، ثم يقذف بها ، ، فتدور النحلة على سنها فوق بلاط الإفريز دورانًا شديدًا ، لكن الغلام يخشى على دورانها الفتور والضعف ، فيظل يضربها بعذبة سوطه ضربا متلاحقا ، حتى تدور ولا تكف عن الدوران ، وعدت إلى مجلس من الدار ، فما هي إلا أن تنزوي بنفسي الخواطر المثيرة ، إذ صورت لنفسي فلانا وقد قذف بي على الأرض قذف الغلام لنحلته ، وراح يلهبني بعذبات سياطه حتى أدور ولا أكف عن الدوران لنفعه هو ولا عليه بعد ذلك أن أتعب وأدوخ . . . إنني تلك النحلة الدائرة لمتعة اللاعبين ، أضرب بالسياط لئلا

أكف . . . أطلقت خواطرى متلاحقة سوداء قاتمة ، كأنها أسراب الغربان تحوم فى الهواء . . . رأيت الناس معذبًا بعضهم بعضا ؛ كذب ونفاق هذا الذى يكتبونه فى الكتب، ويعظون به فى المحافل ، من أن الإنسان يريد لنفسه ولغيره الراحة والخير . . . وخطر لى خاطر عجيب ، وهو أن أمزق كتبا عندى تمتلئ صفحاتها بمثل هذا الكذب . . . » .

كان شعور الأحدب بالعزلة موحشًا فى كثير من الأحيان ، حتى ليحس كأنما هو وحده مهما يكن حوله من كثافة الزحام ، ومن يلحظ نفوره من الناس — ونفور الناس منه أحيانًا تبعًا لذلك — ثم من يتعقب كتاباته ، يقع على إشارات كثيرة تشير إلى بعض الأسباب التى أدت به إلى ذلك ، وهى أسباب يرجع بعضها إلى أيام الطفولة الباكرة ، لكن بعضها الآخر يشير إلى أحداث وقعت له على امتداد سيرة حياته ، ، وفيا يلى أسطر مقتبسة من مقالة كتبها ، وأرسل نفسه فيها على سجيتها ، وتتبع خواطره فى مجرى شعوره الباطنى كما وردت ، لا يربطها إلا الروابط التى تصل الأجزاء المتتابعة فى أحلام اليقظة ، قال :

« . . . لقد حز فى نفسى أن يكلمنى « ع » وهو يركب السيارة كأنما هو يخاطب حفنة من هواء . . . لماذا لم أحسم الأمر حين ازورت بوجهها أول مرة ؟ أقسمت لى أنها لا تضمر السوء ، وَصدَّقتُها . . كنت أخشى دائما أن أسىء إليها ، فكيلت لى الإساءة لطمات بعد لطمات . . . . كانت غاية فى الرشاقة حينما رأيتها ، لماذا خفق قلبى لها وما كان ينبغى له أن يفعل ؟ يابنىّ لا تتحدث حديث القلب ، فهذه لغة الشباب ولم تعد شابا ، ألا ما أشد غرورها ؛ ليتنى أجد الشجاعة عندى فأسىء إلى من يسيئون إلىّ بمثل ما أساءوا . . . كانت نغمة كلامها فى التليفون أخاذة ، لكنها إبليس فى صورة البشر ؛ إنها الشر كله فى

صورة إنسان ، إنى لأعجب كيف يكون هذا الشر كله فى هذه الرقة كلها . . آه لو رددت الإساءة بإساءة مثلها ، إذن لما عانيت شيئا من لذع الضمير الذى يؤرقنى ويعذبنى . . حسبونى أبله ساذجا ، هم مخطئون ، لئن أكن قد أمسكت عن الردود الصحيحة فى المواقف المختلفة ، فاذاك إلا حياء ، لم يكن بلاهة ولا سذاجة ، إن الماضى لا يعود ، وجرحك سيظل إلى موتك داميا . . . » .

قلت لنفسى وأنا أقرأ للأحدب هذه المقالات : هذان — إذن — عاملان أثارا فى المسكين كوامن نفسه ، فألحقا به من الإحساس بالصغر ما كانت نشأته قد هيأت له الجو والتربة ، فما على الظروف بعدئذ إلا أن تلقى ببذرة فتنمو فى نفسه وتورق بين يوم وليلة ، وهذه هى الظروف قد ألقت بذرتين لا بذرة واحدة ، فلا أرباب القلم الذين قبلوه كاتبا قد أكرموه إنسانا ، ولا هذه الفتاة التى يشير إليها والتى قد قبلته إنسانا قد قبلته رجلا . .

لقد راجعت بنفسى كثيرًا جدًّا مما كتبه الأحدب ، لعلى أقع على بينات تكشف عما يتعلق به اهتمامه ويحفزه ويثيره ، وأحسب أن فكرة « العدل » ربما جاءت عنده فى المقام الأول ، أو قل إنه لا يسبقها فى رأيه إلا « الحرية » ، فهذا الرجل المنزوى فى ركن معتم ، والمنطوى على نفسه انطواء يوشك أن يغلق كل نافذة قد تصله بالضوء والهواء ، يثور ثورة عارمة إذا ما مسه — أو مس أحدا يقع فى دائرة اهتمامه — شىء من الغبن ، كأنما هو يتوقع من البشر أن ينصبوا موازين لا يفلت من دقتها مثقال ذرة ، ولما كان الإجحاف فى حياتنا الجارية أمرًا مألوفا وشائعا ، حتى لتستطيع أن تعده جزءا من كياننا الاجتماعى ، فالظالم لا يكاد يحس أنه ظالم ، والمظلوم يعلم مقدما أنه سيصبح مظلوما بين كل عشية

وضحاها ، أقول إنه لما كان هذا يشبه أن يكون جزءًا من نسيج حياتنا ، رأيت الأحدب يتعرض لانفعالاته الحادة كل يوم ، ولا يعرف قلمه كيف يكتب إلا أن يكشف عن هذه الثقوب والعيوب التى لا تغمض العين لحظة إلا لتنفتح على ثقب هنا وعيب هناك .

على أن جانبًا معينًا من جوانب الظلم الذى يكتنف حياتنا ، يشغل باله أكثر من سواه بدرجة ملحوظة ، ألا وهو قسمة الحظوظ فى دنيا المثقفين عندنا ؛ فالمشهد كما يراه الأحدب هو أن الريادة الثقافية تتناسب تناسبًا عكسيًّا مع الإنتاج الثقافى ، فإذا كان الإنتاج صفرًا عند زيد كان مرجحًا أن يكون هو الكاهن الأعلى ، وإذا كان الإنتاج متلاحقًا وغزيرًا عند عمرو ، فالأغلب أن يوضع عمرو بين «الأنفار» و «الفعلة» يؤمر ولا يأمر ، وبين تلك القمة الصفرية العليا ، وهذه القاعدة السفلى من الفاعلين العاملين ، يتدرج المثقفون درجات على الأساس السابق نفسه ، وإنى لأبيح لنفسى أن أضع بين يدى القارئ قطعة أدبية كتبها الأحدب فى هذا المعنى ، وعنوانها «قرصنة فى بحر الثقافة» لأنى أراها رائعة من روائعه :

لم أكد أصدق سمعى ، حين أخذ صديقى عالم الآثار المصرية يقرأ لى نصًّا قديمًا من لفائفه البردية ، كتبه كاتبه فيما يقرب من القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ليصف به حياة الثقافة والمثقفين فى عصره ، وصفًا لو أزلت منه أسماء الأعلام ومعالم الأحداث ، لتضع مكانها أسماء المعاصرين وأحداثهم ، لظننته قد كتب عن عصرنا الراهن هذا بعلمائه وأدبائه ؛ نعم ، لم أكد أصدق سمعى — لأنى وقد كنت أعلم أن خصائص الشعوب تخترق حجاب الزمن ، فتصل حاضر الشعب بماضيه — لم أكن أعلم ، مع ذلك ، أن هذه الخصائص العنيدة

المكافحة فى سبيل بقائها تمتد رقعتها وتتسع لتشمل صفات كنت أحسبها من التوافه التى تظهر وتختفى مرهونة بظروفها ، فليس عجيبًا أن يجىء الأحفاد أشباهًا لأجدادهم فى احتفالات الميلاد وفى شعائر الموت ، لأن هذه أمور موصولة بشرايين الحياة نفسها ، أما أن يتشابه أولئك بهؤلاء فى الطرق التى يتخاطف بها العلماء والأدباء ثمرات جهودهم ، بحيث يكون الحاصدون أناسًا غير الزارعين ، فذلك حقًا هو موضع العجب ، لأنه من التوافه التى لم يكن ليجدر بالزمن الوقور الجليل ، أن يحفظها ويصونها لتنتقل على ظهور الأجيال من الجد إلى الحفيد .

وكاتب البردية التى أخذ صديقى عالم الآثار يفك لى رموزها ، هو كاهن من معبد آمون فى مدينة طيبة ، والظاهر أنه كان ذا مكانة مرموقة بين كهنة المعبد ، لأنه يتحدث حديث الواثق بنفسه ، تسرى فى كلماته رنة العظماء حين يتحدثون إلى من يصغرونهم منزلة وقدرًا ، اسمه — فيما أذكر — حريحور أو ما يجرى مجرى هذا الاسم فى الوزن والنغمة ؛ وقد بدأ رسالته هذه بذكر المكان الذى خطها فيه ، فإذا هو قد كتبها فى مركب أقلع به من طيبة إلى مصر السفلى ، إذ هو فى طريقه إلى البحر الكبير ، قاصدًا إلى بيبلوس على الشاطئ اللبنانى ، فى مهمة لم يفصح عنها .

أخذ الكاتب يدون تفصيلات من حياته اليومية : ماذا كان يأكل وأين ترسو به السفينة ، وكيف يعترك النوتية آنا ويسمرون فى صفاء آنًا ، ثم انتقل إلى تسجيل ما أراد تسجيله ليروى لنا عن معركة كلامية دارت بينه وبين كاتب قليل الشأن ، كان لا يزال من السلم الكهنوتى فى أدنى درجاته ، ومع ذلك اجترأ هذا الصغير على مجادلة حريحور الذى كان يعلوه فى مراتب الكهنة بدرجات كثيرة .

ففي أمسية مقمرة من أماسي طيبة الجميلة في شهر يقع في مستهل الصيف ، كان حريحور — وهو كاتب البردية يروى فيها عن نفسه — جالسًا في بهو مكشوف من أبهاء المعبد ، وإذا بشبح إنساني يقترب منه في سكون خاشع ، حتى إذا ما واجهه استأذن في الجلوس لأن عنده أمرًا يريد أن ينفضه عن نفسه ليستريح ، وما هو إلا أن أشار له الكاهن الشيخ ليأذن بجلوسه ، وينحني تجاهه انحناءة خفيفة ليسمع ، فطفق الكاهن الشاب — ولم يذكر اسمه من أول البردية إلى آخرها ، مكتفيًا بالإشارة إليه إشارات لا تخلو من معاني التصغير والتحقير — طفق الكاهن الشاب ، في لعثمة أول الأمر وفي طلاقة بعد ذلك ، طفق يشكو من أن حريحور قد نسب إلى نفسه قصيدة من الشعر ، وتلاها على ملأ من الناس وكأنها من صنعه ، فلم يشأ الشاب — وهو ناظم القصيدة الأصيل — لم يشأ أن يعترضه أمام الناس ، وهاهو ذا قد جاء إليه ليطلب منه أن يصحح للناس هذا الخطأ ، وهو خطأ لابد أن يكون قد وقع سهوًا من الكاهن العظيم .

ويروى لنا حريحور كيف صعق لهذه الجرأة النادرة من صغير مغمور يواجه بها عظيمًا مشهورًا ؛ وحاول أن يفهمه بأن الملكية في ثمار الفكر هي للجماعة لا للفرد ، على أن يظفر بفوائدها أطول الناس ذراعًا وأجهرهم صوتًا وأرفعهم منبرًا ؛ فأقل شيء في مجال الفكر هو أن تخلق الفكرة وتبدعها ، أما الأهمية كلها فإنما تكون لمن استطاع أن ينشرها ويذيعها : هب أنك يابني قد تركت لقصيدتك . لاتجد اللسان البليغ الذي ينشدها ويذيعها : فما قيمتك عندئذ وماقيمة قصيدتك هذه ؟ وهنا أراد الكاهن الشاب أن يقول شيئًا ، لكن الكاهن العظيم قد ضاق به صدرًا فنهره وطرده من المعبد .

ولقد بدأ حريجور فى برديته بذكر هذه الحادثة ، لا لأن لها عنده خطرًا فى ذاتها ، بل ليستهل بها حديثًا يريد أن يثبته ، لعله يرسى به للأجيال القادمة أصولاً ومبادئ تكون هى العماد كلما أشكل عليهم أمر فى أخلاقية العلم والأدب .

فى شريعتنا – هكذا كتب حريجور – لا تقتصر البلاغة على الكلام المنطوق ، بل هى صفة تصف الصمت قبل أن تصف الكلام ؛ فالصمت عندنا أبلغ وأفصح ؛ لكن الصامت البليغ ليس هو كل صامت ، وإلا لجاز أن نصف بالبلاغة جلاميد الصخر وصم الجبال ، وإنما تكون البلاغة للصمت عند وجهاء القوم وعظمائهم دون السفلة منهم والسوقة والرعاع ، فاظفر لنفسك أولاً بمقعد كبير وثير ، تحيط به الحاشية الخادمة المطيعة ، قبل أن يحل لك أن تسلك فى زمرة أصحاب الصمت البليغ ، وينتج عن هذا المبدأ الأول مبدأ ثان ، وهو أن الأديب لا يشترط فيه أن يقول أدبًا أو أن يكتب أدبًا ، لأن شريعتنا تعطى الصدارة فى دنيا الأدب لمن كسب لنفسه البلاغة الصامتة ، فلا يسأل أديب عن أدبه إلا إذا كان أديبًا ناشئًا صغيرًا ، أما ذو الجاه العظيم فهو أديب بسحنته وملامحه وطريقة قيامه وقعوده ، وهاكم تاريخنا الأدبى كله شاهدًا على صدق ما أزعم ، فكلما علا الأديب وصعد ،قل إنتاجه حتى إذا بلغ قمة المجد كان إنتاجه صفرًا ، وسر فى هذا المنطق إلى نهايته ، تجد أن العلو والصعود – كعروش الأباطرة والملوك – قد تجيء أصحابها بالوراثة لا ببذل الجهود ، فحين يكون الأديب – فى ملتنا – أديبًا أصيلاً عريقًا ، نعفيه من قول الأدب وكتابته ، فلغيره من الصغار العاملين أن يكتب وأن يقول ، وله هو الريادة والقيادة ، فأنى له بطول الزمن الذى يسع أن ينتج الأدب وأن يرود ويقود فى آن معًا ؟ إنه إما هذه وإما تلك ، ولا جمع بين الضدين فى أمثال هذه الأمور .

إن هذا الكاهن الصغير حين اجترأ عليّ ببذاءته في سكون المعبد وجلاله ، وقد فاته ما قد خطته الأقدار للناس من حظوظ ، فللمرضى عليهم أن يعيشوا في رفعة ونعيم ، وأما المغضوب عليهم فلزام أن يعملوا كادحين ؛ وهذا مبدأ حكيم مهما اختلف مجال التطبيق ، فإذا كان فلاح الأرض يزرعها وصاحب السيادة يأكل الزرع ، فكذلك على صغار الناس في دنيا الفكر والأدب أن يكتبوا وينظموا ، ليكون الحصاد من نصيب الكبار ، تلك هي عدالة السماء التي لا تنحرف عن الجادة ولا تجور .

وهنا ينتقل حريجور ليضرب المثل بالتجارة والقرصنة ، قائلاً في يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة ، إن التجار هم الذين يجوبون البحار بتجارتهم التي اشتروها بالمال ، وأرادوا من ورائها الربح بالكد والكدح والعرق ، لكن فوق هذه الطبقة طبقة أعلى وأرفع — إذا قيست الأوضاع بمقاييس السماء العادلة — وأعني فئة القراصنة ، الذين لا يطلب منهم إلا شيء من مهارة وبراعة ، فيعلمون كيف يباغتون وأين ؛ لتكون ثروات التجار من نصيبهم هم حقًّا مشروعًا حلالاً ، ويتعجب حريجور ممن يأنفون من تطبيق أصل القرصنة ومبادئها على دنيا الفكر والثقافة ؛ فماذا يمنع أن تفكر أنت وأسعد أنا ؟ ماذا يمنع أن تشقى أنت وأنعم أنا ؟ ماذا يمنع أن تهيئ أنت الطعام لآكل أنا ؟ تلك هي سنة الله في خلقه ، لا فرق عندها بين زراعة وتجارة وثقافة ؛ أليست الأرض مليئة بمن يعملون ولا يأكلون ، وإلى جوارهم من يأكلون ولا يعملون ؟ إذن فهذه قسمة واجبة معقولة ، كائنًا من كان العاملون والآكلون .

إلا أنها لبدعة وضلالة من هؤلاء الصغار أن يستنوا للأشياء طبائع غير

ما أراد لها الله من طبائع ؛ هى بدعة وضلالة ينبغى وأدها فى مهدها قبل أن يستفحل أمرها ، وتلك هى أن يظن الكاتب أو العالم أو الفنان أن ثمرة جهده عائدة عليه بجاه وسلطان ! من هو الفنان الذى نحت فى الجبل هيكلاً وشاد فوق الأرض معبداً ؟ من هو النحات الذى نحت التماثيل وأقام المسلات ؟ من هو الكاتب الذى أنشأ كتاب الموتى ؟ من هو العالم الذى حسب الحساب بأرقامه عندما شيد الهرم ؟ هل سمع بأسمائهم أحد ؟ لكن الأسماء المسموعة هى أسماء الملوك والأمراء الذين من أجلهم أقيمت الهياكل والمعابد ، ونصبت المسلات ، ونحتت التماثيل ؛ فمن ذا الذى خدع ذلك الكاهن الشاعر ، فأوهمه بأنه مادام هو الذى نظم الشعر فمن حقه أن ينعم هو بالثمرة والعائد ؟ إن قسمته فى اللوح المحفوظ هى أن ينظم الشعر ، وقسمتنا نحن القادة الرواد هى أن نوجهه كيف شئنا ، وأن نضعه أين شئنا ، وأن تكون القطوف نصيبنا ؛ لقد خرجت الفراشة الجميلة المزهوة بألوانها وزخارفها من دودة حقيرة ، فهل يحق لهذه الدودة أن تقاسم الفراشة زينتها وزخرفها ؟

إن هؤلاء العاملين الصغار عليهم تحميل السفن بأثقالها ، ولنا نحن الكبار حق القرصنة لنأخذ الأحمال معبأة مجهزة ، وبالقرصنة — لا بالتجارة — بنيت دول وأقيمت عروش ؛ نحن الغزاة الفاتحون وهم الأسلاب ؛ فهل سمعتم بغزاة يقاولون ويفاوضون ويقاسمون بالقسطاس ؟ ألا ترون الغزاة ينقضون على الفرائس انقضاضًا ، فتكون لهم الغنيمة ، وللفرائس الذل والهزيمة ؟ إن ثمرات التين الناضجة لها الحلاوة كلها ، صنعت لها ولم تصنعها لنفسها ؛ صنعتها لها الجذور والجذوع والأوراق والفروع ، فهل نقول فى نهاية الأمر إنها حلاوة التين ، أو ترانا ننسب الحلاوة إلى صانعيها ؟ ألا فليعلم هؤلاء الصغار أن الكتاب

يكتبون والملوك يوقعون ، وتلك هي الحياة كما أراد الله أن تكون على الكوكب الأرضي ، فعلى الناقين الثائرين أن يرحلوا — إذا استطاعوا — إلى كوكب غير هذا الكوكب ، ليلتمسوا لأنفسهم أوضاعًا جديدة ترتب على أساس الجهد المبذول ، لا على أساس الأبهة ذات الطنين .

لقد أكثرت من كلمة « الصغار » وأخشى أن ينصرف اللفظ إلى صغار العمر ، بحيث يظن أن القسمة فى شريحتنا هي قسمة بين صغار الأعمار وكبارها ؛ فقد أردت بالصغار صغار الوزن والحيز ، إذ قد تكون صغير السن لكنك ذو حيز ضخم ووزن ثقيل ، كما قد تكون كبير السن لكنك خفيف تافه ضئيل .

فلما بلغ صديق عالم الآثار من برديته هذا المدى ، وجدها مهرأة محترقة مطموسة المعالم بفعل الزمن ؛ فأخذ يلفها بسبابتيه فى رفق ، إلى أن ظهر منها جزء آخر تسهل قراءته ، فاستأنف القراءة ، فإذا الكاتب قد دخل فى روايات يرويها عن أشخاص عرفهم أو سمع عنهم ، ليؤيد بأخبارهم صدق مبادئه ؛ فكم من عامل مرهق ذهبت جهوده عرقًا على جبينه ، وتيجانًا على جباه الآخرين ، وكم من رجل جاءه المجد منحة سماوية لم يبذل فى سبيله ساعة من عمل .

أخذ حريحور فى برديته يروى عن مجلس الكهنوت فى مدينته طيبة ، ويستعرض تواريخ أعضائه ، ليطمئن إلى سلامة حكمه وسداد حكمته ؛ فهذا عضو من أبرز أعضائه منزلة وأعلاهم مكانة ، ماذا عنده إلا مقدرته الفائقة فى اختيار أماكن الجلوس كلما أقيم للناس حفل فى هيكل أو معبد ؟ إنه يجيء إلى المكان مبكرًا ، ويقف عند الباب لحظة ، يتلفت فيها يمنة ويسرة وإلى أمام ، وبحدسه الصادق يعرف أين مكان الكاهن الأعظم ليختار هو أقرب المقاعد إلى

حضرته ونظرته ، بحيث يصبح على يقين من أن نظرة واحدة من نظرات الكاهن الأعظم لن تضيع عليه سدى ، وأن الكاهن الأعظم ليعجبه من رعيته مثل هذه البصيرة النافذة والاختيار المتروى ، فهل يسعه عند تعيين الحاشية إلا أن يجعل صاحبنا هذا فى مقدمة التابعين ، فما إن يجلس على كرسى الحاشية حتى تخلع عليه أردية العلم والفقه ،علم الدنيا وفقه الدين ، وإن حريحور ليروى عن صاحبه هذا ليبين للناس صدق الحكمة القائلة إن المرء حيث يضع نفسه ، فضع نفسك على مقاعد الرئاسة تكن رئيساً ، وعلى مقاعد العلماء تكن عليمًا ، وعلى مقاعد الأدباء تكن أديبًا ، فهل شهدتم حقيقة أوضح من هذه الحقيقة وأجلى ؟

ولست أدرى لماذا لم يذكر لنا حريحور اسم صاحبه ذاك ، أو لعله قد ذكره فى الجزء الذى أصابه الزمن بالطمس والمحو ، وأقول ذلك لأنه انتقل فى حديثه إلى الرواية عن عضو آخر فى مجلس الكهنوت ، قال إن اسمه أميناتون سلك طريقه إلى المجلس عن طريق المريدين والأتباع ، فالطريقة هنا هى عكس الطريقة الأولى ، كانت الطريقة الأولى هى أن تختار لنفسك أن تكون تابعاً ، وكل ما فى الأمر أن تحسن اختيار الرائد المتبوع : أما هذه الطريقة الثانية فهى أن تختار لنفسك أن تكون رائداً متبوعًا ، ثم تعرف كيف تجمع حولك الأتباع ، لأنه إذا كثر الأتباع وازدحموا وملأوا الهواء بضجيجهم ، كانت الحصيلة المؤكدة المحتومة ، هى أن يقول الكاهن الأعظم لنفسه : إن لهذا الرجل لقدرًا عظيمًا فى دنيا الفكر والأدب والعلم والفن ، فهاتوه فى مجلسنا عضوًا ليشرف المجلس بوجوده .

وينتقل بالراوية إلى عضو ثالث ، يقول إن اسمه حبحوت ، قد سلك إلى المجلس طريقًا ثالثًا ، فلا هو اتبع أحدًا ولا استتبع أحدًا ، إنما طريقته أشبه

ما تكون بعالم السيمياء الذى يحيل النحاس ذهباً ، فلا تدرى كيف يغرى صغار الكتاب بأن يقدموا إليه أعمالهم ليهديهم فى أمرها سبيل الصواب ، فتقع عيناه الماهرتان المدربتان على ما يصلح من هذه الأعمال للصهر فى معمله ، فتراه يخفيها عن أصحابها فى جيب معتم ، ويماطل أصحابها ويماطل ، ثم يفعل النسيان فعله ، فإذا هو يخرجها من محابسها لينشرها فى الناس ملكاً له حلالاً ، ولست أرى فى ذلك شيئًا من الظلم على أحد ، لأن العبرة بمن استطاع أن يطالع الناس فى نور الشمس ، لا بمن أخفى عمله فى ستر الظلام .

وعلى ذكر الظلام وستره نقول : إن القراصنة لم يكونوا دائمًا ممن يباغتون السفن فى وضح النهار ، بل منهم – ولعل هؤلاء أعتاهم – من يفضلون التسلل إلى مدن الشواطئ فى عتمة الليل ، ينهبون ويأسرون ، ويخرجون بالغنائم والسبايا ، ومايزال الليل « منشور الذوائب » ، وعندنا فى مدينة طيبة ، ومن أعضاء مجلس الكهنوت أنفسهم ، قراصنة الليل وقراصنة النهار ، كل فى مجال تخصصه يجول ويصول .

ويمضى حريحور فى برديته مصورًا نماذج القراصنة فى بحر الثقافة على عهده ، فيلفت أنظارنا إلى قرصان يأبى عليه ضميره الحى أن يبقى السلعة المنهوبة على شكلها ، لأنه يرى فى ذلك خروجًا على مبادئ الأخلاق ، فتراه يعمد إلى تشويهها لتختفى ملامحها ، كلها أو بعضها ، لعل ذلك أن يكون له شفيعًا ، وأعسر مشكلة تصادف هذه الطائفة المهذبة من القراصنة ، أن السلعة المنهوبة المراد تغييرها ، كثيرًا ما تكون مفرطة فى حيويتها ، حتى لتراها كلما مسها إزميل التشويه ، اختلجت يد القرصان العامل فيها بإزميله ، وطفقت تنتفض هنا وتتلوى هناك ، حتى يتركها قرصانها وعلى جسدها ملامحها الأولى ، يعرفها بها

أصدقاؤها القدامى إذا ما صادفتهم فى بعض الطريق .

على أن أبرع القراصنة جميعًا فى دنيا الفكر والأدب ، جماعة شأنها عجب من عجب ، لأن الواحد منها لا يجاهد ولا يسعى ، إن له طريقة عجيبة فى اصطناع السحنة التى تشع هيبة ووقارًا ، إنه لا يمالئ أحدًا ولا يدع أحدًا يمالئه ، إنه لا ينهب شيئًا من بر أو من بحر ، إنه فى جلسته الوقورة الهادئة ، أو فى مشيته البطيئة الثابتة ، أو فى نبرات حديثه الواضحة المتأنية ، يجذب الأضواء ويعكسها رائعة وضاحة ، كما يتلقى القمر ضوء الشمس فيعكسه ، فيروع الناس بجماله ، هل يجوز لأحد أن ينكر على القمر روعة ضيائه لكون هذا الضياء منعكسًا على سطحه الظاهر ، وليس منبثقًا من فطرته وطويته ! كذلك قل فى هذا النوع الجليل من قراصنة الفكر والأدب ، لا يجرؤ مجترئ أن يسأل عنهم ماذا قدمت للناس رءوسهم وبأى شىء جرت أقلامهم ، وإذا سأل سائل مثل هذا السؤال عن أحدهم ، كان هو الحقيق عند القوم باللعنة ، وإن هذه الطائفة من القراصنة غالبًا ما تكون لهم الريادة والقيادة ، مؤهلهم الوقار الجاد ، وشهادتهم الرصانة الرزينة ، ولا عجب – إذن – أن يكون معظم أعضاء المجلس الكهنوتى فى طية من هذا الصنف النفيس .

ومرة أخرى بلغ صديق عالم الآثار من برديته موضعًا نال منه الزمن بالبلى ، فهتكت فيه الأسطر ومحيت الكلمات ، فنظر إلى صديق ونظرت إليه ، وتوقع كل منا أن يسمع من زميله شيئًا ، ودام هذا الصمت المتعجب لحظة ، لفظت أنا بعدها زفرة المبهوت لما سمعه ، فسألنى صديق : ماذا ترى ؟ فقلت : ما أراك إلا رامزًا أوضح الرمز بماض غابر إلى حاضر مشهود .

٦

لم يكن الثلاثة – الأحدب وإبراهيم وأنا – إخوة ولا أولاد عم وخال ، فليس بين أى منهم والصنوين الآخرين من التشابه بقدر ما بينه وبينهما من الاختلاف ؛ ولكنهم برغم ذلك – كما أسلفت القول عنهم مرارًا – متواصلون مترابطون على نحو حيوى عجيب ؛ فقل إن شئت إنه نوع من التكامل ، بحيث تتألف من ثلاثتهم وحدة واحدة كان يمكن أن تتوافر للفرد الواحد لو أنه جاء ثلاثتهم وحدة واحدة كان يمكن أن تتوافر للفرد الواحد لو أنه جاء فردا متزن الفطرة والسلوك ، فالأحدب هو « الطبيعة » أو هو «الحيوان» من الكيان البشرى ، هو الجهاز الفطرى من الإنسان ، الذى لولاه لما وجد الأساس الذى يقام عليه الإنسان بعد تحضر وتهذيب ، ومن هنا جاءت قوته وكان ضعفه فى آن معا ، فيه قوة الطبيعة وفيه ضعف البداثية ؛ إنه كائن منفعل أكثر منه كائنًا مفكرًا ؛ وأما إبراهيم فهو العقل الدارس الذى لا يكاد يتميز بخاصة تجعل منه إنسانا بغير شبيه ؛ لأن كل عقل دارس هو ككل عقل دارس ، مادام موضوع الدراسة معينًا محددًا ؛ حتى لو كان لإبراهيم رأيه الخاص فى مجال دراسته ، فهى خصوصية كان يمكن أن يتميز بها رجل من الهند أو رجل من البرازيل ؛ لأنها ليست هى الخصوصية التى تنبع من الروح وهو مرسل على سجيته ؛ ولذلك فلا يحدث قط أن يكون إبراهيم هذا أو من يماثلونه من سائر البشر الدارسين دراسة علمية موضوعية ، موضعا لحب الآخرين أو موضعًا لسخطهم ؛ فقد يوافق الآخرون على موقفه العلمى وقد لا يوافقون ، لكن الأمر على كلتا الحالتين لا يقتضى حبًّا أو كراهية ، ولا كذلك الأحدب ومن يماثلونه ممن يحيون حياة العاطفة ، فهاهنا تكون الخصوصية المميزة حقا ، وهاهنا يقف الآخرون من

صاحب تلك العاطفة وميولها ، مواقف الحب والكراهية والرضى والسخط والطمأنينة والغضب .

وأما أنا — فوزى الراوى — فأتميز دون الآخرين بسهولة الانخراط فى قوالب المجتمع بكل ما فيه من عرف وتقليد ومجاملة وصداقة وزواج ومواطنة وانتماء فقد يكون لدى شىء من عاطفة الأحدب ، دون أن تفصل تلك العاطفة بينى وبين سائر الناس ، كما قد يكون لدى شىء من عقلانية إبراهيم . ولكنها عقلانية لا ينشأ عنها اعتزال وانفراد .

لم تكن هذه الفواصل بين ثلاثتنا واضحة عندما كنا صغارًا — وهذا القول هو من قبيل الافتراض المحض ، لأننا لم نستطع أن نعود بذاكرتنا إلى قيام علاقة بيننا ونحن فى سن الطفولة ، بل إنها علاقة لم نستطع تبينها فى مرحلة المراهقة وأول الشباب — ويبدو أنها فواصل أخذت فى النشأة والظهور منذ بدأنا التعرف بعضنا على بعض ، وهى الفترة التى بدأنا فيها حياتنا العملية ، وبلغت أوضح حالاتها منذ ظهر الأحدب كاتبا ، وسافر إبراهيم فى بعثته الدراسية .

كان يسيرًا على أن أكون الصداقة مع من يتجانسون معى فى ناحية أو أخرى من نواحى الحياة ، ولقد مررت خلال حياتى الناضجة بمجموعتين من الأصدقاء ، كانت الأولى مكونة من زملاء الدراسة ، وجاءت الثانية بعد ذلك بنحو عشرين عاما ، ويربط بين أفرادها نوع من التقارب الفكرى ، كنت بين المجموعة الأولى أسعد نفسًا منى بين المجموعة الثانية ، كانت الأولى من ذلك النوع الذى يقال عنه حقًّا إن الصديق الحق يوسع من رحابة النفس ، لأن الصديق فيها كأنما يضيف إلى نفسه نفوس سائر الأصدقاء ، إذ لا تكون بينهم الحواجز التى تحول دون أن ينفض كل منهم دخيلة نفسه بغير حذر أو حرج ،

وأما المجموعة الثانية فكانت بين الأفراد حواجز وسدود ؛ كان بين أفراد المجموعة الأولى تنافس الأنداد ، وأما بين أفراد المجموعة الثانية فكان فيها التعالى والتفاخر والحذر والكتمان .

وربما وضح الفرق بين المجموعتين إذا قلت عن الأولى إن رجلا فى حرارة الأحدب كان يمكن أن ينخرط فيها ، أما إبراهيم فلا أتخيله مقيما على رابطة تربطه بها زمنا طويلا ؛ على حين أن إبراهيم هذا ببرودة عقلانية كان يمكن أن ينخرط فى المجموعة الثانية فى غير عسر ، لأن الانفصال عنها يتم كذلك فى غير عسر ، لأن الروابط ليست قلبية بين أعضائها ، وأما الأحدب فما كان يطيق مع المجموعة الثانية جلسة أو جلستين ؛ لكننى كنت بحكم تكوينى الذى أشرت إليه ، أن أكون عضوًا فى الجماعتين على حد سواء .

ولقد ظهر الفارق بينى وبين الصنوين الآخرين بصورة أجلى فى الزواج ؛ أما الأحدب فقد جمد عند حبه لسميرة التى أشعلت فى قلبه الجذوة عندما كان فى مرحلة المراهقة ، وكان كلاهما — سميرة والأحدب — فى تلك المرحلة من العمر ، على سذاجة ريفية أو ما يشبهها ؛ أما هى فقد عاشت بقية عمرها على تلك البساطة الأولى ، لم تدعها ظروف حياتها إلى أن تغير منها شيئا ؛ وأما هو فقد ارتفع درجات فى السلم الثقافى ، ولكنه بالنسبة إلى الجنس الآخر ظل على بساطة الفطرة التى كان عليها عندما أشعلت له سميرة النار .

وأما إبراهيم فليس له قلب يسيره ، ولست أدرى من أمر زواجه شيئا ، ولكننى على يقين من الطريقة التى يواجه بها شئون الحياة كافة — جنسا وغير جنس — فهو إذا ما أراد امرأة تشاركه الطريق ، لجأ إلى عقله ليصور له تركيبة ذهنية لامرأة قد لا يكون لها وجود ، وعاش مع ذلك الوهم الذهنى ، إنه رجل

بضاعته أفكار وتصورات يراعى فى تكوينها ما يظن أنه الكمال ، ثم يقنع من دنياه بهذا القدر .

وأما أنا فقد أنعم الله على بكثير جداً من نعيم الدنيا ، وكان أجلها زوجة ربط بينى وبينها كل الروابط التى تربط رجلا وامرأة على حب ورحمة ومودة ، فقد وجدت معها نفسى بكل حروفها ، من الألف إلى الياء ، إذا كنت فى إحدى لحظات العقل وجدت معى عقلا يشاركه ، وإذا كنت فى نشوة من شعر قرأته أو قطعة فنية شهدتها ، وجدت ذوقا فنيا يستجيب ، وإذا غمرتنى موجة من شئون الحياة العملية ، وجدت من يحمل معى العبء ، أو يحمل عنى معظم العبء ، وإذا أخذنى غرور بموقف وقفته أو بشىء كتبته ، وجدت من يشيع فى نفسى الضعيفة أوهام الغرور ، إنها تستطيع أن تكون لى مجتمعا بأسره .

وبهذا التكامل النادر بين شخوصنا الثلاثة ، اكتملت « نفس » فروى الراوى « قصتها » مجتزئا من بحر الأحداث فى حياتها بما يقدم للرائى صورة أو ما يشبه الصورة .

الفصل التاسع

شفق الغروب

١

كنا نحن الثلاثة الرفقاء : أنا (فوزى الراوى) والأحدب (رياض عطا) وإبراهيم الخولى ، متقاربين فى العمر ، فلم يكن الذى يفرق بيننا هو التفاوت فى عدد السنين . بل كان اختلافنا فى الطبائع ؟ أما أنا فقد كنت دونهما معا أسلك نفسى فى قوالب المجتمع بمعظم تقاليده وأعرافه ؛ ولذلك كنت أكثر منهما هدوء نفس وراحة بال ؛ وأما رياض عطا (الأحدب) باشتعال عواطفه ، وإبراهيم الخولى ببرودة عقلانيته ، فقد كانا على طرفى نقيض أحدهما من الآخر ، ولكنهما كانا معا ينبوان عما يرضى عنه جمهور الناس .

لم نكد نحن الثلاثة نعبر الستين من أعمارنا ، حتى حدث اختلاف ظاهر فى الصورة التى كانت تجمعنا معا قبل ذلك فى ثالوث واحد ، وبيان ذلك أنى جمدت على الطريق أسلك فى حياتى العملية على نحو ما تسلك الكثرة الغالبة من الناس ، داخل البيت وخارج البيت ، وفى حدود أسرتى وخارج تلك الحدود ، وأما زميلاى الآخران ، فالأمر معهما يختلف عن ذلك اختلافا بعيدًا ، وكأنى بهما – واعجباه – يقتربان أحدهما من الآخر ، اقترابا أشك أن يكون دمجا لهما معا فى هوية واحدة ، بعد أن كانا مختلفين اختلاف العاطفة الساخنة والعقل المثلوج ؛ وكيف كان ذلك ؟ لقد عهدت كلا منهما كاتبا . فأما الأحدب فقد

عهدته يكتب وكأنه ينفث اللهيب من قلمه ، وأما إبراهيم فعرفته باسطا لأفكار العقل بمنطق خالص قلما أدفأته حرارة الوجدان ، وأما بعد أن بلغا من العمر مابلغا ، فقد صار الأحدب أقل عاطفة وأكثر منطقا ، كما صار إبراهيم أقل نطقا وأكثر عاطفة ، فتشابه الكاتبان حتى كدت لا أميز بينهما ، فأقرأ المقالة أو الكتاب لأحدهما فأظنه للآخر ، إلا أن أرجع ببصرى إلى اسم الكاتب ، فأعرف لأيهما أقرأ ، ولهذا فإنى فى روايتى هذه عنهما فى هذا الفصل الأخير ، سأتجاهل أنهما اثنان ، وسأتحدث عنهما وكأنهما رجل واحد امتزجت على قلمه العاطفة والفكرة فى كيان واحد .

ولكل سيرة نقطة ابتداء ، ونقطة البدء فى سيرة صاحبنا الجديد — ولنطلق عليه اسم إبراهيم الأحدب إذا شئنا — كانت هى اللحظة التى روى لى عنها إبراهيم عندما كان يلقى على طلابه محاضرة ، كان يعلم — وطلابه لا يعلمون — أنها هى المحاضرة الأخيرة فى حياته العاملة بالجامعة ؛ كان ذلك فى الأيام الأولى من شهر مايو ، الذى لم يعد بعده إلا شهر واحد ، ثم يحذف اسمه من قائمة هيئة التدريس لبلوغه سن التقاعد — كما جرى العرف أن يسموه ؛ كان إبراهيم فى تلك المحاضرة الأخيرة أشبه بالروائى جيمس جويس وهو يكتب رواية يوليسيز ، فينظر إلى مايدور حوله مرة ، ويغوص إلى باطن نفسه مرة ، حتى اختلط الأمر بين ظاهر وباطن ؛ فهكذا كان إبراهيم عندئذ ؛ يحصر ذهنه فى الفكرة التى يعرضها على الطلاب حتى لا يلتاث معه القول وتضطرب العبارة ، لكنه لم يستطع برغم ذلك إلا أن يغوص داخل نفسه ليحس الرجفة الخفية التى كانت تسرى بين أوصاله ، لعلمه بأنه قد أشرف بحياته النشيطة العاملة على نهايتها ؛ وكأنه كان لايصدق أن ستين عاما من عمره قد انقضت .

نعم إن الجامعة قد سارعت – مشكورة – فأرسلت إليه مع الخطاب الذى تعلنه فيه بانقضاء عهدها معه أستاذا فى قائمة الأساتذة ، خطابا آخر تنبه فيه بأنها تحرص على بقائه فى ساحتها ، ولذلك فقد عينته أستاذا غير متفرغ ؛ لكن هذه الرابطة بكل ما فيها من خير ، لم تعد هى الرابطة التى كانت ، فلقد أراد إبراهيم ذات يوم أن يسترد من الجامعة شهادة الدكتوراه لأنها كانت مطلوبة فى ظرف ما ، فأحالوه إلى مخزن بإدارة الجامعة ، خزنت فيه ملفات العاملين ، وهناك طلب من الموظف المسئول استرداد تلك الوثيقة مؤقتا ، فما كان من الموظف إلا أن جاء له بملف أوراقه ، وفتحه أمامه ، وقال : خذ من أوراقك ماشئت ، خذها كلها إذا أردت ، فلم يعد بين الجامعة وبينك من صلة ؛ لم تعد أوراقك هذه مطلوبة لنا ، اللهم إلا ورقة واحدة ، هى شهادة الميلاد ، وقد أخذناها بالفعل وأرسلناها إلى حيث ينبغى لها أن ترسل .

لم يقل الموظف فيما قال كلمة باطل ؛ كل ما قاله حق ، لكنه حق وقع على قلب إبراهيم وقع الخناجر ، لماذا ؟ ألم يكن إبراهيم هذا مفتونا بمنطق العقل – لا يبتغى لنفسه وللناس إلا كلمة حق يقرها عقل لم تضعفه عاطفه ؟ فما الذى هزه وقلب كيانه من قولة حق ؟ إنه إذن لم يعد هو إبراهيم الذى عهدته قبل ذلك وعهده الناس وفلابد أن يكون قد تقمص شخصية الأحدب ، فامتزجت فى إهابه عاطفة بعقل ، وعقل بعاطفة .

٢

كان ذلك هو غروب العمر قد حانت ساعته ولاحت بوادره ؛ لكن صاحبنا إبراهيم قد أخطأ الحساب ، فلئن كان ذلك غروبا ؛ فهو إذن غروب قد طالت ساعته وكأنه الغروب لمن يسكن منطقة القطب فى فصل الصيف ؛ وإلا فهل

علم إبراهيم عندما حذف اسمه من قائمة الأساتذة العاملين ، أن مايقرب من عشرين عاما سيحياها بعد ذلك أنشط ذهنا وأخصب إنتاجا ، وأكثر إبداعا للفكر الأصيل المبتكر مما كان فى أى مرحلة من مراحل عمره ؟ لكن ذلك هو الواقع الذى كان ، فكأنما سنة التقاعد – كما يسمونه – هى بذاتها سنة مولد جديد ، أو قل إن الشجرة التى دفنت بذرتها فى الأرض ولبثت تنمو بجذعها وفروعها عقودًا متوالية من السنين ، قد حان لها أن تخرج ثمارها وأزهارها .

فمن لحظة الموت – أو ماظنه إبراهيم يومئذ إيذانًا بموت وشيك – جاء بعث جديد ، وذلك أن عرضت عليه وزارة الثقافة بمصر أن ينشئ لها مجلة للفكر ، وأن يتولى رئاسة تحريرها ، فاختار للمجلة أن تختص بأفكار عصرنا الذى يقلنا على أرضه بكل ما تتفجر به من قنابل ، ويظلنا تحت سمائه بكل ما تنزله علينا تلك السماء من سهام الدمار ، لكنه عصرنا ، ويستحق منا أن نحيا به وفيه ، ليحيا هو بدوره بنا وفينا ؛ وعلى بركة الله وبمشيئته صدرت المجلة تحمل فى كل عدد من أعدادها صوتا مسموعا لصاحبنا إبراهيم فى إهابه الجديد . ينادى فى الناس بألا يكون الفيصل فى الفكر إلا النضج والعمق والصدق ، ولنترك سوانا من عباد الساسة ليمرحوا فى العراك بين يمين ويسار .

وأمسك إبراهيم بزمام سفينته الفكرية تلك يسير بها لترسو هنا أو هناك حيث الكنوز ؛ وفجأة وقعت على سفينته صاعقة من الصواعق التى نألفها فى حياتنا المصرية ؛ وذلك أن جاء فى وزارة الثقافة مسئول ، أبى إلا أن يحول شئون الفكر إلى إدارات ومديرين ، فقال : لنجعل لمجلات الوزارة « إدارة » ولنجعل لكل مجلة « لجنة » تشرف عليها ، فهاهنا هاج « الأحدب » الذى مكن فى صدر إبراهيم ، وسأل : إذا كان الأمر كذلك فقيم اختيارى رئيسا للتحرير؟

ولماذا لا أترك مقعدى لأصغر طالب من طلابى ؟ لقد كانت المسألة عنده قبل ذلك « رسالة » يريد أداءها ، فهل يرضى أن تصبح على يديه أوامر تهبط عليه من مديرين ، وتشرف لجنة على حسن التنفيذ ؟ اللهم لا ؛ وأرسل إبراهيم برقية فى صباح اليوم التالى ، وكأنما الأحدب هو الذى أملى عليه عبارتها ، يتنحى بها عن المضى فى الطريق التى رسمت له ، لكن المسئول الكبير نفسه الذى خطط الطريق ؛ هو الذى اتصل بإبراهيم ليؤكد له أنها « شكليات » لاتعنيه ، فاستأنف إبراهيم سيره على دربه ، ولكن فى كثير من وساوس القلق .

فى ذلك الوقت نفسه الذى وجد شخصيته فيه مشدودة بين قطبين متناقضين : قطب فيهما هو شعور إبراهيم باحترامه لنفسه ووثوقه بأنه إنما يضطلع نحو أمته برسالة ثقافية ، مؤداها أن يترك للعقل — وللعلم بالتالى — أن يحتل مكانه ومكانته فى حياتنا العامية ، وأن ينحصر الوجدان فى دائرته الخاصة به والتى يسترشد فيها الإنسان بقلبه المؤمن العاطف الشاعر ، أقول إن صاحبنا إبراهيم ، الذى امتص فى كيانه عندئذ بعدًا انفعاليًا من رفيقه الأحدب حتى كاد الرجلان أن يندمجا فى هوية واحدة ، إن إبراهيم هذا قد ارتج بنيانه ارتجاجا عنيفا ، عندما ظن واهما أنه صاحب رسالة ثقافية ، فإذا الكلمات تأتيه من أولى الأمر فى وزارة الثقافة ، لتشعره بأنه بمثابة « موظف » كلفته الوزارة بمهمة يؤديها ، ولذلك فقد عينت « مديرا » « لإدارة » المجلات (! !) ليكون له التوجيه ، كما عينت « لجنة » ليكون لها الإشراف ؛ ويشاء الله فى اللحظة نفسها أن يحدث حادث آخر من شأنه أيضا أن يرد صاحبنا إبراهيم الأحدب (وهو الاسم الذى أطلقته على شخصية إبراهيم الجديدة) إلى صوابه إن كانت أوهامه قد طارت بصوابه فى عالم الضباب والسحاب ؛ وهو أن صاحبنا كان عضوًا فى لجان

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (كما كان يسمى فى ذلك الحين) لكنه كان دون سائر الأعضاء كثيرا جدا مايطلب منه فى شىء من الرجاء ، أن يكتب - نيابة عن المجلس - موضوعات تقدم فى مناسبات مختلفة كالمؤتمرات الثقافية وما إليها ، مما أوحى إلى صاحبنا أنه موضع تقدير خاص ، وإذا به يباغت بموقف أو موقفين عرف منهما كم هو قليل الشأن عندهم فى اللحظات الحاسمة ، فانفعل انفعالة أحدبية وأرسل إلى الأمين العام للمجلس استقالته من اللجان التى كان عضوا فيها ، فما أسرع - وادهشتاه - أن أجابه الأمين العام بقبول استقالته ، فلو كان إبراهيم الخولى هو نفسه إبراهيم الخولى الذى عهدته طوال السنين ملتزما أحكام العقل وحده ، لما حزن واضطرب ، لأنه قدم استقالته فقبلت الاستقالة ، فأى غرابة فى ذلك ؟ لكنه كان قد أصبح شخصا جديدا باندماجه فى الأحدب أو اندماج الأحدب فيه ، وبات العقل عنده مبطنا بعاطفة ، نعم ، فلقد حزن إبراهيم واضطرب ، قائلا لنفسه : إنه لو كان فى منزل الأمين العام طاه طهيا له الطعام لعشر سنوات كالسنوات العشر التى كنت قضيتها عضوا فى لجان المجلس ، ثم قدم له الطاهى استقالة مفاجئة ، لسأله : ما الذى أغضبك ياعم إبراهيم ؟ محاولا بذلك أن يرأب الصدع إذا كان ثمة من صدع فى العلاقة بينهما ، أما إبراهيم الأستاذ الجامعى والكاتب وعضو اللجان الثقافية ، فلا بأس فى أن يستقيل فى أية لحظة شاء .

فلا غرابة - إذن - أن تمتلئ نفس إبراهيم الأحدب بوساوس القلق ، وكان مما ذكره لى إبراهيم بعد ذلك بنحو شهر ، أن وزير الثقافة يومئذ دعاه لمقابلته ، فلما تم اللقاء ، بدأ الوزير بعتابه لأن إبراهيم لم يزره بمناسبة توليه منصب الوزارة ، فأجابه إبراهيم معتذرا بأنه يعتقد فى أن الصواب هو أن ينصرف كل إلى

عمله ، فقال الوزير مامعناه : دعنا من ذلك ، لقد بلغنى أنك استقلت من لجان المجلس الأعلى ، فلماذا ؟ قال إبراهيم : اسمح لى ياسيادة الوزير بعشردقائق أنفض فيها شيئا مما بنفسى من عوامل القلق ، ولن أزيد عليها دقيقة واحدة ؛ إننى أستاذ جامعى بلغ سن التعاقد وأصبحت العلاقة بينه وبين الجامعة هى علاقة الأستاذ غير المتفرغ ، وأريد بذلك أن أقول إنه لم يعد لى مستقبل أرجوه . لأن مستقبلى هو هذا الذى أعيشه الآن ؛ ومعنى هذا هو أننى بما سوف أقوله من ملاحظات . لا أبتغى لنفسى نفعا ولا أدفع عن نفسى ضرا . إننى أنظر فى كل عام إلى الفئة القليلة من طلابى الذين ألمح فيهم الرغبة والقدرة على خوض الحياة الفكرية والثقافية العامة ، لكننى أتساءل : ماذا ياترى هم فاعلون برغباتهم تلك وقدراتهم ؟ إنه من الطبيعى لهم أن يديروا أبصارهم ليروا من الذين يجيسون فى مقاعد الإمارة والإدارة والصدارة فى تلك الحياة العامة ؟ لعلهم يترسمون خطوهم فيصعدون كما صعد أولئك الأفذاذ ؛ وإذا هم يرون عددا ليس بالقليل من أمراء الحياة الفكرية والثقافية قد بلغوا عروش الإمارة بغير كتاب — ولا حتى ورقة واحدة — بيمينهم أو بيسارهم ؛ فكيف — إذن — أجيز لهم الصعود بغير جواز للمرور ؟ يسأل شبابنا الواعد سؤالا كهذا ، وسرعان ما ينكشف لهم الغطاء عن حقيقة رهيبة ، وهى أن بلوغ القمم فى دنيا الفكر والثقافة عندنا ، ليس شرطه الصعود على سلم الفكر والثقافة درجة درجة ، بل وسيلته الأولى هى الطيران على رءوس تلك الدرجات بمعونة من صاحب سلطان ؛ ومادام الأمر كذلك — هكذا أتصور شبابنا الواعد يهمس لنفسه كل عام — فهيا إلى البحث عن أصحاب السلطان ، وإلى الجحيم بالدفاتر والمحابر ..

كان إبراهيم الأحدب فى مثل هذه الحالة القلقة المتوترة ، فسافر إلى

الإسكندرية لعل هموم نفسه أن تنزاح بسحر البحر وهدير موجه ؛ وكان الوقت هو الأيام الأخيرة من العام ، وكانت المصادفة اللافتة للأنظار هي أن رأس السنة الهجرية الجديدة ورأس السنة الميلادية سيلتقيان معا في يوم واحد ؛ ثم كانت إرادة الله سبحانه وتعالى هي أن ترد إلى رسالة من إحدى الجامعات العربية تدعوني إلى التعاقد معها على العمل أستاذا للفلسفة ؛ فلم أتردد لحظة واحدة ، وأسرعت على جناح البرق لأجيب بالقبول ؛ وبهذا أجد الفرصة التي أنجو بنفسي فيها من الأزمة النفسية التي أوقعني فيها الأمين العام للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ومن التوتر العصبي الذي أصابني عندما أراد المسئولون في وزارة الثقافة بأن يوحوا إلى بأنني لا صاحب رسالة ثقافية ولا يحزنون ، وإنما أنا عامل بالأجر القليل ، يدار له أمره ويشرف الرؤساء على شئونه .

وما إن أرسلت برقيتي تلك وعدت إلى الفندق الذي أقيم فيه – هكذا روى لي إبراهيم عن تلك الفترة من حياته – حتى خطرت في رأسي خاطرة كانت كأنها لمعة من لمعات الإلهام ، وهي أن التقاء السنة الهجرية الجديدة والسنة الميلادية الجديدة في رأس واحد ، إنما هو رمز أقرأ فيه توجيها لما ينبغي أن أنصرف إلى عمله عندما يستقر لي المقام في ذلك البلد العربي الذي دعاني ، وما ذلك العمل إلا أن أبدأ لنفسي في موقف ثقافي جديد ، أحاول فيه أن أجمع عنصرين معا في نسيج واحد : موروث الثقافة العربية وحصيلتي من ثقافة الغرب ، فأكون بهذا الجمع عربيا ومعاصرا في آن معا .

٣

كان إبراهيم الحولي أول ما عرفته – وقد كان ذلك وهو في أخريات شبابه ،

أعنى حين كان فى نحو الأربعين من عمره – أميل إلى التجريد فى فكره . بمعنى ألا يصب فكره المنطق الصارم على مشكلات حقيقية مما يعترض الناس فى حياتهم ، ولذلك فكثيرا ما وصفه الواصفون بالصورية التى لا تنفع الناس ولا تشفع له ؛ ولعل تلك الصورية البادية فى نهجه الفكرى عندئذ قد جاءت من حرصه على منطقية الفكر حتى يصبح وكأنه معادلات رياضية ، ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلعل تلك الصورية قد أحدثتها عنده بعده عن الناس وهم فى معمعان العيش ومشكلاته ؛ وإذا كان ذلك كذلك بالنسبة إلى إبراهيم وهو فى الأربعين أو نحوها ، فليس هو كذلك حين رأيته وصاحبته على مقربة بعد أن اقترب من الستين أو جاوزها ؛ فهاهنا لابد أن تكون وجدانية الأحدب قد نضحت على النزعة العقلية عند إبراهيم ، حتى لقد كاد يصبح رجلا آخر ، لا من حيث منطقية الفكر كلما اقتضى الأمر المطروح منطقا ، بل من حيث اختيار الموضوعات التى يجعلها محور تفكيره ؛ فموضوعاته عندئذ تدور فى معظمها حول إنسانية الإنسان ، والإنسان العربى بصفة خاصة ، والمصرى منه بصفة أخص ؛ وإذا كان موضوع النظر هو قيم الحياة كما يعيشها الناس فعلا – فيما مضى والآن – فصعب جداً أن يجىء التفكير صوريا خاويا – أو كالخاوى – من المضمون الحيوى بخصائصه المتينة المتجسدة فى مواقف الواقع .

نعم ، لابد أن يكون للأحدب على إبراهيم فضل غير قليل ، فى أن جعل عصارة الحياة تسرى فى أعواد الحطب فتينع وتخضر وتورق وتثمر .

كان إبراهيم الخولى فى مرحلته الإنتاجية الأولى – بل إلى أن بلغ من العمر خمسين عاما ؛ لاينزل قيد أنملة عن التمسك بالفكرة القائلة بضرورة محاكاتنا للغرب فى كل شىء ، لا فرق فى ذلك بين صغيره من الأمور وكبيرة ؛ وحبذا لو

أكلنا كما يأكلون ، وارتدينا الثياب كما يرتدون ، وكتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ، ودع عنك أن نجعل وجهة نظرنا علمية المنهج ملتزمة لحقائق الواقع الصلب كما يجعلون ، ولم يكن إبراهيم الخولى حتى ذلك العهد من حياته يعليق الإشارة إلى العرب وتراثهم ؛ وكان منطقه فى ذلك بسيطا واضحا ؛ فالغرب قوى ثرى واع بصير . فلماذا لا أسلك كما يسلك لأحقق ماحققه ؟

ولكن أين تذهب الجوانب الوجدانية من هويتى ؟ وبأى معنى يحق لى عندئذ أن أحب وطنى وأهلى ولغتى ، وأن أتغنى بمجدى وتاريخى ؟ ربما لو سئل إبراهيم الخولى إيومئذ هذه الأسئلة ، لأجاب — وأظنه قد سئل أكثر من مرة وكان فى كل مرة يجيب قائلا : ليست حضارة الغرب مقتصرة على أمة واحدة ، بل إن فيها الإنجليزى والفرنسى والإيطالى .. وكل من هؤلاء يعرف كيف يعيش حضارة العصر مضافا إليها تلك النبرات الوجدانية بأرضه هو وأهله وتاريخه ؛ فلماذا لاينطبق ذلك نفسه على المصرى (وكان إبراهيم حتى ذلك الحين لايتحدث عن « العربى ») فيحيا فى مناخ عصره ، ويتغنى كما شاء بمصر وأهلها وتاريخها .

لكن جاءت فى حياته اللحظة التى شاء له الله عندها أن تزال الغشاوة عن عينيه فتشرق عليه الحقيقة كما تشرق الشمس فتبدد الظلام ، والحقيقة بسيطة بساطة أعداد الحساب : فشعوب الغرب جميعا لايملكون بين أيديهم إلا حضارة واحدة وثقافة موحدة الأصول ، وهما الحضارة والثقافة اللتان تطورتا مع الأيام عن جذور اليونان والرومان . بالإضافة إلى ما استعاروه من سائر الحضارات استكمالا للنقص ؛ وأما نحن فموقفنا مختلف ، إذ أن بين أيدينا حضارتين لاحضارة واحدة ، وثقافتين لاثقافة واحدة ، فنشأت لنا مشكلة تريد الحل الذى لا يتحقق بمجرد الهروب من المشكلة وإغماض العين عنها ؛ فأنا مصرى ،

ولكننى أتكلم العربية ، وليست اللغة مجموعة من رموز الرياضة تستخدم للرمز المجرد الذى لايثير فى القلب عاطفة أو انفعالا ، بل اللغة - فى مفرداتها وفى طرائق بناء تلك المفردات فى جمل - إنما تنطوى فى الوقت نفسه على أغوار ثقافية لبثت تزداد عمقا كلما ازدادت الشعوب المتكلمة بها خبرة بالحياة وممارسة لها ؛ فكل لغة فيها إلى جانب كونها رموزا تشير إلى مسميات ، جانب آخر هو العمق الشعورى ، أو إن شئت فقل إنه جانب « الشعر » منها ؛ فإذا كنت مصريا يتحدث اللغة العربية ، إذن فأنا عربى الأغوار والأعماق ، يستحيل على النظر إلى الدنيا إلا من خلال تلك العدسات : لم يعد إبراهيم يشك فى أنه إلى جانب مصريته ، فهو عربى الوجدان وليس له فى ذلك خيار .

ومن هنا انفتحت أمام إبراهيم آفاق جديدة ، إذ نظر فرأى أمامه مشكلة ثقافية نابضة بالحياة . وتفرض نفسها عليه وعلى كل ذى فكر من مواطنيه العرب - أيا كان موطنهم من الوطن العربى الكبير - وتلك المشكلة هى : كيف السبيل إلى حياة نوفق فيها بين الحضارتين وبين الثقافتين ، فنعيش الموروث العربى فى مناخ العصر وعلومه وفنونه ؟ .

وشاء حسن الطالع أن تضع هذه المشكلة نفسها أمام إبراهيم فى روحه الجديدة ، عندما ذهب إلى إحدى الجامعات العربية ، تلبية لدعوتها إياه ، فوجد الفراغ ووجد المكتبة ووجد العزيمة ، فكان أن أخذ يعب من ينابيع الأسلاف عبا ، وأمامه هدف ، هو الإجابة - على ضوء ما يطالعه - عن السؤال المطروح بين يديه ، حتى إذا ما توافرت لديه المادة المناسبة ، عرضها على الناس فى سلسلة من الكتب أخذت تتوالى فى الصدور مملوءة الصفحات بفكر جديد .

لقد كان إبراهيم قد ظن عند بلوغه الستين من عمره ، أن غروبه قد بدأ

ليسلم نفسه إلى حندس الليل ؛ لكن غروبه قد تمطى بأصلابه حتى الآن ما يقرب من عشرين عاما بعد تلك السن ، وكان لذلك الغروب الطويل شفق وردى جميل ، قد يبدو لإبراهيم نفسه أحيانا أنه أجمل حتى من شمس الضحى فى حياته ومن شمس الظهيرة فالأصيل ، ومن يدرى ؟ فلعل الناس إذا ذكروه بعدئذ ، فسيذكرونه بما أنتجه فى ضوء الشفق — شفق الغروب .

٤

لكن ذلك الشفق الوردى الجميل ، أخذت تجتاحه بقع سوداء تتكاثر فى أرجائه يوما بعد يوم ، حتى لتوشك الآن أن تحيله إلى ليل حالك ، لولا بقية من إرادة يحاول بها إبراهيم الأحدب (هكذا أحب أن أسميه فى مرحلته الأخيرة التى امتزج فيها عقل بعاطفة) أن ينتشل نفسه حينا بعد حين من هوة العدم ؛ ومن تلك البقع السوداء ما أصاب البدن من علل عشيت بها العين ، وعرجت الساق ، ودارت الأذن بدوار ، ولكن ما كان أفدح من تلك العلل البدنية فى البقع السوداء ، غدر الأصدقاء غدرًا يمكن اتخاذه علامة على روح هذه الفترة التى تجتازها بلادنا ، بما أحدثته فى النفوس من ضيق وكرب وتوتر ، يغرى الصديق بأن يأكل لحم صديقه ميتا .

فأما العلل البدنية فقد بدأت مع إبراهيم بدوار الأذن ، وكان إبراهيم قد جاوز الستين ببضع سنوات ، وأسرع إلى استشارة الأطباء ، حتى لقد سافر إلى انجلترا ليعرض حالته على خبير ، وأراد الطبيب الخبير أن يبدأ بسؤال مريضه عن معالم حياته السابقة :

الطبيب : ماهى أهم الأمراض التى أصابتك فيا مضى من حياتك ؟

إبراهيم : لم أمرض قط فى حياتى إلا مرة واحدة فى سن التاسعة ، وكانت ضربة شمس .

الطبيب : متى ولماذا دخلت المستشفيات ، فيما تذكر من تاريخك كله ؟

إبراهيم : هذه هى أول مرة ألجأ فيها إلى مستشفى .

الطبيب : هل تدخن ؟

إبراهيم : لا

الطبيب : هل تشرب الخمر ؟

إبراهيم : لا .

الطبيب : اذكر لى صنوف الدواء التى أخذتها أو تأخذها .

إبراهيم : باستثناء أقراص الأسبرين ، لا أذكر أن جسمى قد دخله دواء قط .

هنا ألقى الطبيب بقلمه على مكتبه بحركة عصبية ، قائلا : فليسمع أبناء الغرب ليقارنوا حياة بحياة ، بدأ الطبيب فحوصه وتحليلاته لينتهى إلى نتيجة هى أن ليس هنالك مايدعو إلى القلق ، فظاهرة الدوار مصيرها إلى زوال سريع .

وسارت سفينة الحياة بإبراهيم على خير مايرجوه إنسان فى مثل عمره ، ونشط فى إنتاجه الفكرى على صورة لفتت إليه الأنظار ، وفجأة ارتطمت السفينة بحجر ضخم فتحطمت مقدمتها وبعض جوانبها ، وذلك أنه أمسك بورقة ساعة العصر ، ذات يوم من فصل الصيف ، فإذا حاجز أسود يسد عليه الطريق ، وأسرع إلى منظاره ليمسح عنه العتمة التى ظنها هناك ، فوجد زجاج المنظار صافيا ، ففرك عينيه ، لكن ذلك لم يزحزح شيئا من العائق الذى جاء ليحول بينه وبين الورقة التى بين يديه .. وعبثا بعد ذلك كانت محاولات الأطباء

فى مصر وإنجلترا وأسبانيا ، ولن يستطيع أحد أن يتصور كم استحال إبراهيم رجلا غير الرجل ، إلا من عرفه كما عرفته ، فعرف مقدار المساحة التى تحتلها القراءة والكتابة من حياته ، فإذا ذهبت عنه القدرة على متابعتها فى حياته ، فكأنما هو فقد الحياة حتى ولو ظلت الرئتان تتنفسان ، وظل القلب ينبض .

ومع ذلك فلم تقتصر العين على العشى الذى أصابها حتى اقترب بها من كف البصر ، بل تجاوزت بكارثتها حدود نفسها ، فكانت سببا فى أن يسقط إبراهيم فتنكسر له ساق ، فجاءت مصيبته الجديدة خفثا على إباله .

لكن الأذن ودوارها ، والعين وعشاها ، والساق وعرجها ، لم ينل منه عشر معشار ما ناله من غدر الأصدقاء .. أصدقاء ؟! يالها من كلمة يسهل جريانها على اللسان ، ثم ندير الأبصار بحثا عما تعنيه الكلمة بين الناس ، فإذا هى إذا أشارت إلى شىء فإنما تشير إلى دخان قاتم يسد الأنوف والحلوق فلا تتنفس الهواء الطلق فى نقائه ، أحسب أن الصداقة قد سميت باسمها هذا لما فيها من الصدق ، فماذا لو تكشف لك صديقك المزعوم عن كذب سبقه كذب ولحق به كذب ؟ .. وحسبى هذا فلن أطيل فى إعادة ما قصه علينا إبراهيم عما لقيه على أيدى « الأصدقاء » .

وكان ذلك كله مدعاة لإبراهيم أن يعيد النظر الفاحص فى نفسه وفيمن حوله – أصدقاء وغير أصدقاء – ليرى كيف يكون بالقياس إليهم وكيف يكونون بالقياس إليه ؛ والذى عرف إبراهيم عن كثب كما عرفته . لابد أن يكون قد عرف فيه ذلك التواضع الفطرى الذى يكاد ألا يكون له نظير فيمن حوله جميعا ؛ ومع ذلك فلم يستطع عند مقارنته الفاحصة تلك إلا أن يشهد أمام ضميره وأمام الله ، أنه بالنسبة إلى معظم أولئك ، إنما هو مايكون عملاق بين

أقزام ، ولعلى أحسن صنعا لو أنى تركت الحديث لإبراهيم ليصف رؤيته كما أجراها فى مقاله قرأتها له ، جعل عنوانها « حارة الأقزام » وهذه هى :

كثيرًا ما لجأ الكاتبون إلى تشبيه الناس بالعمالقة حينًا وبالأقزام حينًا ، فالناس فى أعين الكتاب عمالقة إذا رأوا فيهم ماظنوه فخامة وضخامة ، وهم فى أعين الكتاب أقزام ، إن رأوا فيهم مايدعو إلى التصغير والتحقير.

ومن أقوى الأمثلة التى شهدتها آداب العالم لهذا التصوير بالعمالقة أو بالأقزام تلك القصة التى لبثت منذ ظهورها ، (فى سنة ١٧٢٦) مصدر متعة أدبية ، للكبار والصغار على حد سواء ، وأعنى قصة « رحلات جلفر » التى كتبها جوناثان سويفت ، وهو إنما كتبها ليسخر بها من أوضاع الحياة فى وطنه — بريطانيا — إبان عصره ، فلما رآها قد انقلبت وسيلة يتسلى بها القراء ، خشى أن يكون قد ضاع عليه الهدف المقصود ، فكتب لأحد خلصائه يقول ما معناه : لقد استهدفت بالقصة أن أبث القلق فى صدور الناس ، لا أن أسرى عنهم الهموم .

وموضوع القصة — كما هو معروف — وصف لرحلات « جلفر » فى أرض الأقزام ثم فى أرض العمالقة ، أما وهو مع الأقزام فقد وجد نفسه كالمارد ، ستخف بهم ويضحك من سخافاتهم ، حتى إذا ما انتقل إلى بلد العمالقة ، كس الأمر ، وأدرك كم هو تافه وضئيل .

وواضح أن الكاتب قد أراد بالأقزام ، بنى وطنه فى عصره ، ليسخر من قلة نهم وخفة أوزانهم ، وأنه أراد بالعمالقة تصويرًا للنفوس حين تكون كبارًا للآمال الناضجة حين تبعد آفاقها وتعلو

خذ مثلاً هذه الصورة الآتية التى صور بها الكاتب نموذجًا لما يهتم به الأقزام

فى أرضهم ، لترى معه كم كانوا صغار الشأن فى حياتهم ، وهى صورة يقول فيها : كانت الطريقة التقليدية لكسر البيض عند أكله ، هى أن تكسر البيضة من طرفها العريض ، لكن حدث ذات يوم لجد جلالة الملك ، عندما شرع يأكل بيضة - وكان عندئذ لم يزل بعد صبيًا - أن جرحت أصبعه وهو يكسر البيضة على الطريقة التقليدية المألوفة ، فلم يلبث أبوه الإمبراطور أن أصدر مرسومًا يأمر به أبناء الشعب جميعًا ، أن يغيروا التقليد القائم ، فيكسروا البيض من طرفه الدقيق لا من طرفه العريض ، وإلا تعرضوا للعقاب الأليم ، فغضب الشعب ، ووقف من الإمبراطور الظالم موقف المعارضة ، وينبئنا التاريخ أن ست ثورات شعبية أشعلها الناس لهذا السبب ، وفى تلك الثورات المتتالية ، قتل أحد الأباطرة ، وضاع التاج من آخر ، ولقد كتبت مئات الكتب فى موضوع الخلاف . غير أن أنصار كسر البيض من طرفه العريض قد صودرت مؤلفاتهم كما حرموا بحكم القانون أن يتولوا شيئًا من مناصب الدولة العليا .

فماذا يصنع الزائر الرحالة - إزاء هذه التفاهة - إلا أن يضحك ساخرًا ؟ لكنه لا يكاد يزهى بنفسه بالنسبة إلى أولئك الأقزام . حتى يريد له الله أن يحد من زهوه ، وذلك حين انتقل إلى بلد العمالقة ، وهناك عرف كم هو صغير ضئيل ، إذا قيس إلى هؤلاء الكبار - لا فى ضخامة أجسامهم فقط - بل الكبار كذلك فى نفوسهم وعقولهم وطرائق عيشهم .

أعود فأقول إن تشبيه الناس بالعمالقة حينًا وبالأقزام حينًا . أمر مألوف فى التصوير الأدبى ، ولكنى - علم الله - حين أردت أن أكتب هنا عن حارة الأقزام لم أرد ما أراده أصحاب التصوير الأدبى كلما أرادوا التصغير والتحقير ، وإنما هى واقعة حقيقية حدثت ، وأردت أن أرويها كما حدثت ، لا أزيد عليها

حرفًا من عندى ولا أحذف حرفًا .

والواقعة كما حدثت ، هى أن صديقًا أهدى إلى منظارًا يضخم الأشياء إذا ما نظرت من إحدى جهتيه ، ثم هو يصغر الأشياء إذا ما نظرت من إحدى جهتيه الأخرى ، وهو إذ يضخم الأشياء ، يبديها قريبة كذلك ، وإذا يصغر الأشياء ، يبديها وكأنها ازدادت منك بعدًا .

وكان صديق ذاك ، قد سمع منى مراراً ، رغبتى الشديدة فى أن يكون عندى مثل هذا المنظار الذى يضخم الأشياء ويقربها (ولم أكن أعلم وقتئذ أن المنظار نفسه إذا ما انعكس اتجاهه ، فهو يصغر الأشياء ويبعدها عن الرائى) ، أقول إن صديق ذاك كان قد عرف عنى هذه الرغبة الشديدة ، حتى لقد سألنى يومًا : لماذا لاتشترى لنفسك ماترغب فيه ؟ وأذكر أنى أجبته بقولى إن هنالك أشياء كثيرة مرغوبًا فيها ، لا تجىء إلى الراغبين إلا عن طريق الإهداء ، وأبدًا هى لا تأتى عن طريق الشراء ، ومرت سنوات بعد ذلك الحديث العابر . وإذا به يفجؤنى بهديته .

كانت فرحتى بالمنظار كفرحة الطفل بلعبته ، وحملته على كتفى كما يفعل السائحون ، وأخذت أسير به فى الطرقات أنتقى منها مواقف معينة فأقف ، لأنظر إلى الشارع بما فيه ومن فيه ، أنظر إليها وإليهم فى اتجاه التكبير مرة وفى اتجاه التصغير مرة ، ولكم كانت نشوتى كلما أبصرت واحدًا من خلق الله السائرين فى زحمة الطريق ، مرة وهو فى ضخامة رمسيس الثانى فى تماثيله الضخام ، ومرة ثانية وهو يحبو وكأنه الطفل الصغير .

لم يكن فى الأمر – إذن – شىء من خيال ، إنما هو المنظار أنظر خلاله إلى شارع حقيقى وإلى ناس من لحم وشحم يسيرون فيه ، فالشارع الطويل العريض

مرة يزداد طولا وعرضا ، ومرة أخرى يصغر ويقصر ويضيق حتى كأنه حارة أو زقاق ، والناس السائرون فيه ، يظهرون حينًا وهم عمالقة ، ويظهرون حينًا آخر وهم أقزام ، ولم يكن فى أى شىء من هذا التباين الحاد غرابة أدهش لها ، فهكذا كان المنظار وهكذا كان فعله بتركيب عدساته .

لكن ذلك المنظار اللعين — ليت صديق ما أهداه ، فأساء من حيث أراد الإحسان — قد أفسد على حياتى إفسادًا لم أعد أرى كيف السبيل إلى النجاة منه . وذلك لأنه قد عودنى هذه العادة السيئة ، وهى أن أنظر إلى الناس بالنظرتين ، النظرة التى تبديهم عمالقة ، والأخرى التى تردهم أقزامًا فيهولنى الفرق البعيد بين الرجل الواحد وهو فى نظرة التعظيم ، وبينه هو نفسه منظورا إليه من وجهه الآخر ، ولطالما جزعت لتلك الفروق البعيدة بين النظرتين إلى الرجل الواحد فى حالتيه من عظمة هنا وصغار هناك ، لكنى كثيرا ما طمأنت نفسى من جزعها ، إذ ليس الذنب فى ذلك كله ذنبى ولا ذنب منظارى فهكذا حقائق الناس والأشياء ، لا حيلة لى فيها .

وفيم الجزع إذا رأيت الرجل كبيرًا هنا صغيرًا هناك ؟ كنت أنت الواهم — هكذا حدثت نفسى — حين ظننت الكبير كبيرًا فى كل حالاته ، والصغير صغيرًا فى كل حالاته ، ثم جاءك هذا المنظار بوجهيه ، فتعلمت منه الدرس المفيد ، وليس هو بالشىء الجديد ، أن ترى الرجل أسدًا عليك ، وأن تراه هو نفسه فى الحروب نعامة ، لأن ذلك الازدواج لم يفت حتى الشاعر العربى القديم أن يراه ولكن الذى ثقل على ضميرى ، ليس هو المنظار فى ذاته وأفاعيله بالأشياء والناس ، بل هو الشيطنة التى لمحتها فى طبيعتى ، حين حملت منظارى وذهبت به إلى شارع العلماء ، فهو من أضخم شوارع المدينة ، أشك أن يكون مقصورًا

على أصحاب التخصص العلمى ، فلقد حلا لى أن أرى كم يكون الفرق عند هؤلاء بين حالتى التعظيم والتصغير ، فإذا هو فرق بعيد بعيد ، أبعد منه فى أى وقت آخر — أو هكذا خيل لى — نظرت إلى أحدهم فى حالة عظمته ، فكأننى نظرت إلى مصارع من الوزن الثقيل برزت فيه العضلات بروزًا عنيفًا فقلبت له المنظار فإذا هو القليل الضئيل ، وطاف برأسى سؤال أضحكنى سخافته ، إذ سألت نفسى قائلا : أى هذين الحجمين ياترى سيبقى للرجل فى تاريخ العلوم ؟ إنه لو بقى له حجمه الضخم لملأ من التاريخ مجلدات . وأما إذا غدرت به الأيام وأبقت له حجمه الضئيل ، فالأغلب ألا يجد لنفسه فى السجل صفحة واحدة ، بل ربما لم يجد فيه سطرًا واحدًا .

هكذا أخذت أنقل منظارى إلى عالم بعد عالم ، ولا بد أن أثبت هنا واقعة أذلتنى وظننتها من خوارق الأجهزة الآلية التى لا تؤتمن فى كل الظروف ، وتلك هى أننى وقعت فى شارع العلماء على أفراد بدت ضخامتهم من أى الوجهين نظرت إليهم كما وقعت أيضًا على أفراد بدت ضآلتهم من أى الوجهين نظرت إليهم ، فبدأت طريق عودتى وأنا أقول بخواطرى الصامتة إنه لا بأس فى هذه الدنيا ، فى أن يكون العظيم عظيمًا لأنه عظيم دائمًا ، وكذلك لابأس فى أن يكون الصغير صغيرًا لأنه صغير دائمًا ، لكن البأس المخيف هو فى أن يصغر العظيم ، أو أن يعظم الصغير. لا لسبب سوى طريقتنا فى النظر ، والذى قد يزيد من هول الفاجعة هو أننا ربما رفعنا أسماء أو محونا أسماء ، لا بناء على نظرة مجردة منزهة من انحراف عدسات المنظار ، بل بناء على عادات خلقتها فينا عدسات المناظير ولا تلبث أن تصبح تلك العادات آلية ، تتحكم فى عضلات اللسان وأحبال الصوت بحيث « نكر » القوائم بأسماء العظماء وكأننا نسمّع

(بتشديد الميم) قصيدة حفظناها عن ظهر قلب ، بلا وعى بمعانى ألفاظها .

إننا لنقول – مثلاً – شوقى وحافظ ومطران . نقولها ونحن فيما يشبه الغيبوبة ، لأن اقتران هذه الأسماء هو اقتران محفوظ ، لا اقتران أقمناه بعد دراسة ، نعم قد يكون فى ذكر هذه الأسماء إنصاف كل الإنصاف ، لكن الذى أريد أن أقوله هو أننا غالبا ما نصدر فيه عن عادة آليه ، لا عن وعى بمضمونه وكأننا فى هذا التلاحق الآلى فى حركات الصوت ، أشبه بفئران التجارب العلمية حين تنطلق داخل المتاهات المعدة لها ، انطلاقًا تتعرج به هنا وتستقيم هنالك بغير أخطاء على الطريق ، لا لأنها « علمت » بعد جهل ، بل لأنها « اعتادت » كيف تسير ، ومن هنا كان الحرص الشديد ممن يحرصون على بلوغ الشهرة العلمية أو الأدبية ، على أن يسلكوا أسماءهم فى « مسبحة » الأسماء التى يذكرها الحافظون بدفعة آلية صرف ، فإذا وفق أحدهم فى أن يضع اسمه على حبات المسبحة ، ضمن عندنا مايشبه الخلود .

ويبدو أن العادات الحركية التى تتقاطر بها حبات المسابح فى دنيا الأدب والعلم ، لا تقتصر علينا وحدنا ، فكما نقول نحن بحكم العادة الآلية : جرير والفرزدق ، البحترى وأبو تمام ، الأفغانى ومحمد عبده ، العقاد وطه حسين ، فكذلك يقولون فى بلاد الغرب : راسين وكورنى ، كيتس وشلى ، جيته وشلر ، شو وولز .

وهكذا ، وأعيد القول بأن هذه الاقترانات بين الأسماء ، لو أقيمت على حسن فهم ، لأفادت ، لأنها قد تنفع فى تحديد المعالم داخل حركة أدبية أو فكرية ، لكنها فى حارة الأقزام – كما رأيتها بمنظارى – اقترانات ببغاوية محفوظة ، تضر وقلما تفيد .

٥

لم أكن قد التقيت بإبراهيم لعدة سنين . ولكنني سمعت عنه وقرأت له ، مما جعلني أتابعه خطوة خطوة وكأنى أسايره يوما بعد يوم ، ومن هنا كان علمى بما طرأ على شخصيته من تحول ، وهو تحول لم يكن مقصورًا على إضافة بعد وجدانى إلى إتجاهه العقلانى الخالص ، مما دعانى إلى الظن بأن للأحدب أثرا لكثرة ماتصاحبا وتجاورا ، فأختلفا مرة واتفقا مرة ، ولذلك طاب لى أن أسميه لنفسى — كما أسلفت — اسم إبراهيم الأحدب ، على أنى حين أقول عنه فى تحوله الجديد إنه قد أضاف بعدًا وجدانيا إلى نظرته العقلانية الأساسية ، فلست أعنى أنه كان فيما قبل ذلك كافرًا بحياة الوجدان ، كلا ، فمنذ عرفته من عشرات السنين . قد عرفت فيه وقفة راسخة ثابتة تقسم له حياة الإنسان بين مجالين : مجال الوجدان للعقائد والمشاعر والذوق والمزاج ، ومجال العقل لكل ماهو قائم على منهج التفكير العلمى ، وإذن فلم يكن الجديد فيه إضافة وجدان إلى حياته بعد أن لم يكن ، بل الجديد هو — أولا — أختياره للموضوعات التى يخضعها للبحث العلمى . إذ أخذ اختياره يقع على موضوعات تتصل بطبيعة الذات المصرية والذات العربية مما يجعل النظر العقلى مبطنا بفرشة عاطفية ، و — ثانيا — سرعة إنفعاله حتى وهو فى مواقف الفكر العقلى الخالص ، وكأن ذلك يحدث له كلما لقى من الآخرين عنتا وإجحافا .

وقرأت عن إبراهيم فى الصحف ذات يوم أنه قد تلق دعوة من جريدة الأهرام بأن يكون أحد كتابها . تلقاها وهو لم يزل فى جامعة بإحدى الأقطار العربية ، لكنه إذ تلق تلك الدعوة كان يوشك أن يعود إلى مصر بعد غيابه عنها خمس سنوات ، ولقد قبل دعوة الأهرام فرحا بها لأنه ملىء بأفكار يريد

عرضها عرضا واسعا على جمهور المثقفين ، فلما أن التقى برئيس التحرير لأول مرة دار بينهما حديث ذو دلالة تكشف عن هدفه من الكتابة ، فلقد قال لرئيس التحرير صراحة : إنه يؤمن بأن كتابة الكاتب لاتكون إلا نقدا لما هو قائم ، إذ لو كان الكاتب راضيا بما هو قائم ففيم حملة للقلم ؟ إن ماهو قائم قائم قبل أن يكتب ، فلماذا يكتب ؟ قد يكون من الأهداف المقبولة أن يكتب الكاتب ليلقى الأضواء الكاشفة عن حسنات الأمور القائمة ودفاعا عنها . خشية أن تكون حقائقها خافية عن جمهور الناس . لكن إبراهيم أراد أن يقول لرئيس التحرير إن أغلب هدفه من الكتابة التى يعتزمها نقد لادفاع ، فأجابه رئيس التحرير بأنه من أجل ذلك وجهت الأهرام إليه الدعوة ليكون أحد كتابها ، والحق أن إبراهيم قد سعد بتلك الدعوة منذ تلقاها وهو بعيد ، لأنه — فضلاً عن رغبته فى الكتابة — كان يعلم أن جريدة الأهرام قد استضافت قبله مجموعة من ألمع رجال الفكر والأدب والفن ، مما يسعده أن يكون معهم فى أسرة واحدة .

وبدأت مقالاته تظهر تباعا ، ومنها رأيت فى أوضح صورة كيف امتزج إبراهيم والأحدب فى هوية واحدة : فالفكر ذو أعماق وأبعاد والانفعال الوجدانى ذو حرارة ونبض .

وما إن علمت من الصحف بأنه قد ظفر بجائزة الدولة التقديرية فى الأدب ، حتى اندفعت إلى التليفون أطلبه لأول مرة فى حياتى ، فهنأته من عمق قلبى ، وشكرنى بصوت مختنق ، ودعانى فى إلحاح بأن أزوره فى داره لنتبادل الحديث ، وهناك أخذ يقص على كيف فوجئ بصديق — وهو فى حياتنا الأدبية إمامها — يتصل به خلال الهاتف فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، ليقول له بصوت فرح : مبروك ، فأجابه إبراهيم : شكرا ، ولكن مبروك على ماذا ؟ قال

له : على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب ، إذ كان الاقتراع عليها هذا الصباح (وكان إبراهيم قبل ذلك بخمسة عشر عاما قد ظفر بجائزة الدولة التشجيعية فى الفلسفة) — وسكت إبراهيم قليلا ، ثم قال أتعرف يافوزى كيف كان رد الفعل عندى حين وضعت سماعة الهاتف ؟ بكيت ، نعم بكيت بكاء لم أملك له دفعًا ، ولما أن هدأت إلا من دمع أحسسته يبلل أطراف عينى ، سألت نفسى — ربما خجلا من نفسى — فيم هذا البكاء ، إنه يقينا لم يكن بكاء الفرحة لما سمعته ، إذ كانت جوانحى عندئذ ملتاعة بما تضطرب به ، إذن فلماذ؟ ووجدت الجواب : إنه التنكر الطويل الذى انطبع به موقف الزملاء وما يزال ينطبع ؛ الذى ابكانى هو أن التقدير قد جاءنى فى المرتين (فى جائزة الدولة للفلسفة وفى جائزة الدولة للأدب) فمن لم تكن بينى وبينهم صلة الزمالة ولا صلة الصداقة ، جاءنى التقدير فى الحالتين ممن لم يعرفوا عنى إلا ما يقرؤونه عنى كتبا ومقالات ؛ وأما من ربطتنى بهم أواصر الزمالة والصداقة ولقاءات المودة ، فالله وحده عليم بما كانوا يضمرونه نحوى من رغبة فى الإطفاء والإخفاء وطمس المعالم وضيق الصوت ، وكانت وسيلتهم إلى ذلك هى الصمت الأليم عن كل مايتصل بعمل أنجزته فى علم أو أدب .. ومرة أخرى اختنق صوت إبراهيم بالبكاء ، وغالب نفسه بكلتا يديه يضغط بهما على وجهه حتى غلبها ؛ وهنا نهض وغاب عنى دقيقة ثم عاد يحمل بين يديه علبة مكسوة بالقطيفة الحمراء ، وفتحها وأشار إلى الوسام الموضوع فى داخلها . وقال : إنه وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى ، منحتنى إياه الدولة عن غير طريق الزملاء والأصدقاء ؛ فوزنى عند هؤلاء أخف من الهباءة العالقة فى هواء ساكن ؛ أتعرف يافوزى ماذا كتب لى أحدهم فى خطاب ؟ قال مامعناه : اعلم يافلان بأنك رجل لاقيمة له ، وإذا ظننت غير

ذلك كنت غارقا فى أوهامك التى سببتها لك عزلتك عن الناس ! ثم أضاف صاحب الخطاب إلى تلك القذيفة أن عيرنى ببصرى المفقود ؛ وجاء ذلك كله تتويجا منه « لصداقة » دامت بيننا أكثر من ثلاثين عاما .. إلى هذا الحد يتميز من غيظ مكتوم بعضنا تجاه بعض إذا ما ربطتنا أواصر « الصداقة » ؛ أرأيت ماذا أبكانى عندما جاءنى تقدير الدولة عن غير طريق الزملاء و« الأصدقاء » .

هنا أسرعت إلى تغيير الموضوع لأخرج إبراهيم من لوعة الأسى التى أخذت تتزايد كلما مضى فيما كان يتحدث فيه ، لم يكن عهدى بإبراهيم أن تصدر عنه تلك النبرة الحزينة ردًّا على إساءة من آخرين ؛ إنه الأحدب هو الذى عهدت فيه أمثال تلك المواقف ، وذلك هو مايحملنى على القول بأن إبراهيم الخولى المتزن الرصين ، لابد أن يكون قد أصابه تغير فى صميم كيانه ، متأثرا فى ذلك بصحبته فى أعوامه الأخيرة للأحدب ؛ ولا عجب فى أن يتقاربا ، لأن كليهما كاتب ، ولأن كليهما كذلك متمرد على الشائع المألوف : كان إبراهيم أول الأمر يتمرد بمنطق عقله ، وكان الأحدب يتمرد بدفقة عواطفه ، وهاهما آخر الأمر قد تقاربا فتشابها .

كان واضحا لى عندما زرت إبراهيم فى منزله ، أنه يقيم وحده ، فلا زوجة ولا أطفال ؛ وكنت لأعوام طويلة قبل ذلك لا أدرى من أمر زواجه أو عدم زواجه شيئا ؛ أما الأحدب فقد كنت أعلم عنه يقينا أن قلبه قد جمد عند حبيبة صباه ، فلا هو قد ظفر بها ، ولا قلبه طاوعه بعد ذلك أن يظفر بسواها .

كنت أجلس مع إبراهيم فى غرفة مكتبه ، وقد استوقف نظرى فى بيته كله ، وفى غرفة مكتبه بصفة خاصة ، نظافة ونظام لم نألفها عند غير المتزوجين ؛ ولعل ذلك هو ما أوحى إلى بسؤال أوجهه إليه لأشق به طريقا لأحاديثنا غير ما كنا

نتحدث فيه ، عسى أن أخرج صاحبي من سحابة الحزن التي أخذت تغمره عندما دهمته الذكريات بغدر « الأصدقاء » ففاجأته سائلا (وكأنني على يقين بأنه يعيش وحده) : لماذا لم تتزوج يادكتور إبراهيم ؟ أكانت هي حياة العلم شغلتك عن نفسك ؟ فارتسمت على فمه ابتسامة مصطنعة وقال : لا ، لم تكن حياة العلم لتحول دون الزواج لو أردته ؛ فلقد لبثت خلال الشطر الأكبر من حياتي الرشيدة لا أحتكم فيما أفعله وما لا أفعله إلى حكم عقلي وحده ؛ كان ذلك قبل أن تدب الشيخوخة في عظامي ، وكان « العقل » يتلفت حوله فيمن يعرفهم من الأزواج ، فلا يلحظ بين الزوج والزوجة إلا تضادا ، كأنما خلقت بيوت الزوجية لتجمع أضدادا بين جدرانها ؛ كان أبو العلاء المعرى يقصر هذا التضاد المضحك على رفات الموتى في قبورهم ، إذ قال : رب لحد قد صار لحدا مرارا ، ضاحك من تزاحم الأضداد ؛ لكنني وسعت من الدائرة لأضيف البيوت إلى اللحود في تزاحم الأضداد بين جدرانها ..

فقاطعته قائلا : إن في حديثك هذا رنة من تشاؤم الأحدب ؛ فلقد سمعته مرة يقول : إن رباط الحب قلما يتحقق في زواج ، فالزواج دائما يكون حيث لاحب ، والحب دائما يكون حيث لازواج ، فالحبيبان لايلتقيان إلا قبل أن تهيأ ظروفهما ، أو ظروف أحدهما ، للزواج ؛ أو بعد أن يكون قد تم الزواج من غير الحبيبة أو الحبيب وفات الأوان من هنا رأيت لكل زوج حبيبة كان يود لو كانت له ، ولكل زوجة حبيب كانت تود لو كان لها؛إنها أضداد تلتقي وتتزاحم وتلك هي الحياة..ذلك ماسمعته من الأحدب المتشائم ذات يوم،وكأني بك تردد صداه؟

فصمت إبراهيم قليلا ثم طفق يقول :

اسمع يا أستاذ فوزى ؛ إن الداء لايشفيه كتمانه ، ومن الأدواء المفجعة في

بنائنا الاجتماعي – وأخشى أن يَصْدُق هذا على أمم الأرض جميعا بدرجات متفاوتة – أن يكون الزواج عقدا يبرمه عقلان ينشدان تنظيم علاقة اجتماعية اقتصادية بينهما ، لا رباطا يربط قلبين يتحابان فيلتئمان في قلب واحد لاينشد شيئا إلا أن ينبض نبضا سليما ؛ وطالما لبثت الحال على هذا الوجه فلا بد للقلوب المكلومة أن تلتمس لها سبلا من وراء ستار ، نظام الزواج هو في صميمه اغتصاب يحميه القانون ؛ فإما رجل اغتصب امرأة يحبها ولاتحبه ، أو امرأة اغتصبت رجلا تحبه ولا يحبها ، أو رجل وامرأة يتعايشان ابتغاء مصلحة مشتركة ، بغير حب من أيٍّ من الطرفين.

إن الناس ليكفيهم من الأمر كله سلامة الشكل دون مضمونه ومغزاه ؛ ولى في ذلك خبرات كسبتها منذ الطفولة ولابد أن يكون لك ، فها هو ذا رجل يطلق زوجته ثلاثا ، وإنهما لفي غربة بعيدة عن الوطن ، فتغضب الزوجة عند غير أهل لها ، إذ لم تكن لها حيلة غير هؤلاء يؤوونها ، يوما ويوما ويوما ؛ ثم يتفق الوسطاء مع الزوج على رد زوجته ، فيجيئون بالمأذون ، ومع المأذون ابن له صغير ، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ؛ ويتفق على أن يكون هذا الطفل هو الزوج المحلِّل لرجعة المطلقة ؛ وتدخل الست أم حامد – فهكذا أذكر اسمها برغم تقادم العهد – تدخل مع زوجها الجديد في غرفة معزولة عند آخر الفناء الفسيح ؛ ويظل الوسطاء من رجال وسيدات ينتظرون ، وتخرج الست أم حامد لاتقوى على أن تواجه أحدا بنظرة ، ويتضاحك السيدات ويسألنها ، فتقص عليهم كيف أخذت هي تلهو بالطفل وهو يبكي في غير فهم لمهمته المسكينة. قصتها بمايشبه الابتسام ، ثم ختمتها بمر البكاء .. لكنها عادت إلى زوجها حلالا بلالا ؛ وذلك هو عندهم زواج !

ولعل امرأة سودانية أخرى كانت على سذاجة الفطرة البريئة ، لعلها أن تكون أسلم من هؤلاء نفسا وأصفى ، لأن لها ولدا يشتغل بقيادة السيارات ، أحب امرأة عامل ، وعلم الزوج بما بينهما فطلق الزوجة ، لتذهب فتعيش فى كنف العاشق بغير زواج ؛ لكن العاشق لم يكفه هذا ، بل راح يحمل المعشوقة المطلقة على دراجة بخارية ، فتجلس وراء ظهره مطوقة وسطه بذراعيها ، وينطلق الفاجر بدراجته وعشيقته أمام دكان العامل جيئة وذهابا ؛ فتأخذ النخوة من العامل مأخذها ؛ ويهاجم العاشقين فى سواد الليل ليقتل غريمه بخنجره ؛ فماذا تعمل الأم الثكلى وقد علمت أن معشوقة ابنه تحمل فى جوفها حملا ؟ إنها تصمم على أن تأخذ المأذون إلى قبر ابنها ، ويضحك منها الناس فتقول والدموع تملأ عينيها : مم تهزأون ؟ أريد أن أعقد قرانه على قبره ، ليجىء ابنه « جنى حلال » .. وهو تصور لا يبعد كثيرا عن تصور سائر الناس لحقيقة الزواج.

قلت : ربما أصبت فى أن الزواج غالبا ما يكون شكلا بغير مضمون ، لكن للشكل أهميته .

قال : نعم له أهميته فى ساحات القضاء ، لكن ليس له أدنى الأهمية بحساب المشاعر .. من لى بهزة عنيفة لأرجّ الناس رجا فأباعد بين كل ضدين اجتمعا على مصلحة ، وأقرب بين كل حبيبين افترقا بحكم الظروف .

وأراد لى الله أن تتأيد عندى فكرة الأحدب ، من أن الزواج لا يكاد يجمع إلا الأضداد ، فقد دعانى فريد على عشاء فى منزله بحلوان ، ولم تكن قد مضت على زيارتى له إلا أيام قلائل ؛ لأنه أراد – كما قال – أن يجدد عهدى بجماعة الإخوان .

كنا تسعة أشخاص ، أربعة أزواج وأربع زوجات ، وأنا ؛ فقد حضر

صبرى وزوجته فوقية ، وتوفيق وزوجته سعاد ، وصالح وزوجته سعاد أيضا ؛ وبالطبع كان هناك المضيفان فريد وعفاف ؛ وقد كنت أعرفهم جميعا ظاهرا لباطن وباطنا لظاهر ؛ لكنى مع ذلك أخذت تلك الليلة أمعن النظر فيهم زوجا زوجا ، وكان حديث الأحدب لى عن تضاد الأزواج مايزال يرن فى مسمعى ؛ ولم أجد عناء كبيرا فى أن أصنفهم لنفسى على أساس الميل الغريزى الذى يبدونه فى أحاديثهم تصنيفا بعيدا كل البعد عما هو قائم .

فصديقنا فريد ، بجنوحه نحو طرائق « أولاد البلد » فى عاداته الفردية والاجتماعية ، والذى كان بسبب هذه العادات ثقيلا على قلب زوجته عفاف ، كان هو الفارس الذى يخطف بلب فوقية ، لأنها كانت تريد رجلا يهجم على المرأة بغزله الذى لايراعى فيه الاحتشام المائع ، ويكون من ضخامة الجسم طولا وعرضا بمثل ما كان لفريد من ذلك ؛ إنها لاتكف عن الضحك لكل نكتة يقولها وتتبعه بنظراتها أينما سار وحيثما جلس ؛ ولعلها كانت تقارنه عندئذ بزوجها الوديع المسكين الصامت ، بجسمه الطرى المرتخى فتقول لنفسها فى سرها : ما أبعد المسافة بين رجل ورجل ؛ نعم إن زوجها صبرى مهندس لامع ، تختاره الحكومة فى كثير من لجانها الفنية ، وتملأ صورته الصحف ، وإذا تكلم فإنما يتكلم هندسة فى هندسة ومشروعات فى مشروعات ، لكن مالها هى ولكل هذه البراعة الفنية إذا لم يَغْزُها رجلا ؟ لا ، إن هواها كله مع فريد ولا أدرى إن كانت عفاف قد أدركت ما بينهما ، لكنى أشعر أن لو أدركت لكان لسان حالها يقول : تفضلى هنيئة به ! وأما صبرى فى وداعته واستكانته وصمته والتزامه جانب الحذر فما كانت أنسبه لإحدى السعادين ؛ فسعاد وسعاد فى هذه المجموعة بينهما ما بين السماء والأرض من تباين ، إحداهما انطفأت فى عينيها جذوة

الحياة ، وخمدت فى وجنتيها شعلة الجنس ، وأصبحت فى حركتها المقيدة المكبلة كأنها التمثال الشمعى ، لاتنطق لفظة إلا وقد حسبت حسابها ؛ فلماذا لاينظر إليها صبرى المهندس بعين الإعجاب ؛ أين كانت هذه الوداعة القانعة العاقلة المتزنة يوم أراد الزواج ! .. ولكن من ذا يكون زوج سعاد هذه ؟ إنه صالح الغارق فى مجونه إلى أذنيه ، الذى لم يكن يريد فى دنياه إلا امرأة تقدر لذة الحياة الماجنة وتفهمها دون أن تدخل فى الأمر قواعد الأخلاق ومستويات الحضارة والتهذيب ؛ يعلم عنه أصدقاؤه المعاصرون له والمسايرون له فى أطوار الحياة ، أنه أيام شبابه لم يتورع عن فعل يشتهيه بغريزته ، مهما تكن العوائق فى سبيل أدائه ، لم يتورع أن يتعلق بمؤخرة عربة نقل فى الطريق إذا كانت عليها امرأة يريد مضاحكتها ؛ لم يتورع أن يلبس ثياب أبيه العربية ، جبة وقفطان وعمامة ليسير بها فى زحمة المولد والمسبحة فى يده ، ليفاجئ أسر الفلاحين بزعمه أنه مواطن لهم من بلد قريب من قريتهم ، وأنه يعرفهم فكيف لايعرفونه ؟ فتقع الأسرة الريفية : زوجا وزوجة ، فى حيرة وربكة ، وعندئذ يوجه سهامه إلى الزوجة إذا لمح فيها مسحة من جمال الريف ؛ لا ، إنه لم يتورع عن فعل مهما يكن فيه من جرأة مرضاة لشهوته ،.فإذا نجح كان بها وإلا فهو « فصل » طريف يُروى للأصدقاء فى جلسات السمر.. أيكون هذا الفاجر هو زوج سعاد التى لاتحرك يدا ولاقدما إلا بحساب ؟ نعم إنها بهذا السكون المميت قد قتلت حيوية جسدها قتلا ، وكان يمكن أن تعدَّ من الجميلات ، لكن فكرة الأنوثة بكل خصائصها من جمال أو قبح لم تعد تَرِدُ على خاطر الناظر إليها ، فهى تمثال شمعى كالتماثيل المعروضة فى متاحف الشمع ، تقف أمامه لاتسرى الحيوية منه إليك ومنك إليه ، بل لترى إلى أى حد يشبه التمثال صاحبه ، وكذلك تنظر إلى هذه

المرأة الساكنة الميتة لتنظر إلى أى حد هى تشبه الإنسانة الحية ؛ فأين هذه الزوجة من زوجها الجامح ؟ إنها ربما صلحت زوجة لصبرى المهندس ، فيلتقى هدوءه بهدوئها ، وصمته بصمتها ، وجموده بجمودها فيكون شَنٌّ قد وافق طبقه — كما يقول المثل العربى القديم ؛ أما أن يقع صبرى النعسان على فوقية اليقظانة الصاحية ، وأن يقع صالح الداعر على سعاد الراهبة ، فذلك كوقوع الضد على ضده فلابد لأحد الضدين أن يفر التماسا لأشباهه .

ولم يكن صالح بحاجة إلى شطح بعيد ليجد بغيته على بعد قدم واحدة منه أثناء تلك « السهرة » الصاخبة ؛ ففى الجماعة سعاد أخرى قد لا يدل ظاهرها على حقيقتها إلا لمن كان ذا عين بصيرة بالنساء كعين أخينا صالح ؛ فسعاد الثانية هذه قد تبدى لك سحنة مستعلية على الرجال ، تجلس واضعة ساقا على ساق ، معتدلة بظهرها ، مجيبة من يحدثها إجابة المالكة لزمام نفسها ، لكن وراء هذه الصلابة الظاهرة أمنية ترقد فى أعماق طبيعتها ، وهى أن تجد الرجل الذى يعرف كيف يدوسها بقدميه من جانب الغريزة فيها ، شريطة أن يبقى لها مكانتها فيا بقى بعد ذلك من جوانب ؛ وهى تظن — كما يبدو من لمحات عينيها ومن فلتات لسانها — أن الداعر صالح ربما استطاع أن يكون هو الرجل الذى يقيم الميزان الصحيح بين قتلها فى ناحية وإحيائها فى ناحية ؛ لأنه كان وهو يتحدث إليها بكلمات مسموعة أحيانًا وبوشوشة مهموسة أحيانا ، يلعب على الحبلين ، فتوقيرٌ فى اللفظ والمعاملة كأنه إمام المهذبين وبريق فى عينه المتأرجحة فى محجرها يبعث إليها الإشارات التى تكاد تنطق لها بما كان يستطيع فعله لو ظفر بها .

هكذا أراد الزواج تقسيما لأفراد تلك الجماعة ، وكانت الفطرة تريد لهم تقسيا آخر .

٦
خاتمة

قل ماشئت عما بيننا نحن الثلاثة من تباين ، فإنه محال على المتعقب ألا يربط بيننا رباطا وثيقا ، يبرر له أن يجعل نفوسنا جوانب ثلاثة من نفس واحدة ؛ ومن ذا يزعم أن فى نفوس الناس جميعا نفسا كانت خالصة فى تجانسها مع ذاتها وفى نقائها من عوامل الخلاف بين أجزائها خلافا قد يصل بها إلى حد الصراع بين جزء وجزء ؟ وإذا كانت تلك هى طبيعة الإنسان فمن حقنا — توضيحا للرؤية وتيسيرًا للفهم — أن نفرض بأننى أنا فوزى الراوى ، مع صاحبى الآخرين : رياض عطا وإبراهيم الخولى ، بمثابة نفس واحدة لإنسان واحد ، انقسمت على ذاتها ثلاثة جوانب ، وكان حظى أنا من هذه القسمة أن أقف موقف الشاهد على العضوين الآخرين ، فأرقبهما وهما يتباعدان ويتقاربان ، وفى الوقت نفسه أحدد موضعى منهما معًا .

وقصة النفس التى رويتها فيما أسلفته من صفحات ، هى قصة ذلك الثالوث مأخوذا فرادى ومجتمعا ، ولست أزعم بأننى ذكرت فى قصتى كل ما قد عاشه الثالوث وانطبع به وتأثر بحيث اعوجّ هنا واستقام هناك ، فذلك التقصى فوق مستطاع البشر . وإلا وقعنا فيما وقع فيه « ترسترام شاندى » من تناقض ، وذلك حين أراد أن يكتب عن حياته كتابه مفصلة يخصص لكل يوم منها عاما كاملا ، فحياة الثالوث الذى يعنينا هنا تيار دافق الموج ، وليس فى مستطاعنا إلا أن نلقف منه فى جريانه قطرات من هنا ؛ وقطرات من هناك والآن — وقد بلغنا الخاتمة — نسأل : ماذا — ياترى — كانت أهم معالم تلك « النفس » التى روينا عن حياتها ما روينا ؟ ثم إلى أى حد يمكن اتخاذها شاهدًا على عصرها وظروفه ؟

إذ مهما يكن من أمرها ، فهى ربيبة والدين كان للوالد فيها مزاج وللوالدة مزاج ؛ ثم هى صنيعة خط معين من الدراسة ومن القراءة وهى آخر الأمر محصلة مؤثرات أحاطت بها تفاعلت مع فطرة خلقت عليها فأنتج التفاعل ما أنتج .

إن أول ما يلفت نظرى من تلك النفس أنها فى خصومة دائمة مع نفسها ، وقلما وجدت من حياتها لحظة تصالحت فيها مع ذاتها ، وحسبنا فى هذا الصدد أن نتذكر بأنها نفس مثلثة الأركان لكل ركن منها طبيعة تتنافر مع طبيعة الركنين الآخرين : فهنالك من أعضاء مجتمعها « الأحدب » الذى جاءت حياته انفعالاً مجسدًا لايعرف كيف يستجيب للعوامل المحيطة به فى روية هادئة ، ولقد فقد بسبب اندفاعه الأهوج كثيرًا جدًّا من احترام الناس وتقديرهم ؛ وهنالك إلى جانبه فى ذلك المجتمع الصغير عضو آخر يقع معه على طرف نقيض . وذلك هو إبراهيم الخولى الذى غلب عليه العقل ببرودته وهدوئه وموضوعيته ؛ والذى كان من أجل ذلك يفضل العيش مع « الأفكار » عن العيش مع « الناس » ؛ وأما العضو الثالث — الذى تجسد فى شخصى أنا — فهو الذى يساير الناس فيما تواضعوا عليه ، وهو الذى ينتمى إلى أسرة وإلى أصدقاء وإلى وطن .

إنه إذا جاز لى أن أضع تلك الأنفس الثلاثة التى منها يتألف الثالوث ، تحت الرءوس الثلاثة التى ورد ذكرها فى الكتاب الكريم ، لقلت إن النفس « الأمارة » هى رياض عطا (الأحدب) لأنه يندفع مع وجدانه ولايبلى ، وإن النفس « اللوامة » هى إبراهيم الخولى ، لأنه ممسك فى يده بميزان العقل — ومثله الأعلى هو سقراط — وميزان العقل بطبيعته لايميل مع الهوى ، وأما النفس « المطمئنة » التى أسلمت ذاتها لله تعالى وللمجتمع فيما نزل من شريعة يجب لها أن تراعى ، ومن تقاليد وقوانين يجب لها أن تطاع عن قبول ورضى ، أقول أن

هذه النفس المطمئنة قد تمثلت فى شخصى أنا دون الزميلين الآخرين ، وهو نعيم أحمد الله عليه حمداً كثيرا .

ثم لو جاز لى أن أتحدث عن هذه الأنفس الثلاثة باللغة الفرويدية ، لقلت إن صاحبنا رياض عطا هو الفطرة فى بكارتها . أو مايسمى فى مصطلح فرويد « الهو » ، وأما إبراهيم الخولى فهو النقيض الذى يعارضه ويلجمه ، والذى يسمى فى ذلك المصطلح « الأنا » ، ويأتى فوقهما « الأنا الأعلى » الذى يهدأ فيه الصراع ويسكن القلق .

لكننى وقد وقع على كاهلى عبء الشهادة ، لأكون شهيدًا على نفسى وعلى الرفيقين الآخرين ، اللذين ارتبطت بهما بتلك الخيوط السحرية الغامضة ، التى تراها البصائر وإن خفيت على الأبصار أشهد بأنه – رغم هذا التقييم لنفوسنا فقد كانت الغلبة الطاغية لزميلنا الأحدب ، فهو الذى انعكست حرارته على المجموعة كلها ، فأكسبتها الصفة العامة كما يتلقاها الناس ، ومن هنا كانت مجموعتنا فى أعين المشاهدين ، أدخل فى باب السخط والقلق والنزوة التى تنقل صاحبها من فلك إلى فلك بغير موجب ظاهر .

وكان من أبرز الصفات التى تميز بها الأحدب ، فانخلعت على الثالوث كله فى أعين المشاهدين ، ذلك الانطواء الشديد الذى هو أقرب إلى الفرار من دنيا الناس العامة إلى حيث تحيط به جدران بيته . وحتى هذه الجدران كثيرا ماتبدو له وكأنها العراء فيأوى منها إلى ركن فى غرفة مقفلة النوافذ ، وعندئذ تهدأ أنفاسه وتطمئن نفسه ؛ ولقد سألت الأحدب مرة : متى بدأت عندك هذه الرغبة فى الانطواء على هذه الدرجة التى لا يألفها الناس ، فأجابنى بأنه لايدرى على وجه الدقة متى كانت ولماذا ؟ لكنه كلما دفع ذاكرته إلى الوراء ، وقع على مواقف من

حياته فيها هذا التخفى عن الناس ، فضلا عن أحلامه التى يراها فى نومه أو فى يقظته على السواء ، فما أكثر ما يغفو لتسرح خواطره كيفما شاءت ، فإذا تلك الخواطر تظل تتقاطر خاطرًا فى إثر خاطر ، حتى ترسو به فى مكان منعزل هناك بعيدًا فى الفلاة أو على جبل غير مأهول ، أو فى جزيرة لم تطأها أقدام البشر ؛ وروى لى الأحدب فى هذا السياق ، أنه ما سافر مرة فى قطار ، ووقع بصره على كوخ قائم وحده إلا وتمنى أن تكون حياته فى ذلك الكوخ وحيدًا ، لايريد من الدنيا إلا مقدار طعامه وشرابه ومايرتديه من الثياب .

ولئن كنا نحن — أنا وإبراهيم — لانشارك صاحبنا الأحدب فى هذا الفرار العجيب ، بالفعل أو بالتمنى — فنحن بغير شك نشاركه فى نتيجة ترتبت عليه ، ألا وهى الزهد فى بهرج الدنيا وبذخها ؛ فكلانا — إبراهيم وأنا — يسعد غاية السعادة أمام مائدة عليها أبسط الطعام وأقله ، مادام كافيا لإطعامه من جوع ؛ وكثيرًا جدًّا ماسمعنا الناس ونحن ننسب إلى أنفسنا الغنى . مستدركين بأنه غنى قوامه قلة الرغبات لا كثرة المال .

ولا أترك جانب الانطواء والفرار والتخفى ، دون أن أكملها بما يلحق بها عند الأحدب وإبراهيم معا ، وعند الأحدب بصفة خاصة ، وذلك أنهما معا قد يوصفان بالجبن فى الحياة العامة وفى زحمة الناس ، لكن انظر إليهما فيما يكتبانه وينشرانه تجد الجرأة والشجاعة والعلانية الصريحة كل منهما فى ميدانه ؟ فكأنهما وهما يلوذان بمأمن البيت ، فما ذلك إلا ليزداد شجاعة على الورق . !

وملمح رئيسى ثالث فى النفس — بأضلاعها الثلاثة — التى نروى قصتها ، هو سرعة الانتقال من البشر والبشاشة إلى الجهامة والعبوس ؛ فما هى إلا لحظة خاطفة ، حتى ترى الأحدب — بصفة خاصة — قد وثب من عالم الضحك

والفكاهة إلى دنيا الصرامة والجد ؛ أيكون ذلك طابع المصرى من حيث هو مصرى ، دون أن يكون الأمر مقصورًا على الأحدب وجده ، أو حتى على الثالوث كله ؟ يجوز ، والبيئة تعمل على ذلك ، فلا يفصل الصحراء الجدباء عن الوادى الأخضر إلا خطوة واحدة تخطوها ، فإذا بك فى جدب بعد إثمار أو فى إثمار بعد جدب ، وإن ذلك الخط الرفيع نفسه لهو الفاصل عند المصرى بين الحياة والموت ثم بين الموت والبعث ، فليس غريبا – إذن – أن ينعكس ذلك فى سرعة الانتقال ابان الحياة من البشر إلى العبوس ؛ وعلى أية حال فتلك هى حالة الأحدب الذى – كما قلت عنه – أبرزأشخاصنا الثلاثة تلوينا وتأثيرًا .

إن من لايعرف من الناس ثالوثنا فى تباينه تباينًا تتكامل فيه الأجزاء ، يدهشه أن يرى تلك النفس جادة غاية الجد بعد أن رآها عابثة كل العبث ، أو أن يراها عابثة بعد أن رآها جادة : يدهشه أن يراها وكأنها قلب كلها لاتعرف إلا حرارة العاطفة وقوة نبضها بعد أن كان رآها فخيل إليه أنها عقل ولاشىء فيها إلا العقل الذى لا يلين مع الحب ولا يضعف مع الميل .

اللهم إذا كانت « المراهقة » بمثل هذا الوثوب السريع من فلك إلى فلك ، فتلك النفس الذى نروى قصتها قد امتدت بها المراهقة منذ مرحلتها العمرية حتى شاخ صاحبها وأبيض شعره ووهن عظمه وعرجت ساقه وعميت له عين وعشيت الأخرى .

وسمة رابعة نتميز بها نحن الثلاثة جميعا ، لافرق فيها بين رياض عطا ، وإبراهيم الخولى ، وبيبى ، وهى شدة التواضع الذى كثيرا ما يسرف فى حق نفسه فيبدو للآخرين ضعة لاتواضعا ، ومن ثم تسرع المخالب إلى نهشه والأنياب إلى تضريسه ؛ هو تواضع ورثته « النفس » عن الوالدة لا عن الوالد ، فقد كانت

هى التى أورثتها معظم أخلاقها ، وأما الوالد فلم يكن متواضعا ، وجاءت هذه « النفس » لا لتأخذ عنه بل تميل إلى اجتناب ما كان يتميز به .

لكن تواضع « النفس » التى نتابع سيرتها ، لم يكن تواضعا غير مشروط . بل كان مقيدًا بظروفه ، فهو تواضع بلا حدود أمام الضعفاء غير الأدعياء ، وأما إن صادفتها شخصية معتدية ، لجأت إلى الانسحاب حتى لاتضعف أمامها فتؤكل ، وقلما لجأت إلى مواجهة اعتداء باعتداء ، وقد لايكون ذلك عن عفة بقدر ما يكون عن شعور بالنقص والعجز .

إنه لو ترك لشهر زاد حبل الكلام لما سكتت مهما صاحت الديكة فى أذنيها لتذكرها بإصباح الصباح ، ولماذا تسكت و« النفس » التى تتحدث عنها تغرى بالمضى فى الحديث الذى ينشر عنها ما انطوى ويفصح عما استتر ، ففيها قوة وضعف وفيها عقل وقلب ، وفيها علم وأدب وفن ، وفيها الخير والشر والفجور والتقوى .. (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) « صدق الله العظيم » .

المحتويات

صفحة

رقم الإيداع : ٨٨/٣٠٥٦

الترقيم الدولي : ٩٧٧ - ١٤٨ - ٢٢٠ - ٣

مطابع الشروق

المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري
أفكار ومواقف
تجديد الفكر العربي
ثقافتنا في مواجهة العصر
مجتمع جديد أو الكارثة
مع الشعراء
من زاوية فلسفية
في حياتنا العقلية
في فلسفة النقد
هذا العصر وثقافته
هموم المثقفين
قشور ولباب
عربي بين ثقافتين
حياة الفكر في العالم الجديد

جنة العبيط
الكوميديا الأرضية
موقف من الميتافيزيقا
شروق من الغرب
قصة نفس
قصة عقل
قيم من التراث
في مفترق الطرق
عن الحرية أتحدث
رؤية إسلامية
في تحديث الثقافة العربية
بذور وجذور
حصاد السنين